سلسلة
آفاق عالمية
92



العاشق المسافر

(وقصص أخرى)

أليس مونرو

ترجمة: أحمد الشيمي

الهيئة العامة لقصور الثقافة

العاشق المسافر

وقصص أخرى لـ «أليس مونرو»

ترجمة وتقديم

د/ أحمد الشيمى

وزارة الثقافة



سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• العاشق المسافر
• ترجمة وتقديم:
د/ أحمد الشيمي
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
256ص. 13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال
• رقم الإيداع: ١٩٠٤٢/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولي: 978-977-704-898-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

92

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

العاشق المسافر

مقدمة

من الخصائص المعروفة للقصة القصيرة الممتازة أنها تستقر فى وعى القارئ زمنًا طويلاً. ولألس مونرو قصص تتميز بهذه الخصيصة؛ وهى القدرة على الاستقرار فى وعى القارئ زمنًا طويلاً. إنها تشبه فى ذلك تشيخوف دون أن يعنى ذلك أن قصصها تشبه قصصه من الناحية الفنية، أو أنها تأثرت به. ولكن أعنى تلك الصفة الأساسية التى يتصف بها كل كاتب كبير فى فنه كله كما حدث مع إدغار ألان بو وتشيخوف وفلوبير وبعض قصص جون أبدايك القصيرة، وكما حدث مع دستويفسكى وتولستوى وسرفانتيز وموليير وإبسن وتشوسر وإيفو أندريتش فى الأدب الغربى، وكما حدث مع بعض قصص محمود تيمور وطه حسين ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويحى حقى والقصص القصيرة التى كتبها جمال الغيطانى وعزيز نيسين وعبد الحميد بن هدوقة. فالقارئ لا

ينسى بسهولة قصة مثل جسر على نهر درينا لإيفو أندريتش وثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ، وموت موظف لتشيخوف، وبعض قصص عبد الحميد بن هدوقة، والقارئ قد ينسى بسهولة قصصاً لكتاب مثل كافكا وجيمس جويس وفرجينيا وولف وفولكنر لأنهم يخاطبون الصفوة منذ البداية، أو لأنهم كانوا يكتبون وفى أذهانهم أشياء وأمور لا تتصل بقضاياه اتصالاً مباشراً، أو لعله أحس أن هؤلاء يتعالون عليه حين يرصدون نفس الإنسان ذلك الرصد الفلسفى الموغل فى العمق.

ولدت أليس مونرو فى العاشر من يوليو عام ١٩٣١ فى مدينة ونغهام من أعمال أونتيريو لأسرة من الفلاحين. أبوها اسمه روبرت إرك ليدلو، وأمها آن كلارك ليدلو، كانت تعمل بالتدريس. بدأت الكتابة وهى فى فترة المراهقة، ونشرت أول قصة لها فى عام ١٩٥٠. عملت فى تلك الفترة أمينة مكتبة، وفى عام ١٩٥١ تركت الجامعة وتركت تخصصها فى الأدب الإنجليزى لتتزوج من جيمس مونرو وتنتقل معه إلى فانكوفر فى بريتش كولومبيا. أنجبت منه ثلاث بنات: شيليا فى عام ١٩٥٣، وكاثرين فى عام ١٩٥٥، وجينى فى عام ١٩٥٧. ماتت كاثرين وهى فى شهرها الخامس عشر، انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى فيكتوريا لإنشاء دار نشر خاصة بهم اسمها دار نشر آل مونرو، وفى عام ١٩٦٦ ولدت ابنتهما آندريا.

نشرت أليس مونرو مجموعتها القصصية الأولى "رقص الظلال السعيدة" فى عام ١٩٦٨ فنالت عنها جائزة الحاكم العام وهى أرفع جائزة فى كندا، ثم نشرت مجموعة قصص قصيرة اعتبرتها رواية

وهى "حيوات بنات ونساء" عام ١٩٧١، وانتقلت بعد طلاقها من جيمس مونرو إلى أونتيريو لتعمل فى جامعة أونتيريو ككاتبة. وفى عام ١٩٧٢ تزوجت من عالم الجغرافيا جيرالد فرملن، وانتقلت بعدها إلى مزرعة خارج كلنتون أونتيريو، ونشرت مجموعتها القصصية الثانية "من تظن نفسك؟ عام ١٩٧٨، تحت عنوان "الخادمة المتسولة" فنالت جائزة الحاكم العام للمرة الثانية. توالت بعد ذلك مجموعاتها القصصية، وتوالت أيضًا الجوائز المحلية والدولية: نذكر منها جائزة "أو هنرى،" وجائزة النقاد وجائزة "مالامود" للتميز فى القصة القصيرة، وجائزة الكومونولوث للكتابة الابداعية، وجائزة الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. ومؤخرًا نقرأ فى أخبار الأدب المصرية (العدد ٨٢٩) أن أليس مونرو قد فازت بجائزة مان بوكر الدولية التى تبلغ قيمتها ٦٠ ألف جنيه استرلينى، وهى تتطلع مثل غيرها من الكتاب الأفذاذ إلى جائزة نوبل. حتى الآن نشرت ألِس مونرو ثلاث عشرة مجموعة قصصية وهى على التوالى:

١- رقص الظلال السعيدة عام ١٩٦٨

٢- حيوات بنات ونساء عام ١٩٧١

٣- شىء كنت أريد أن أخبرك به ١٩٧٤

٤- من تظن نفسك؟ ١٩٧٨

٥- أقمار جوبيتر ١٩٨٢

٦- صديقة شبابى ١٩٨٦

٧- أسرار مفتوحة ١٩٩٤

٨- حب امرأة طيبة ١٩٩٨

٩- كره، صداقة، مفاتحة، حب، زواج ٢٠٠١
١٠- لا حب يدوم ٢٠٠٣
١١- الأفضل من قصص مونرو
١٢- الهاربة ٢٠٠٤
١٣- مشهد القلعة ٢٠٠٦

يحس القارئ أن كثيراً من شخصيات أليس مونرو ليست مقطوعة الصلة به، كما يحس القارىء أن كثيراً من الأمكنة التى تصفها ألِس مونرو مألوفة لديه. والقارئ الذى أقصد هو القارئ فى كل مكان وليس القارئ فى كندا أو فى القارة الأمريكية. إنها أمكنة تزدحم بساكنيها البسطاء، الذين يبذلون العرق والدم من أجل لقمة العيش. إنهم من الغالبية وليسوا من القلة. هذه الغالبية هى التى تصنع الحياة بآلامها وآمالها، بما فيها من صراع ويأس، وضيق ويسر. القارئ يحس أنها تحبه فيحبها ويعشقها دون أن يرى الواحد منهما الآخر. والكاتب الذى يستطيع أن يقترب من قارئه على بساطته وسطحيته أو ثقافته وتعمقه باللغة التى يفهمها وبالطريقة التى تنال رضاه هو الكاتب الذى لا ينساه قارئه بسهولة ولا يمل من ترديد ذكراه، ولا يتوقف صداه فى نفسه حتى النفس الأخير من حياته. تتمتع أليس مونرو بهذه القدرة الغريبة على الاستقرار فى وعى القارئ، سر من أسرار الصنعة، وموهبة لا يمنحها الله إلا لمن اصطفاه. إن قصص أليس مونرو تتحول إلى قصائد شعرية من الطراز الممتاز حين تستقر فى وعى القارئ الذى لا يمل من تذكرها واسترجاعها، بل إنه يتخذ منها وسيلة للتغلب على رتابة الحياة،

وأحيانًا مشكلاتها الكبرى، فتتحول عنده لحظات اليأس إلى لحظات أمل وهو يردد من أعماقه تلك الترنيمات المونورية التى استظهرها وسعد بها. عندئذ يدرك القارئ أن القصة القصيرة محكمة الصنع تعادل وزنها ذهبًا.

وسمة أخرى تتسم بها أليس مونرو وهى قدرتها على استدراج القارئ بعد أن تكون قد كسبت وده بكلمات قلائل وأسطر لا يتعدى مداها الفقرة أو الفقرتين، إلى عوالم تجمع بين الغريب والمألوف، والطريف والجاد، والهازل والمأساوى، إن الغريب لديها يصبح مألوفًا والمألوف مدهشًا والغامض محسوسًا. إنه عالم تهديه إلى القارئ بعد أن تكون قد تمكنت منه وألفته غاية التمكن والألفة. إنه عالم حقيقى رغم أنه من صنعها ومن نتاج خيالها وثمرة تصورها الثرى، تدفع به القارئ إلى التأمل بعد أن يفرغ من القصة فى جلسة واحدة. والقارئ لا يفرغ من قراءة قصة لأليس مونرو حتى يكون قد غمرته سعادة بالغة؛ سعادة سببها ذلك الإحساس بأنه قد عرف عالمًا لا يمكن أن ينساه، وعرف أناسًا صحبهم وسعد بصحبتهم؛ إنها السعادة لامتلاكه عالمًا يظل لفترة طويلة سببًا فى بهجته كلما تذكره أو جال بخاطره مع مرور الأيام وتعاقب السنين. إنه أيضًا سر من أسرار الصنعة فى الكتابة الأبداعية لا نجد له سببًا معلومًا ولا مصدرًا يمكن الرجوع إليه.

إن القدرة على الحكى عند أليس مونرو قدرة كبيرة لا يضاهيها فيها كاتب معاصر آخر. وهى لا تسرد القصص التى يمل منها القارئ بعد قراءة صفحة واحدة أو أقل من صفحة، ولكنها تسرد

القصص التى تزيد من شوق القارئ بعد كل سطر من سطورها، ويتعاظم هذا الشوق بعد كل صفحة من صفحاتها، حتى إذا فرغ من القراءة انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة لا لأنه قرأ أحداثًا عجيبة أو طالع حياة غريبة، ولكن لأنه قرأ قصة، ولأنه شعر بأن ما قرأه قد عزز من خبرته فى الحياة وزاد من رصيده من الحكمة والمعرفة، وكشف له عن جوانب أخرى فى حياة الرجال والنساء لم يكن يعرفها ولم يكن ليأبه بها لو كان عرفها من طريق آخر.

وأليس مونرو عاشقة للقصة القصيرة تعيش فى محرابها ولا ترضى عنها بديلاً. فهى لم تجرب قلمها فى الرواية إلا مرة واحدة وذلك حين كتبت روايتها الوحيدة "حيوات بنات ونساء" وهى رواية تقع فى المنطقة الوسطى بين الرواية والقصة القصيرة يدرجها بعض النقاد فى نوع الرواية القصيرة "Novella" وهى ليست كذلك لأنه لا يمكن قياس ذلك بعدد الكلمات أو عدد الصفحات؛ فرواية همنجواى العجوز والبحر لا تصل صفحاتها إلى المائة صفحة ولكنها رواية بمعايير أخرى أهم من معايير الطول والقصر وعدد الكلمات. إنها رواية بمعايير احتدام الصراع وأهميته وعدد الشخصيات وما تمثله كل شخصية من هذه الشخصيات من قيم جمالية وإنسانية شاملة، وكذلك هى رواية بمعايير التمكن من رسم هذه الشخصيات وتصوير الأمكنة وتزاحم التناقضات.

وهذا ما يحس به القارئ حين يقرأ قصة لأليس مونرو طويلة أو قصيرة. إن لها قدرة على الوصف تنبع من عشق فريد للكلمة تجده عند كبار الكتاب مثل ماركيز ومحفوظ والغيطانى وديكنز. إن الواقع

فى قصصها يمتزج بالخيال بطريقة نادرة محيرة؛ وهى حيرة جميلة أو قل حيرة لذيذة لا يحس القارئ لذتها فى غير الفن الراقى النادر. إنها متعة الولوج إلى عالم تتعالق شخصياته وتتعقد خيوطه بطريقة تدعو إلى التأمل المستمر كأنك أمام قطعة من السجاد الإيرانى البديع تقع فى حبها كما يقع العاشقون فى أسر الجمال.

وأليس مونور تكاد تكون الكاتبة الوحيدة فى العالم التى نالت شهرتها من خلال القصة القصيرة ولم تنلها من خلال الرواية أو المسرحية أو الشعر. كان الكتاب يلجأون إلى الرواية حتى ترسخ شهرتهم، وإلى الشعر حتى يذكرهم النقاد. ألِس مونرو هى الأديبة الوحيدة التى تكتب القصة القصيرة ولا تكتب شيئًا آخر. لم تكتب ألِس مونرو رواية طويلة، ولم تجرب قلمها فى ديوان من الشعر، ولم تكتب مسرحية تريد لها من يعرضها على مسرح من مسارح كندا أو غير كندا. فما الحكمة من ذلك؟ هل تستشرف ألِس مونرو المستقبل وتكاد تجزم بأن القصة القصيرة هى أدب المستقبل؟ الأهم من ذلك هل تستشرف ألِس مونرو المستقبل وتريد أن تقول إن القصة القصيرة هى البديل عن الرواية، وأن الرواية هى الفن الذى لن يعيش عدداً من القرون التى عاشها حتى الآن منذ أن اكتشفها الأوربيون فى القرن الثامن عشر؟ وكيف نتصور مستقبلاً تختفى فيه الرواية ويضمحل فيه الشعر وتتغير فيه المسرحية إلى ضرب من التمثيل لا صلة بينه وبين "الورق" كما يقولون اليوم إلا ذلك السيناريو الذى يكتبه الكاتب ويدفعه إلى الممثلين ليستظهروه استعداداً للأداء؟ فهل كانت مونرو تستشعر المستقبل، وتنتظر اليوم الذى تخرج فيه

القصة القصيرة من الزاوية الضيقة التى تحتلها إلى جانب الرواية والمسرحية وديوان الشعر. وهل تتحرر القصة القصيرة من نظرة النقاد المتعالية عليها بوصفها الفن الثانوى فى ترتيب العائلة الأدبية؟

أليس مونرو خجولة لا تحدثك بالكثير عن فنها ولا عن نفسها، ولا تفيدك إذا أردت أن تعرف منها سر صنعتها، ومصادر إلهامها. قد تبدو لك فلاحة ساذجة تخاف الحسد أو تخاف من الغرباء. فقد نشأت ألِس مونرو فى بيئة فقيرة محافظة لا يتحدث فيها الناس عن أنفسهم ولا عن إنجازاتهم ولا سيما حين تكون امرأة تعمل فى مهنة تجعلها امرأة مختلفة عن سائر النساء فى قريتها أو فى مدينتها الصغيرة، والاختلاف مدعاة للتساؤل والتأمل والقيل والقال. وهى تضن على الناس من أن تفشى سر روعتها فى كتابة القصة القصيرة، وللقصة القصيرة سر لا يعرفه غير كتابها الذين يعرفون أسرار مهنتهم كما يعرف الطهاة أسرار الأطعمة. وهم يدفنون أسرارهم فى ضمائرهم لأنهم يستعينون به على الابداع وليس على الحديث عن الابداع. أو لعلهم لا يدفنون أسرارهم فى ضمائرهم، بل لعلهم لا يعرفون شيئًا عن هذه الأسرار، وربما لا يعرفون أنهم يكتبون أدبًا جميلاً يفوق جماله ما يتوقعون.

فى كندا قلما تُباع المجموعة القصصية القصيرة بأعداد كبيرة إلا إذا كانت بقلم أليس مونرو. لم يكن ذلك يتحقق لولا موهبتها الفذة وتمكنها البديع من تقنيات الكتابة وأسلوبها الساحر فى السرد. كان فولكنر – الحاصل على جائزة نوبل – يقول إن القصة القصيرة هى

فن المستقبل، وهى أكثر الفنون الأدبية طلباً بعد الشعر، وكان يقول أيضًا إن النجاح الذى حققه فى الرواية راجع فى المقام الأول إلى فشله فى القصة القصيرة وفشله فى كتابة الشعر أيضاً. وكان ألبرتو مورافيا يعقد المقارنة بين قصص موباسان وتشيخوف القصيرة وبين روايات دستويفسكى، وكان يقول إن القصة القصيرة لديها القدرة على خلق عالم أرحب وأوسع وأكثر تنوعًا من قدرة الرواية. وكان مورافيا يقول كذلك إن قصر القصة القصيرة لا يجعلها عبدة للأيديولوجيات التى تستعبد الرواية؛ فالرواية تجعل من الأيديولوجيا هيكلها العظمى الذى تتداعى على أجزائه من الرأس وحتى القدمين، فى حين تخلو القصة القصيرة من هذا الهيكل العظمى. إن ألِس مونرو تعتقد أن حيوات البشر مزيج من المألوف والغامض، وأن عدم قدرتنا على إدراك الحقيقة كلها لهو من تجليات النقص فينا. فى قصصها شخصيات محيرة لأنها غامضة، ويظل الغموض يلازمها حتى آخر القصة؛ شخصيات لا نستطيع الإحاطة بها ولا فهمها؛ لأنها شخصيات منغلقة حتى على نفسها؛ فالوجود نفسه غامض يتجاوز طاقة البشر على الإحاطة والفهم.

ولدت أليس ليدلو مونرو فى أثناء الكساد الكبير فى منطقة ريفية فى جنوب غرب أونتيريو فى عام ١٩٣١. كانت تحلم فى مبتدأ حياتها أن تصبح نجمة سينمائية ولكن سرعان ما تخلت عن هذا الحلم مستبدلة به حلمًا آخر وهو أن تصبح كاتبة. نجد فى قصص ألِس مونرو أصداء الكساد الكبير والحرب العالمية الثانية التى اندلعت وهى بعد فى الثامنة من عمرها، ووضعت أوزارها وهى فى الرابعة

عشرة. ونحن نلمس هذين الحدثين فى قصصها الباكرة؛ فنجد أن شخصياتها تتسم بكساد فى الروح يعقبه كساد مادى لا مفر منه. كذلك نجد أن شخصياتها مشتبكة فى صراع إيديولوجى يقيد حركتها ويشل قدرتها على التقدم. ونجد أيضًا أن أغلب شخصياتها مشردون أو هائمون على وجوههم فى الشوارع وعلى الطرقات، أو مهاجرون لا يملون من الهجرة من مكان إلى مكان. وقلما نجد شخصيات مستقرة فى أماكنها، وإذا وجدنا هذه الشخصيات نجدها خاملة ساكنة لا يدفعها طموح ولا يحدوها أمل. إنها أصداء الحرب العالمية الثانية التى تركت العالم محطمًا مكلومًا.

عاشت مونرو فى حى الفقراء الريفى على مسافة ميل من شرق ونغهام، وهى تتذكر هذه الفترة من حياتها فتقول - نقلاً عن سى. إس. روس فى كتابه المعنون: "ألِس مونرو: حياة مزدوجة" الصادر فى عام ١٩٩٢ - "عشنا فى المكان الذى لم يكن أكثر من جيتو صغير، بين مهربى مخدرات وعاهرات ومشردين ومنبوذين." كان هؤلاء هم أول من عرفت من البشر، وكانت تظن أنها لم تكن إلا واحدة من أولئك البائسين. ولكنها مع ذلك وجدت فى بيت أبيها مكتبة صغيرة فيها كتب ومجموعات قصصية راحت تقرؤها بنهم شديد فوجدت أن خيالها يلتهب ورغبتها فى الحكى تلح وطموحها فى الكتابة يصبح هاجسها الأول. وجدت فى تلك القصص التى طالعتها فى مكتبة أبيها غذاءً لروحها وتسلية لنفسها وهربًا إلى الخيال من واقع لا يرضيها ولا يطمئنها ولا تأنس إليه. لم تكن مونرو من أسرة من المنبوذين أو تجار المخدرات أو المهاجرين ولكن أباها كان يمتهن

مهنة الصيد وكانت أمها مدرسة فى مدرسة ثانوية. وذهبت مونرو إلى مدرسة كان يختلف إليها فقراء المدينة والقرى المجاورة، وكانت هذه المدرسة ممتلئة بمظاهر الفقر والعنف والخطر مما جعل مونرو مستعدة دائمًا للدفاع، ولكنها لم تجد وسيلة للدفاع عن نفسها، وهى الفتاة الحيية المسالمة، أفضل من الخيال وكتابة القصص التى ربما تجد فيها ما يؤنس وحدتها ويزيل ضيقها. كانت حياة مونرو فى المدرسة عنيفة بالقياس إلى الحياة فى البيت حيث الهدوء والقراءة وربما الكتابة. يقول روس: "كانت حياة المدرسة شيئًا مهينًا قاسيًا غبيًا ومخيفًا فى الوقت نفسه، ولكن مونرو تعلمت منها كيف تستعد للدفاع عن نفسها، وأول ما استعدت به هو الخيال الذى لجأت إليه لكى ينقذها من هذا العالم الذى بلغ من القسوة حدًا لا قبل لها به."

ولذا نجد أن أليس مونرو تقنعك في كل قصة من قصصها أن الخيال أجمل من الحقيقة، وأن الأساطير أجدى من حقائق التاريخ، وأن الأحلام أكثر متعة من الواقع، وأن الأمل أفضل من الحزن، وأن الحب أقوى من الموت، وأن الابداع قد يأتى من جوف الخراب، وأن الحاضر والمستقبل ينبثقان من رحم الماضى كما تنبثق الأضواء من جوف الظلمات. ولذا نجد العالم المدمر قد استبدلت به عالمًا من الأمل والرفاهية، تفعل ذلك فى أغلب قصصها لأنها تريد أن تقول إنها انتصرت على عالمها المحتشد بالخراب والدمار، وهو عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو عالم كان كفيلاً بسحقها وتحويلها إلى كم مهمل فى طرقات الحياة الصعبة.

تمتلئ قصص مونرو بشخصيات الفنانات والكاتبات. نجد ذلك

مثلاً فى مجموعتها القصصية المعنونة "حب امرأة طيبة" التى ترجمنا منها "جزيرة كورتيز" وقصة "بعد التغيير". فى قصص هذه المجموعة وغيرها نجد شخصيات يمارسون هواية الكتابة أو يريدون ممارسة الكتابة ولكن الكتابة مهرة حرون لا يجدون إلى سياستها سبيلاً. وقصة "حيوات بنات ونساء" خير دليل على ذلك لأنها تتناول حياة فنانة من البداية وحتى النهاية. وتمتلئ قصصها كذلك بشخصيات هشة لا حيلة لها ولا طاقة على التغلب على تبعات الحياة الصعبة؛ شخصيات ضعيفة لا تملك من أمرها شيئًا، ولا أمل لها يلوح فى الأفق القريب أو البعيد. وهى شخصيات نجدها فى حياتنا اليومية، بل قلما نجد نقيضها ممن يمسكون بأعنة مصائرهم ومصائر غيرهم. وهى شخصيات منتشرة فى قصصها انتشارها فى الحياة من حولنا. وفى قصصها أيضًا شخصيات شريرة يجول الشر فى نفوسها كما تجرى الدماء فى الشرايين. ولكن شخصيات مونرو الشريرة لا تشبه الشخصيات الشريرة عند مارلو وملتون وشكسبير، ولا عند دكنز وهاردى وغيره ممن يصورون شخصيات شريرة لا يترك الشر فى نفوسهم مساحة للود ولا مجالاً للتوبة. إنما تصور لنا ألِس مونرو شخصيات تقع فى المنطقة الوسطى بين الشر والخير، بين الضعف والقوة، بين الشجاعة والجبن. شخصيات متصلة أسبابها بنا نحن البشر نعرفهم ويعرفوننا، شخصيات يمكن الرثاء لها أو السخط عليها.

موضوعها الأثير هو رصد العلاقات الاجتماعية بين الناس فى بلادها سيما فى مدينة فانكوفر - كندا - وتركيزها ينصب على

العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر: أى بين تجربة مضى بها الزمن وتجربة قائمة تثير العجب لتشابهها فى النهاية مع تجارب الماضى القريب وربما البعيد: فى كليهما يعجز الفرد عن اتخاذ زمام المبادرة، ولا تواتيه الشجاعة على الفكاك من أزمته والخروج من قوقعة عالمه الفردى الضيق. وتزداد الأزمة تعقيداً عندما تلتمس الشخصية الحلول لمشكلات الحاضر فى تجارب الماضى القريب أو حتى البعيد فينتهى الأمر دائماً إلى العجز والفشل الذى يكون قد تمكن من الروح وأفضى إلى اليأس. فليس لدى الماضى حلولٌ ناجعة لمشكلات الحاضر، ولا يستطيع الحاضر أن يتحمل إيقاع الماضى البطىء ويتسق مع عالمه الغريب. إن الشخصيات التى تتطلع للماضى بحثًا عن حلول لأزمات الحاضر شخصيات ساقطة، فاشلة، يضيع حماسها وقوتها وعنفوانها مع الزمن، ويفتر حبها للحياة مع الوقت، تقع فى أسر الماضى فتفقد الحاضر والمستقبل معًا. وألِس مونرو تعرض علينا نماذج لهذه الشخصيات فى "جزيرة كورتيز" و "وقبل التغيير" و"الإوز البرى"، وسائر القصص التى اخترناها لنقلها إلى العربية. وتعرض علينا نماذج أخرى تتضاد معها، نماذج من شخصيات تمتلئ نفوسها بحب الحياة، ولا تلتفت إلى الوراء، وإنما تجد الحلول فى التفكير للمستقبل، وتحليل الماضى، والاستفادة منه، أو تركه فى مكانه الأول. ومن الماضى ما يصلح، ومن الماضى ما يفسد، ومن الماضى ما لا يصلح ولا يفسد.

هذه نماذج إذن من قصص أليس مونرو القصيرة، وهى نماذج تشجع المترجمين على ترجمة المزيد من أعمال هذه الأديبة المرموقة

إلى العربية، ومن حسن الحظ أن الترجمة نشطت فى بلادنا بعد إنشاء المركز القومى للترجمة، وسلسلة آفاق عالمية التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة. أتمنى، وسوف يتمنى ذلك كل من يقرأ هذه القصص، أن يحظى أدب أليس مونرو بما يستحقه من اهتمام المترجمين والباحثين.

باجا - سوهاج
٢٠٠٩/٩/٣١

د/ أحمد الشيمى
أستاذ الأدب الإنجليزى المساعد
جامعة بنى سويف

جزيرة كورتيز

العروس الصغيرة كنت فى العشرين من عمرى، وكان طولى ١٧٠ سنتيمتراً وثمانية عشر مليمتراً. كان وزنى بين الستين والاثنين والستين كيلوجراماً تقريباً. ولكن البعض، ومن بينهم زوجة مدير "تشس" فى العمل، وسكرتيرة أقدم منى فى مكتبه، والمدام "غورى" التى كانت تسكن فى الطابق الثانى، كانوا ينادوننى بالعروس الصغيرة. وأحياناً كانوا ينادوننى بعروستنا الصغيرة. وكنا - أنا و"تشس" - نتندر بذلك ولكن رد فعله فى الخارج كان مختلفاً. كان يرد بنظرة بلهاء غير مفهومة بينما كنت أرد بنظرة بها مزيج من الاستياء والخجل والإذعان فى آن.

كنا نسكن فى بدروم منزل فى"فانكوفر." لم يكن المنزل ملكاً لعائلة "غورى" كما اعتقدت فى البداية، ولكنه كان ملكاً لابن المدام "غورى"

وكان اسمه "راى." كان "راى" يأتى أحيانًا ليصلح بعض الأشياء في المنزل متسللاً من باب البدروم، وهو الباب الذى كنا ندخل منه أنا و"تشس." كان "راى" ضامر الجسم نحيف الصدر، فى الثلاثين من عمره، على ما يبدو، يحمل صندوقًا مليئًا بالأدوات، ويضع قبعة عمال على رأسه. كان يعانى من تقوس مزمن فى ظهره يُرَجح أنه كان بسبب طول الانحناء وهو يصلح من أمر سباكة فى المنزل، أو أسلاك هاتف، أو أبواب. كان وجهه فى لون الشمع، وكان كثير السعال. كانت كل نوبة من نوبات السعال التى كانت تهاجمه، أو كان يصطنعها، فى مقام الجملة الخبرية التى كانت تنبئ عن دخوله إلى البدروم على أنه دخول لابد منه. لم يكن يعتذر لحضوره المفاجئ، ولكنه لم يكن يكثر من الحركة فى المكان لكى يؤكد ملكيته للمنزل. لم أكن أكلمه إلا حينما يطرق الباب لكى يخبرنى بأن المياه أو الكهرباء ستنقطع ساعة أو ساعتين. كنا ندفع الإيجار نقدًا للمدام "غورى" كل شهر. لم أكن أعرف هل كانت تعطيه كله للسيد "راى" أم كانت تحجز مبلغًا لنفسها تستعين به على مصاريف البيت؟ كانت تعيش على المعاش الذى كانت تقبضه للسيد "غورى" وليس لها هى، هكذا كانت تقول لى مؤكدة فى إشارة منها إلى أنها لم تبلغ سن المعاش بعد. كانت المدام "غورى" كثيرًا ما تنادى "راى" وهو فى البدروم مشغولاً فى العمل، لتسأل عن أحواله وإذا ما كان يحتاج قدحًا من الشاى. وكان دائمًا يجيب بأنه على ما يرام وليس لديه وقت لاحتساء الشاى. كانت تقول إن "راى" مثلها تمامًا يحب أن يهلك نفسه فى العمل.

وكثيراً ما كانت تتملقه بطبق من الفاكهة أو الحلوى أو ما تيسر من المشهيات - الأشياء نفسها التى كانت تمنحها لى فى البدروم. وكان يقول إنه ليس فى حاجة إلى هذه الأشياء لأنه أكل منذ فترة قليلة، أو أن لديه فى البيت ما يكفى منها وزيادة. كنت أقاومها أنا أيضًا ولكنها كانت تلح وكنت أستسلم بعد المحاولة السابعة أو الثامنة. كنت أرتبك أمام إلحاحها وإصرارها، ولكنى كنت أخشى أن أخيب أملها. كنت أيضًا أعجب من "راى" وهو يصر على الرفض مكتفياً بكلمة "لا". لم يكن يقول حتى "لا يا أمى" ولكنه كان يقول: "لا" فقط، بعدها تبحث عن موضوع للثرثرة فتسأله: "هل من أخبار سارة أو مثيرة عنك أو حواليك؟" ولم يكن "راى" يجيبها بأكثر من: "لا .. ليس كثيراً،" أو يقول: "لا أعرف." ولم يكن "راى" جافًا غليظًا أو يريد أن يغيظها، ولكنه لم يكن يريد أن يطلعها على شىء. كان يقول إن صحته على ما يرام، وإن البرد الذى يعانى منه بدأ يذهب، وإن المدام "كورنيش" و "أيرين" على ما يرام أيضًا.

كانت المدام "كورنيش" هى السيدة التى كان "راى" يسكن فى منزلها فى مكان ما فى شرق فانكوفر، وكان يجد دائمًا ما يعمله فى منزل المدام "كورنيش" مثلما كان يفعل هنا فى منزله - ولهذا كان يسرع إلى هناك حالما ينتهى من عمله هنا. كان يساعدها أيضًا فى الاعتناء بابنتها "أيرين" التى أقعدها الشلل وتستعين بالكرسى المتحرك. كانت "أيرين" تعانى من الشلل الارتجافى، وكانت المدام "غورى" تعقب، بعد أن يقول لها "راى" إن "أيرين" على ما يرام، بكلمة

واحدة: "مسكينة." لم تكن تلومه فى وجهه على الأوقات التى كان يقضيها مع الفتاة العاجزة، ولا على أوقات الخروج إلى منتزه ستانلى، ولا على الرحلات القصيرة التى كان يحضر فيها الأيسكريم. (كانت تعلم بهذه الأمور لأنها كنت تهاتف المدام "كورنيش" وتعرف منها كل شىء.) ولكنها كانت تقول لى: "لا أتخيل منظرها بينما الأيسكريم ينزل من فمها إلى حجرها. لا أستطيع تحمل منظرها والناس يتفرجون عليها. وكانت تقول إنها حينما تصحب السيد "غورى" إلى جولة خارجية على كرسيه المتحرك فإن الناس يراقبونهما (كان السيد "غورى" مشلولاً أيضًا بسبب جلطة ألمت به)، ولكن وضعه كان مختلفًا عن وضع "أيرين". لم يكن يحرك ساكنًا، أو يصدر صوتًا خارج المنزل. وكانت المدام "غورى" تتأكد، قبل أن تخرج به، من أن منظره العام مقبول، بينما كانت "أيرين" لا تستطيع أن تسيطر على نفسها، وكانت تصدر أصواتًا غريبة. وكانت المدام "غورى" تقول إنها سمعت المدام "كورنيش" تقول إن أحدًا لن يهتم بأمر فتاة عاجزة حين تهاجمها نوبات الصراخ. ثم تقول: "كان لابد من قانون يمنع الأصحاء من الزواج بمثلها، ولكن حتى الآن لا يوجد هذا القانون."

عندما كانت المدام "غورى" تدعونى لاحتساء قدحٍ من القهوة كنت أرفض دائمًا. كنت مشغولة بحياتى فى البدروم. أحيانًا، عندما كانت تطرق بابى، كنت أتظاهر بأنى لست موجودة، ولكن ذلك كان يتطلب منى أن أطفئ الأنوار وأغلق الباب فى اللحظة التى أسمعها تغلق

باب شقتها فى الطابق الأعلى وحينئذ يصبح على أن أظل ساكنة دون حراك بينما هى تدق على الباب دقات خفيفة وتردد اسمى. وأيضًا كان على أن ألزم الهدوء على الأقل ساعة من الزمن بعد أن تذهب وأمتنع عن شد "سيفون" الحمام. وإذا قلت لها إن الوقت لا يسعفنى، ولدى أشياء أريد أن أعملها كانت تضحك وتقول: "وما هذه الأشياء؟ " وكنت أقول: "أكتب رسائل." وكانت تقول: "دائمًا تكتبين رسائل؟ .. لابد أنك تعانين من حنين إلى بلدك."

كان حاجباها فى لون القرنفل، ويختلف قليلاً عن لون شعرها الأحمر. لا أظن أنه كان طبيعيًا. ولكن كيف صبغت حاجبيها؟ كان وجهها نحيفًا مليئًا بالحيوية وقد صبغته بلون أحمر، بينما كانت أسنانها كبيرة ولامعة. كانت شهيتها للصداقة والصحبة كبيرة لا تقاوم. من أول يوم جاء بى "تشس" إلى هذه الشقة بعد أن قابلنى فى القطار، طرقت علينا الباب بطبق من "الكوكيز" مع ابتسامة ملؤها الطمع والجشع. كانت قبعة السفر لم تزل فوق رأسى وكان "تشس" يشدنى من حزامى فتوقف عن فعل ذلك أمام إلحاح المدام "غورى". كانت "الكوكيز" جافة وصلبة ومغطاة بطبقة من الكريم الأبيض احتفالاً على ما يبدو بكونى عروسًا حديثة العهد بالزواج. تحدث إليها "تشس" بغلظة فقد كان مضطرًا إلى أن يعود بسرعة إلى عمله فى ظرف نصف ساعة، وبعد أن تخلص منها لم يكن أمامه متسع من الوقت لمواصلة ما كان قد بدأه. وعوضًا عن ذلك راح يلتهم "الكوكيز" الواحدة بعد الأخرى وهو يقول إن طعمها يشبه طعم الرمل فى فمه.

وكانت المدام "غورى" تقول لى بعد ذلك: "بعلك يأخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم، يضطرنى أحيانًا إلى الضحك، إنه يحدجنى دائمًا بتلك النظرة الجادة فى غدوه ورواحه، وأريد أن أقول له: "هون عليك فإنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً."

أحيانًا كنت أضطر إلى أن أتبعها إلى الطابق الثانى سأمًا من القراءة والكتابة. كنا نجلس إلى المائدة فى حجرة المعيشة فى شقتها. كانت المائدة مغطاة بقطعة قماش من الحرير، وخلفها مرآة مكعبة الشكل تعكس صورة بجعة من السيراميك. كنا نحتسى القهوة من أقداح من الخزف الصينى، ونأتى على أطباق صغيرة بالكامل من المكسرات والفطائر محلاة بالزبيب، وأطباق أخرى من الكعك السميك، وندنو من شفاهنا بمناديل صغيرة معطرة لإزالة ما علق عليها من فتات. كنت أجلس قبالة "النيش" المزدان بأطباق الخزف والأكواب الجميلة المرتبة ذات الأحجام الواحدة، وأطقم السكر، ومبيضات القهوة، والملح، والفلفل، غاية فى الأناقة، يُشفَق عليها من الاستخدام اليومى، كذلك زهريات تمتلئ ببراعم الزهر، وإبريق شاى على شكل كوخ مسقوف، وشمعدانات أنيقة أخذت شكل الزنابق الجميلة. كانت المدام "غورى" تقوم بتنظيف محتويات "النيش" مرة كل شهر. حدثتنى بذلك. وحدثتنى أيضًا عن أمور تتعلق بى وبمستقبلى، وبالبيت والمستقبل الذى ينتظرنى حسب رؤيتها، وكلما أمعنت فى الحديث كنت أحس بأنى أحمل طنًا من الحديد على ركبتى، وازدادت رغبتى فى التثاؤب والصباح لم يستسلم بعد أمام تباشير الظهر مما

كان يجعلنى أتسلل فى خفة اللص وأختفى من وجهها وألقى بنفسى على السرير. ولكن فى العلن كنت أذيع إعجابى بكل شىء. كنت أذيع إعجابى بالنيش المزدان بأطباق الصينى الرائعة وبأسلوب المدام "غورى" فى حياتها اليومية وبأطقم الملابس متناسقة الألوان التى كانت ترتديها كل صباح. كنت أعجب أيضًا بالتنورات والبلوزات التى أخذت ألوانًا وردية، وأخرى بنفسجية وقد ازدانت بأوشحة من الحرير الصناعى من جنس لونها.

كانت تقول لى ناصحة: "أول شىء تفعلينه دائمًا هو أن ترتدى ملابسك وكأنك ذاهبة إلى عملك... رتبى شعرك وضعى زينتك" – أكثر من مرة تدخل علىّ غرفتى وأنا فى قميص النوم – "وفى استطاعتك دائمًا أن ترتدى مريلة عندما تنوين القيام بغسيل أو خبيز. فذلك أفضل لروحك المعنوية." ثم تستمر فى النصح قائلة: "احتفظى دائمًا بخبز فى البيت حتى إذا هبط زائر عارض يجد مؤونته من الخبز." (على حد علمى لم يكن يزورها أحد غيرى، ولا يمكن أن أقول إنى كنت عابرة سبيل أو زائرة عارضة) ثم تستمر قائلة: "ولا ينبغى أبدًا أن تقدمى القهوة فى أقداح كبيرة."

لم تكن عباراتها بهذه الصراحة الموجعة. كانت تؤنسها بعبارات تخفف منها مثل: "أنا دائمًا أفعل كذا..."، أو "أحب دائمًا أن أفعل كذا..."، أو تقول: "أعتقد أن الأفضل والأحسن أن..."، أو تقول: "حتى عندما كنت أعيش فى الريف كنت أحب أن أفعل كذا... " عندئذ كانت حاجتى للتثاؤب أو الصياح تنحسر مؤقتًا. أين عاشت

هذه السيدة فى الريف؟ ومتى؟ وكانت تقول أيضًا:

"أوه .. عشت على الشاطئ البعيد زمنًا.. كنت عروسًا مثلك فى يوم من الأيام. عشت سنين هناك على مضيق "يونيون." ولم يكن ذلك المكان ريفًا بمعنى الكلمة. "جزيرة كورتيز."

سألتها: "أين تقع جزيرة كورتيز هذه؟" وقالت: "هناك ... فى مكان ما على الشاطئ."

قلت: "لابد أنه كان مكانًا رائعًا." وكانت تجيب: "أوه ... كان جميلاً إذا كنت تحبين الدببة وأسود الجبل. أما عن نفسى فقد كنت أفضل أن أعيش فى مكان فيه شيء من الحضارة."

كانت غرفة المائدة منفصلة عن حجرة الجلوس بأبواب منزلقة من خشب البلوط. كانت تلك الأبواب مواربة دائمًا حتى تتمكن المدام "غورى" – وهى جالسة على حافة المائدة – من رؤية السيد "غورى" زوجها القابع على كرسيه المتحرك أمام نافذة حجرة الجلوس. كانت حين تتحدث عنه تقول: "زوجى الذى يجلس على كرسى المعوقين،" ولكنه فى الحقيقة لم يكن يجلس على كرسى المعوقين هذا إلا حينما تأخذه إلى نزهته كل يوم. لم يكن فى البيت تلفاز – كان وجود التلفاز نادرًا فى ذلك الوقت. كان السيد "غورى" يجلس إلى جوار النافذة يتفرج على الشارع ومنتزه "كستلانو" فى الجهة الأخرى من الشارع. كان يتلمس طريقه بنفسه إلى الحمام، تعينه على ذلك عكاز كان يمسك بها فى يد واليد الأخرى يتكئ بها على ظهر كرسيه أو يضرب بها على الحائط. فإذا استقر داخل الحمام كان يدير كل

شىء بنفسه، رغم أن ذلك كان يأخذ منه وقتًا طويلاً. وكانت المدام "غورى" تقول إنها كانت تقوم، ورغم ذلك كله، ببعض التنظيف للحمام.

كل ما كنت أستطيع أن أراه من جسد السيد "غورى" هى الجهة اليسرى من بنطلونه وقد استقرت على الكنبة ذات اللون الأخضر الفاتح. يتصادف أن يذهب إلى الحمام مرة أو مرتين خلال المدة التى أكون فيها هناك. يسحب ساقيه بصعوبة ويحاول النهوض عليهما لكى يتلمس طريقه إلى الحمام. رجل ضخم - رأس ضخم ومنكبان عريضان وهيكل عملاق.

لم أكن أنظر إلى وجهه. كنت أعتقد أن المشلولين والمنكوبين بالجلطات والمرضى يجلبون لى الحظ السيئ، أو على الأقل رسائل تذكرك بالحظ السيئ. لم أكن أحاول تجنب منظر أطرافهم عديمة الجدوى أو أية ملامح جسدية أخرى فيما آل إليه حظهم المروع - كنت أهرب فقط من نظرات عيونهم اليائسة.

لا أظن أنه نظر إلىّ حتى عندما هتفت المدام "غورى" فى أذنه معلنة أننى جئت لزيارتهم. كل ما صدر منه صوت أشبه بالهمهمة قصارى ما يستطيعه ردًا على تحية أو سعيًا إلى رفض.

كانت شقتنا تتكون من حجرتين ونصف حجرة. استأجرناها مفروشة، أو قل نصف مفروشة حسب طريقة أصحاب الملك فى ذلك الوقت. احتوت أشياءً جديرة بإلقائها فى القمامة لولا حاجتنا إليها. أتذكر أرضية المعيشة التى كانت مغطاة ببقايا مشمع على شكل

مربعات أو مستطيلات - فضلات، على ما يبدو، من قطع من كل لون وشكل شُد بعضها إلى بعض بأسلاك من حديد فأضحت مثل لحاف سخيف. أتذكر موقد البوتاجاز في المطبخ الذى زود هو الآخر - أى المطبخ - بقطع مربعة من تلك الفضلات. كان سريرنا يقع فى فجوة على مبعدة من ذلك المطبخ - كان يملأ تلك الفجوة بالضبط فكنا نضطر إلى الصعود قليلاً بادئين من أسفل. قال "تشس" إنه قرأ أن تلك كانت طريقة الحريم فى دخول مخدع السلطان؛ كن يبدأن بقدميه هيامًا وتبجيلاً، ثم يمضين فى الزحف إلى أعلى وهن يبدين ثناءهن لباقى أجزاء جسده حتى بلوغ الغاية. كنت أنا و"تشس" نمارس هذه اللعبة بين الحين والحين على سبيل المزاح.

وضعنا ستارة بين السرير والمطبخ وتركناها مسدلة طوال الوقت. كانت فى الواقع مفرش سرير من تلك المفارش القديمة، أو قل قطعة من قماش لين له أهداب يأخذ لون الصوف الطبيعى من إحدى جهتيه، مطرز بأشكال من ورود خمرية وأوراق خضراء، ومن الجهة الأخرى، الجهة التى كانت تقابل السرير، زُين بخيوط اختلط فيها الخمرى بالأحمر بالأخضر، وزهور وأوراق نبات تبدو أقرب إلى الأشباح على اللون الفاتح. كانت هذه الستارة هى الشىء الوحيد الذى أتذكره حق التذكر من كل ما حوت تلك الشقة القديمة. ولا عجب، ففى فورة الجماع، وفى غمرة التوابع التى تليه، كانت هذه القطعة من القماش أمام ناظرى حتى أصبحت تذكرنى بالشىء الذى أحببته فى مسألة الزواج برمته - المكافأة التى من أجلها تحملت

الأذى حين كانوا ينادونى بالعروس الصغيرة، وحين تمضى المدام "غورى" فى إسداء النصح لى أمام "النيش" فى حجرة معيشتها.

ننتسب أنا و"تشس" إلى أسر كانت تعتبر الجنس خارج إطار الزواج شيئًا مقززًا ولا يغتفر، فى حين لم يكن الجنس الشرعى يُذكر مجرد الذكر، وحتى إذا ذُكر فقد كان يُذكر عرضًا، أو يُمَر عليه مرور الكرام. ولذا عددنا ممارستنا له على ذلك النحو إنجازًا يحسب لنا رغم كل شىء. عندما وجدت أم "تشس" ذات يوم عوازل ذكرية (كوندومز) فى حقيبته راحت تولول وتبكى وهى تشكوه لأبيه. (قال لى "تشس" إن هذه العوازل وُزعت عليهم أثناء التدريبات العسكرية التى كان يؤديها أثناء الجامعة – وكان على حق – وقال إنه نسى أمرها تمامًا – ولم يكن على حق.) إذن فوجود مكان خاص بنا وسرير خاص بنا نفعل عليه ما نشاء كان شيئًا مدهشًا بل أكثر من رائع بالنسبة لنا. صنعنا صفقة غريبة لا نظن أن كبارنا اهتموا بها – أقصد آباءنا وعماتنا وأعمامنا وخالاتنا وأخوالنا – لم يخطر على بالهم أن اهتموا بغريزتهم مثلما فعلنا. يبدو أن لهفتهم تركزت على اقتناء البيوت والعقارات، وآلات الحصاد، والثلاجات، الجدران الفانية. بالنسبة للنساء كانت غايتهن إنجاب الأطفال. قررت أنا و"تشس" أن تكون هذه الأمور خاضعة لاختيارنا فى المستقبل وقد لا نختارها، ولم نعمل حسابًا لأى من هذه الأشياء التى تقع للناس دون رحمة، مثل كبر السن والعجز.

الآن وأنا أسترجع ما حدث بكل أمانة أقول إننا لم نختر شيئًا

على عكس ما كنا نرغب. ولا حتى الحمل، اخترناه عن رغبة كلينا لكى نتأكد من أننا كبرنا فعلاً، أو من أنه سيحدث حقًا.

كان الشيء الآخر الذى كنت أمارسه خلف الستارة هو القراءة. كنت أقرأ كتبًا استعرتها من مكتبة "كستيلانو" التى تقع على بعد عمارات قليلة من منزلنا. وعندما كانت الدهشة تستولى على مشاعرى بسبب ما أقرأ، كانت الخطوط الملونة على الستارة المسدلة أول ما تقع عليه عيناى. كان كل شيء - الشخصيات والقصة وحتى المناخ الموصوف فى القصة - يرتبط فى ذهنى على الفور بالزهور المرسومة على الستارة، ويفيض على ما علق عليها من ألوان خمرية غامقة وخضراء عابسة. كنت أقرأ الكتب الصعبة التى أصبحت عناوينها أشبه بتعاويذ السحر بالنسبة لى. حاولت أيضًا قراءة رواية المخطوبة[1] - وبين هذا وذاك قرأت روايات ألدوس هكسلى وهنرى جرين ورواية " إلى المنارة[2]" ورواية " آخر مغامرات شيرى[3]" ورواية "موت القلب[4]." كنت أقرأ بنهم، الكتاب بعد الكتاب دون ترتيب أو تمييز، أستسلم لكلٍ على حدة مثلما كنت أفعل بالكتب التى كنت أقرؤها فى طفولتى. كانت لدى بقية من شهوة الطفولة ونهمها الذى تمتزج فيه البهجة بالأسى.

ولكن ثمة عامل آخر زاد الأمور تعقيداً عما كانت عليه أيام الطفولة - يبدو أننى أصبحت كاتبة لا قارئة فحسب. اشتريت دفتراً مدرسياً وشرعت فى الكتابة. كنت أكتب بالفعل صفحات كانت تبدأ قوية وسرعان ما كان القلم يجف والفكر ينضب؛ فكنت أمزقها

تمزيقًا، وأعصرها عصراً، وألقى بها فى صندوق القمامة إمعانًا فى عقاب الذات. كنت أكرر المحاولة كثيرًا حتى آخر صفحة فى الدفتر فأعمد إلى المحل لشراء دفتر آخر لأبدأ العملية برمتها من جديد؛ الدائرة ذاتها - إثارة وإحباط، إثارة وإحباط، وكأنى أمر بعملية حمل وإجهاض فى السر كل أسبوع.

ولكن الأمر لم يكن سراً كله. كان "تشس" يعرف أنى كنت أقرأ كثيراً وأنى كنت أحاول الكتابة. لم يثبط همتى أبداً، كان يقول إننى بالمحاولة يمكن أن أتعلم الكتابة في يوم من الأيام، وأن الأمر قد يحتاج إلى بعض التمرين الشاق حتى أتقن الكتابة مثلما يفعل من يريد إتقان البردج أو التنس، ولم أشكره على هذه الثقة الكريمة؛ فقد ضاعفت من إحساسى بالإخفاق الذى كنت أعانى منه أصلاً.

كان "تشس" يعمل فى شركة لتجارة البقالة بالجملة. فكر فى العمل مدرسًا للتاريخ، ولكن أبوه نصحه بأن التدريس لن يكفيه لإعالة زوجة وأسرة وإثبات ذاته فى هذه الدنيا. ساعده أبوه فى الحصول على هذه الوظيفة، وأخبره بألا ينتظر منه خدمات أخرى بعد أن يتسلم الوظيفة، وكذلك فعل "تشس." كان يغادر المنزل قبل طلوع الشمس فى أول شتاء بعد زواجنا، وكان يأتى إلى المنزل بعد حلول الظلام. كان يعمل بجهد شاق دون أن يأبه بما يناسبه أو لا يناسبه أو يتناسب مع أهدافه وميوله، أو كان يتناسب مع أهدافه وميوله. لا هدف فيما عدا سعيه إلى أن يلحقنا بحياة أصحاب المروج والثلاجات التى اعتقدنا أننا لن نأبه بها. كنت أعجب من إذعانه،

كلما فكرت فى الأمر. إذعانه المبهج، يمكنك أن تقول الشهم. ولكن حينها كنت أقول: "إن هذا ما يفعله الرجال."

كنت أخرج أحيانًا بنفسى للبحث عن عمل، وعندما كان المطر يشتد كنت ألوذ بصيدلية أشترى منها صحيفة وألقى نظرة سريعة على إعلانات الوظائف وأنا أحتسى كوبًا من القهوة. وعندما كان المطر يتوقف، أو يتحول إلى رذاذ خفيف، كنت أقصد الأماكن التى تعلن عن حاجتها إلى نادلة أو بائعة أو حتى عاملة مصنع عادية. أية وظيفة لا تحتاج إلى معرفة بالدق على الآلة الكاتبة، أو أية خبرات أخرى. وعندما كان المطر يشتد مرة أخرى كنت أحتمى بالأوتوبيس لأعود به إلى بيتى. كان "تشس" ينصحنى بركوب الأتوبيس، وكان يقول لى: "لا تتعبى نفسك فى المشى حتى توفرى بعض النقود." وكان يقول أيضًا: "إذا آثرت المشى على الأتوبيس لتوفرى المال سوف تفقدين الوظيفة التى تسعين إليها، وستفوز بها فتاة أخرى وصلت قبلك." كنت أتمنى فعلاً الالتحاق بعمل ما، ولم يكن كلامه يغيظنى أو يضايقنى. كنت أحيانًا أصل إلى المكان الذى أُعلن عنه فى الصحيفة، وأتوقف هنيهة على الرصيف، وأتطلع فى نوافذ العرض على ملابس السيدات بشكلها الأنيق ونظامها الدقيق. وكنت أتأمل الفتيات وهن ينزلن من المكتب الذى جئت من أجله لأعمل موظفة أرشيف. كن ينزلن الدرج بإيقاع راقص فى طريقهن إلى المطعم وقت الغداء. لم أكن أجرؤ حتى على الدخول لأنى كنت أعلم أن مظهرى لم يكن فى صالحى – منظر شعرى وأظافرى وحذائى

الذى لم يرفعه كعب أو يزينه لون. قلل من حماسى للعناية بنفسى طول العمل فى المصانع - لا زلت أسمع إيقاع الآلات المصطفة لملء زجاجات المرطبات، أو لترتيب زخارف أعياد الميلاد، ولا زلت أرى المصابيح تتدلى من أسقف المخازن وقد أرسلت أضواءها الساطعة، لم يكن يهم فى هذه الأمكنة أن أعتنى بأظافرى، أو أرفع حذائى بكعب يبتعد به قليلاً عن الأرض. كان فتور روحى وحماقتى الموروثة يعرضاننى للسب والصياح فى وجهى (كان صياحهم فى وجهى بالزجر والسب يعلو أحيانًا فوق أصوات الآلات). كانت ثقتى فى نفسى متواضعة؛ لم أكن أعتقد أنى أصلح حتى لتشغيل آلة عد النقود. قلت ذلك لمدير أحد المطاعم حين عرفت أنه يريد أن يمنحنى فعلاً هذه الوظيفة. سألنى: "هل تستطيعين فعلاً القيام بهذا العمل؟" قلت له: "لا." فرمانى عندئذٍ بنظرة تدل على دهشته لصراحتى. قلت الحقيقة وكفى. كانت القدرة فعلاً تنقصنى على تعلم الأشياء بسرعة. جعلنى "تشس" أشعر بأنى لن أحتاج إلى هذه الأمور؛ لأنه كان يتكفل بكل شىء تقريبًا، على الأقل بحاجاتنا الأساسية. لم أكن مضطرة إلى الخروج والعمل لأن "تشس" هو الذى كان يعمل ويعولنا. الرجال هم الذين يخرجون ويعملون ويعولوننا.

فكرت فى العمل فى مكتبة. قلت لنفسى ربما أستطيع العمل فى مكتبة. دخلت مكتبة لأسأل رغم أنهم لم يعلنوا عن وظيفة، قابلتنى سيدة وأدرجت اسمى فى قائمة، كانت مؤدبة ولكنها لم تكن مشجِعة. ذهبت بعد ذلك إلى بعض المكتبات الأخرى كتلك التى لا يبدو أنهم

يمتلكون آلة عد النقود، أو تلك التى كانت شبه فارغة أو تفتقر إلى النظافة. كان أصحابها إما يدخنون أو ينامون على مكاتبهم، وفى مكتبات الكتب المستعملة كان من الممكن أن تشم رائحة قط ميت مثلاً. كانوا يقولون لى إنهم لا يبيعون كثيراً فى الشتاء، والأفضل أن أجىء فى الربيع، وحتى فى الربيع لن أكون مشغولة بالبيع طوال الوقت.

لم يكن الشتاء فى فانكوفر مثل أى شتاء آخر عرفته؛ فلا ثلج ولا أية علامة تدل على قدوم برد. فى الظهر كنت تشم، خاصة فى وسط البلد، رائحة سكر محروق؛ وكان لذلك، فيما أظن، علاقة بأسلاك "الترولى." كنت أقطع شارع "هاستنجز" بطوله حيث لم أكن أرى فيه امرأة أخرى تتمشى مثلى - لم أكن أرى غير السكارى، والمتسكعين، ورجال كبار فى السن من الصينيين المساكين الذين كانوا فى مشيهم يتثاقلون، لا تسمع منهم كلمة نابية أو سبًا. كنت أمر بمخازن ومساحات شاسعة تكثر بها الأعشاب الضارة ولن ترى فيها نسمة أو تسمع نأمة على مد البصر. وكنت أقطع شارع "كستلانو" ببيوته العالية الخالية من أى جمال، يحشر فيها الناس أنفسهم حشراً مثلنا، حتى أصل إلى منطقة "دنبار" النظيفة التى تكثر بها البيوت ذات الطابق الواحد، وجدرانها المزينة بالجص، والشجيرات التى قُطِعَت ذؤاباتها. أو أتمشى فى شارع "كرسدال" حيث تظهر به الأشجار الأنيقة على المروج الكثيفة، وأشجار التبولا القصيرة، والأعمدة الخشبية على الطراز التيودورى، وتناسق على الطراز

الجورجى، وصور لـ "سنووايت" بأسقف مزيفة من أعواد القش، أو ربما كانت أسقفًا حقيقية من يدرى؟

كنت تجد الأنوار تنطلق فى بيوت تلك الأحياء حوالى الرابعة عصراً، ثم تنطلق بعدها أنوار المصابيح فى الشوارع، وأنوار الحافلات الكهربائية. وكثيراً ما كنت تجد السحب الغربية فوق البحر، وقد انحسرت قليلاً عن بعض أصابع من ضوء الشمس إيذانًا بالغروب. أو تجد أوراق الشجيرات الشتائية المنبثة فى المتنزهات والمواقف تلتمع فى الهواء الندى بعون من أضواء خفيفة وردية أرسلها الغسق. كان الذين فرغوا من التسوق رائحين إلى بيوتهم، وكان الذى فرغوا من أعمالهم يتأهبون للرجوع إلى بيوتهم، وأما الذين لم يبرحوا منازلهم طوال اليوم فكانوا يتأهبون للخروج للتمشية ساعة أو بعض ساعة، لتجديد النشاط. رأيت نساءً يدفعن عربات صغيرة تحمل فلذات أكبادهن، وصغاراً يتعثرون فى مشيهم، ولم يخطر ببالى أنى سوف أكون مثلهن فى يوم ما. رأيت كبار سن بصحبة كلابهم، وكبار سن يلتمسون طريقهم بصعوبة، وآخرين استقروا على مقاعد المقعدين يدفعهم خادم أو رفيق العمر. رأيت المدام "غورى" تدفع مقعد السيد "غورى". كانت تضع قبعة تحيط بها قلنسوة من صوف وردى ناعم (حينئذٍ عرفت أنها هى التى تصنع أغلب ملابسها)، وكثير من المساحيق ذات الألوان الزاهية على وجهها. كان السيد "غورى" يرتدى قبعة تلتصق برأسه ويتشح بوشاح سميك حول عنقه. حيتنى بصوت حاد ينم عن إحساس

صاحب العمارة تجاه القاطنين عنده، وأما السيد "غورى" فلم يأبه بشىء. لم يكن يبدو أنه كان مستمتعًا بالجولة. على كل حال لا يُظْهِر المقعدون، وهم على مقاعدهم المتحركة، أى شىء غير الإذعان والاستسلام. تظهر على بعضهم المهانة، أو تُنَكِّس رؤوسهم ذلة. قالت لى المدام "غورى":

– رأيناكِ بالأمس فى المنتزه، أكنت راجعة بعد البحث عن وظيفة؟

– لا.

كنت مضطرة إلى الكذب عليها. شىءٌ ما كان يدفعنى دائمًا إلى الكذب عليها.

– عظيم. فقد كنت أريد أن أقول إنك إن كنت ترغبين فى العمل حقًا فعليك أن تهتمى بمظهرك قليلاً. وأنت ست العارفين.

– أعرف.

– لا أفهم كيف يخرج نساء اليوم بهذا المظهر. عن نفسى لا يمكن أن أخرج بحذاء يلتصق بالأرض ودون أن أضع بعض المساحيق على وجهى حتى ولو كنت ذاهبة لشراء بعض الأشياء من البقال، ناهيك عن أنى ذاهبة لأطلب من شخص ما وظيفة.

كانت تعلم أنى كنت أكذب عليها، وكانت تعرف أنى كنت أقف متجمدة وراء باب البدروم ولا أجيب على طرقاتها الملحة. لم أكن أستبعد أو أستغرب أن تعمد إلى القمامة لعلها تعثر على أوراقى التى أودعتها مشاكلى ثم تخلصت منها. لعلها كانت تجمع تلك الأوراق من القمامة وتقرؤها لتعرف أسرارنا. لماذا لا تخرجنى من

رأسها؟ لا طاقة بها على ذلك. كنت شغلها الشاغل، أو ربما كانت خصالى التى تجاوز المألوف هى التى ألهبت حماسها لى، وأثارت حبها لاستطلاع أحوالى. أو ربما كسلى وفتور همتى وعجزى عن القيام بشىء هو الذى دفعها إلى إصلاح شأنى فى مقابل عجزها إزاء أحوال السيد "غورى" الميئوس منها، وما نعجز عن إصلاحه نتحمله.

نزلت إلى البدروم ذات يوم وكنت مشغولة بغسل ملابسى وملابس "تشس،" وكانت قد سمحت لى باستخدام غسالتها ومنشفتها كل يوم ثلاثاء. سألتنى:

- ألم تحصلى على وظيفة بعد؟

وقلت لها فى التو إن العاملين فى المكتبة وعدونى بعمل قريباً. كنت أعتقد أنى أستطيع التظاهر بأنى أعمل هناك، حتى لو اضطررت إلى أن أذهب كل يوم وأمضى ساعة أو ساعتين على طاولة من تلك الطاولات أتصفح بعض الكتب، أو حتى أمارس هوايتى فى الكتابة كما كنت أفعل فى الماضى بين الوقت والآخر. كان هناك احتمال أن تأتى المدام "غورى" إلى المكتبة وقد تكشف اللعبة، ولكنى كنت واثقة بأنها لن تستطيع دفع مقعد السيد "غورى" كل هذه المسافة وإلى هذا المكان المرتفع. وكان هناك احتمال أن تخبر "تشس" عن وظيفتى، ولكنى كنت واثقة أيضًا من أنها لن تفعل ذلك أيضًا. كانت تقول لى إنها تخشى أحيانًا أن تكلم "تشس" أو تحييه لأنه دائمًا يحيد بوجه متجهم وسحنة غاضبة.

- وإلى أن تجيء وظيفتك ما رأيك فى وظيفة بسيطة عندى؟ ... تجلسين مع السيد "غورى" بعد العصر وتشرفين على طلباته.

ثم قالت إنها قبلت وظيفة فى محل هدايا فى مستشفى القديس بولس، تذهب إليها ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع. وقالت: "إنهم لن يدفعوا لى شيئًا لأنها وظيفة تطوعية، وإلا كنت أنت الأحق بها، ولكنها وظيفة تطوعية تتسق مع ما نصحنى به الطبيب. قال لى الطبيب إن هذه الوظيفة سوف تضطرك إلى الخروج، وهو مفيد لك ولصحتك، سوف تساعدك على الخروج من جو البيت." ثم استمرت تقول: "المسألة ليست مسألة نقود لأن "راى" لا يجعلنا فى حاجة لشيء. هى وظيفة تطوعية مفيدة صحيًا، لا أكثر ولا أقل." ثم دحرجت عينيها إلى الغسالة فرأت قمصان "تشس" مختلطة مع قميص نومى الذى كان مزينًا بورود مختلفة الألوان، وملايات السرير الباهتة الزرقاء، فأسرعت تقول: "عزيزتى، ألم أنبهك بألا تضعى البياضات مع الملابس الملونة معًا فى الغسالة؟" قلت لها: "الملابس ذات ألوان خفيفة لا ينصل لونها عند الغسيل." فقالت: "الألوان الخفيفة هى ملابس ملونة فى كل الأحوال، وقد تظنين أن القمصان البيضاء بيضاء بهذا الشكل ولكنها أكثر بياضًا فى الواقع." قلت لها: "سوف أتذكر ذلك فى المرات القادمة." قالت: "حتى طريقتك فى العناية بزوجك." قالت ذلك قبل أن تصدر منها ضحكة مدوية مثيرة للاستياء حقًا. قلت لها: "تشس" لا يهتم بهذه الأمور،" قلت ذلك وأنا أدرك أن المرء يتغير مع كر الأيام وتتابع السنين، وأن "تشس" سوف

يهتم بهذه الأمور وأكثر منها فى المستقبل، وأن مثل هذه الأعمال التى تبدو عارضة وهامشية الآن سوف تكون فى مقدمة الاهتمامات، ومركز السعى.

إذن بدأت عملى فى الوظيفة الجديدة: أجلس مع السيد "غورى" فى أوقات الأصيل وأقوم على خدمته. كان يضطجع على أريكة خضراء وُضِعَتْ على جانبيها طاولتان صغيرتان أعدتا فى الواقع لغرضين مختلفين. رأيت على المائدة الأولى فوطة يد، وضعتها المدام "غورى" خصيصاً للحاق بما قد يقع من السيد "غورى" من طعام أو ما قد يريقه من لعاب، أو بقية من شراب. وجدت فوق هذه المائدة نفسها زجاجات الأقراص، وقوارير الدواء السائل، بالإضافة إلى منبه من أجل ضبط مواعيد تناول الدواء. وأما المائدة الأخرى، على الجهة الثانية من المتكأ، فقد اجتمعت عليها كمية لا بأس بها من مادة قرائية: جريدة الصباح، وجريدة المساء، ونسخ من مجلات الحياة والموضة، وكانت تلك مجلات كبيرة وعريضة فى تلك الأيام. شاهدت أيضاً على الرف الأسفل لهذه المائدة كمية كبيرة من القصاصات الورقية التى نظمها السيد "غورى" على شكل ألبومات من النوع الذى كان يستخدمه الأطفال فى المدارس. كانت أوراقها مائلة إلى السمرة وحوافها خشنة. احتوت هذه الألبومات على أجزاء صغيرة من أوراق الصحف والصور الفوتوغرافية التى التصقت بها وبرزت قليلاً فى الوقت نفسه. تلك كانت القصاصات التى كان السيد "غورى" يجمعها ويحتفظ بها عبر السنين حتى ألمت به هذه الجلطة التى نالت من يديه

فلم يعد قادراً على القص واللصق. قامت على ركن فى الحجرة خزانة للكتب تتكون أغلب محتوياتها من قصاصات من الورق وعدد من الكتب يملأ نصف رف أغلبها من كتب المدرسة الثانوية التى ربما كانت تعود لراى. قالت لى المدام "غورى": "كنت أقرأ له الجرائد .. لم يفقد قدرته كلها ولكن يديه لا تسعفانه على الإمساك بها كثيراً، وعينيه لا تقويان على الصمود."

رحت إذن أقرأ للسيد "غورى" بعد أن تكون المدام "غورى" قد تسللت خارجة ميممة شطر الأوتوبيس وقد وضعت مظلة على رأسها اتقاءً للمطر. كنت أقرأ له صفحة الرياضة والأخبار المحلية والأخبار العالمية، وكل ما يتعلق بحوادث القتل والاغتيال، وأعمال السطو، والطقس السيئ. كنت أقرأ له الرسائل التى كان القراء يبعثون بها إلى المحرر، والرسائل التى كانوا يبعثون بها إلى الطبيب الذى كان يجيب على أسئلتهم ولا يضن عليهم بالنصح. كنت أقرأ له كذلك الرسائل التى كان يبعث بها القراء إلى "آن لاندرز" التى كانت تجيب عليها ولا تبخل بالنصح. ويبدو أنه كان يحب سماع أخبار الرياضة وإجابات المدام "لاندرز" أكثر من أى شىء آخر فى المجلة. كنت كثيراً ما أخطئ فى نطق اسم لاعب، أو أتعثر فى نطق مصطلح فيأتى ما أقرأه عاريًا من المعنى، وكان هو يوجهنى بهمهمات ضجرة فأعيد عليه ما قرأت. عندما كنت أقرأ له صفحة الرياضة كان يبدو مستغرقًا فى الاهتمام والتركيز والعبوس فى الوقت نفسه. يختلف الأمر عندما كنت أقرأ له أخبار "آن لاندرز"؛ فقد كان صدره

ينشرح، ووجهه يشرق، وتصدر منه أصوات كنت أفهمها على أنها دليل على الاستحسان، أصوات أشبه بالقرقرة، أو أقرب إلى الصهيل. كانت تلك الأصوات تصدر منه خاصة عندما نصادف فى هذه الرسائل خبراً يخص النساء، أو أمراً تافهاً (بعثت امرأة برسالة تقول فيها إن أخت زوجها تتباهى على الدوام بأنها صنعت كعكة بنفسها، فى حين يعرف الجميع أنها جاءت بها من المحل القريب يظهر، ذلك من المنديل الورقى الذى يضعونه تحتها عند تقديمها) أو عندما تلمح هذه الرسائل - بطريقتها الحذرة فى تلك الأيام - إلى الجنس.

كنت عندما أقرأ عليه الصفحة الأولى حيث يقع مقال المحرر، أو الهراء الكثير الذى كان يُكْتَب عما كان يصرح به الروس والأمريكيون فى الأمم المتحدة، كنت أرى أجفانه تتدلى، وخاصة جفن عينه السليمة كان يتدلى حتى يكاد يغطيها، ويتدلى جفن عينه المنكوبة قليلاً. كنت ألاحظ أن حركات صدره ازدادت فأتوقف عن القراءة لأنه ربما قد استسلم للنوم. عندئذٍ كان يصدر أصواتًا من نوع مختلف فيها جفاف أو نبرة تأنيب، وعندما اعتدت عليه واعتاد علىّ أخذت هذه الأصوات طابع الاطمئنان أكثر من التوبيخ أو التأنيب؛ الاطمئنان إلى أنه لم يكن يسلم الروح فى تلك اللحظة أكثر منه اطمئنانًا إلى أنه يستسلم للنوم.

فى البداية كان هاجس موته أمام ناظرى كابوسًا مزعجًا. وما الذى يمنع موته التام وهو نصف ميت تقريبًا؟ كانت عينه المنكوبة

أشبه بحجر تحت ماء مظلم، وذلك الجانب من فيه كان مفتوحًا تظهر منه أسنانه الأصلية الضخمة (أغلب كبار السن كانوا يضعون أسنانًا صناعية فى ذلك الوقت) يطل منها الحشو عبر طلاء كئيب. بدا لى أن بقاءه على قيد الحياة فى هذا العالم خطأ يمكن أن يستدرك فى أية لحظة. ولكننى كنت - كما قلت - قد اعتدت على وجوده. كان جسده الضخم يملأ عينى وأنا أمضى فى القراءة - برأسه الكبير النبيل وصدره العريض الذى كان يعلو وينخفض كأنه كان يدفع عن صاحبه الموت المحدق، ويده اليمنى وقد تعطلت من كل قدرة على الحركة ورقدت على فخذه الطويل الساكن فى بنطال فضفاض. كان أشبه بأثر مقدس مهيب أو محارب قديم من أزمنة البربر، "إريك بلود آكس" أو الملك "كانيوت."(٥)

خارت قواى سريعًا، قال ملك البحر لرجاله.

لن أخوض غمار البحر، مثل الفاتح من جديد.

هكذا كنت أشبهه. كان أشبه بسفينة ضخمة تحطمت واستقرت على الشاطئ إلى الأبد. كان يضرب الجدران ويهدد الأثاث فى رحلته الخطِرة إلى الحمام. لم تكن رائحته عفنة تمامًا ولكنها لم تكن فى رائحة هذا المزيج من الصابون وبودرة التلك. إما رائحة قماش سميك اختلط ببقايا تبغ (رغم أنه لم يكن يدخن)، أو رائحة جلد آسن محبوس فى الملابس من زمن لم يفقد مرونته وسمكه بإفرازاته المهيبة وحرارته الحيوانية المحببة. رائحة بول خفيفة ولكنها لا تزول، كان يمكن أن تثير اشمئزازى لو كانت لامرأة، ولكن بدت لى، فى حالته،

مما يمكن التجاوز عنه ومغفرته، بل عددتها دليلاً من دلائل القِدَم الذى يزينه. وعندما كنت أدخل الحمام بعد أن يقضى حاجته، كان الحمام يذكرنى بعرين وحش بدائى رث لم يفقد جبروته.

كان "تشس" يقول إننى أضيع وقتى فى الجلوس مع المدعو السيد "غورى." وقال أيضًا إن الطقس بدأ يتحسن والسحب تختفى والنهار يطول. وبدأت المحلات تضع معروضاتها الجديدة فى "الفترينات" بعد أن نفضت عنها غبار الشتاء البليد. ولابد أن كل أصحاب المحلات يفكرون الآن فى الاستفادة بمثلى. رحت أفكر فى الخروج للبحث عن وظيفة، خاصة وأن المدام "غورى" لم تكن تدفع لى أكثر من أربعين سنتًا فى الساعة. ولكننى قلت لـه: "لقد وعدتها."

ذات يوم قال لى إنه رآها تنزل من أتوبيس. رآها من نافذة مكتبه ولم يكن مكتبه قريبًا من مستشفى القديس بولس بأى حال. قلت لـه: "ربما كانت الست فى فترة راحة." فقال "تشس": "لم أرها أبدًا خارج المنزل فى ضوء النهار. يا إلهى."

اقترحت أن يخرج السيد "غورى" ليشم الهواء على كرسيه المتحرك بعد أن تحسن الطقس، ولكنه رفض الفكرة بضوضاء صدرت منه عرفت منها أن ثمة ما يثير قرفه من مشهد وجوده على الكرسى المتحرك وهناك من يدفعه أمام الناس - أو ربما من فكرة أن هناك من استُؤجر ليدفع بكرسيه المتحرك أمام الناس.

كنت قد توقفت عن قراءة الجريدة واقترحت عليه هذا الاقتراح، وعندما عاودت القراءة من جديد أخبرنى بإشارة من يده وصوت

مبهم من فمه بأنه تعب من الاستماع فتركت الجريدة. أشار بيده السليمة ناحية القصاصات الراقدة على الرف الأسفل من المائدة قريبًا منه. كان يصدر أصواتًا أخرى. كنت أستطيع أن أجد الكلمات التى تصف تلك الأصوات: همهمة، شخير، نحنحة، سعال، تمتمة. كانت هذه الأصوات بالنسبة لى، فى ذلك الوقت، كلمات أستطيع أن أنظمها فى جمل. كانت فعلاً أقرب إلى الألفاظ. لم تكن تعادل، بالنسبة لى، أوامر قاطعة وطلبات حاسمة يشوبها الاستعلاء (لا أريد كذا، أو أريد أن أنهض، أو كم الساعة الآن، أو أريد أن أشرب)، ولكنها كانت جملاً أكثر تعقيداً من ذلك بكثير كأن يقول - مثلاً - وأنا أقرأ عليه حديثًا صحفيًا، أو مقالاً لرئيس التحرير: "يا إلهى لماذا لا يكف هذا الكلب عن الكلام؟" أو يقول: "ما أكثر الكلام الفارغ."

أستطيع الآن أن أترجم ما يقول، إنه يقول: "دعك من الجريدة ودعينا نبحث عن شيء أكثر فائدة فى هذه القصاصات."

أحضرت كومة القصاصات من فوق الرف، ووضعتها على الأرض قريبًا من قدميه. كان السيد "غورى" يرتبها على هيئة ألبومات وقد كتب فوق كل واحد منها، بحروف كبيرة بقلم من نوع أقلام السبورة، تواريخ ترجع لسنوات قريبة. رحت أقلب فى ألبوم عام ١٩٥٢ حتى وقعت عينى على قصاصة من جريدة فيها تقرير عن جنازة الملك هنرى السادس. كتب السيد "غورى" فوقها بحروف قلم "الماركر" تلك العبارات: "ألبرت فردريك آرثر جورج. ولد فى عام ١٨٩٥ وتوفى فى عام ١٩٥٢." وجدت فى الألبوم نفسه صور الملكات الثلاث فى ملابس الحداد.

وجدت فى الصفحة التالية تقريراً حول طريق ألاسكا السريع.
قلت له: "هذه سجلات مفيدة جداً وشيقة، هل تريدنى أن نبدأ فى عمل ألبومٍ آخر؟ أستطيع أن أقطع القصاصات التى تريدها وأرتبها لك فى ألبوم آخر جديد على الطريقة التى تريدها."

كان الصوت الذى أصدره يعنى: "لا عليك، هذا مجهود كبير عليك،" أو ربما كان يعنى: "لا تتعبى نفسك الآن،" أو ربما يعنى: "ولماذا هذه الفكرة الغبية؟" وضع صورة الملك جورج السادس جانباً؛ يريد أن يرى التواريخ التى دونها على الألبومات الأخرى. ولم تكن هى التواريخ التى أرادها فتقدم قليلاً ناحية خزانة الكتب. أحضرت له كومة أخرى من القصاصات. فهمت أنه كان يبحث عن "ألبوم" بعينه بتاريخ معين، فعمدت إلى رفع الألبومات قليلاً قريباً من وجهه حتى يرى الأغلفة وعليها التواريخ، وكنت أقلب الصفحات بين والحين والآخر رغم تبرمه وعدم رضاه. رأيت مقالاً عن الأسود الأمريكية فى جزيرة فانكوفر، مقالاً آخر عن موت فنان سيرك، مقالاً ثالثًا عن طفل عاش رغم انحشاره بين كتلتين كبيرتين من الجليد. رحنا نقلب فى صحف ترجع إلى سنوات الحرب، وصحف أخرى ترجع إلى الثلاثينيات، والسنة التى ولدت فيها، وقبل ذلك بعقد كامل، قبل أن يرضى ويهش ويطلب منى النظر فى سنة ١٩٢٣.

وبدأت أتصفح الأوراق الخاصة بهذه السنة من بدايتها، وبدأت أقرأ:
"ثلوج يناير تدفن قرى بأكملها فى ..." لكنه أشار وكأنه يقول:
"لا ليست هذه. بعدها.. بعدها .."

ورحت أقلب الصفحات، وكأنه يقول:

"ببطء. ببطء. على رسلك."

ورحت أقلب الصفحة تلو الأخرى على مهل دون أن أتوقف لأقرأ قليلاً كما كنت أفعل فى البداية حتى وصلت إلى الصفحة التى يريدها.

"هذه الصفحة. اقرئى هذه."

لم يكن على الصفحة صورة، أو كلمات بارزة، أو عناوين. كانت الكلمات التى كتبها بالقلم "الماركر" تقول: "فانكوفر الأحد ١٧ من أبريل، ١٩٢٣."

وبدأت أقرأ: "جزيرة كورتيز." فقال: "حسنًا. اقرئى، استمرى."

جزيرة كورتيز. فى الساعات الأولى من صباح الأحد أو ربما فى الساعات الأخيرة من ليل السبت أتت النار بالكامل على منزل آنسون جيمس وايلد الكائن فى الطرف الجنوبى من الجزيرة. يقع المنزل على مسافة بعيدة من أى قاطن أو مسكن، وكان من نتيجة ذلك أن أحدًا من القاطنين فى الجزيرة لم ينتبه، على ما يبدو، للنيران المضطرمة. هناك من يقول إن صيادين على متن قارب من قوارب الصيد كانوا فى طريقهم إلى مكان يدعى الصوت المهجور، شاهدوا النار المضطرمة ولكنهم ظنوا أن هناك من كان يقوم بحرق أغصان وقش، ولما كانوا يعتقدون أن نار القش لا تشكل تهديداً نظراً لطبيعة الغابات الرطبة فى ذلك الوقت من العام، فقد مضوا فى طريقهم ولم يأبهوا لها.

الجدير بالذكر أن السيد وايلد هو مالك بساتين وايلد فروت وكان يسكن أيضًا على الجزيرة طوال خمسة عشر عامًا. كان رجلاً محبًا للعزلة قضى أغلب سنى حياته فى الخدمة العسكرية ولكنه كان ودودًا مع جميع من يقابلهم. كان متزوجًا منذ زمن، وله ولد واحد. يعتقد الناس أيضًا أن السيد وايلد من مواليد المقاطعات الأطلسية.

لقد أتى الحريق على المنزل بالكامل قبل أن يخمد. وقد عثروا على جثة السيد وايلد متفحمة بفعل النيران، كانت قد تفحمت فلم يستطع أحد التعرف عليها.

وجدوا أيضًا فيما وجدوا بين الأطلال "جركن" أسود يُعْتَقد أنه كان مليئًا بالكيروسين.

فى ذلك الوقت كانت المدام "وايلد" زوجته خارج المنزل، يقال إنها ركبت قاربًا – فى يوم الأربعاء السابق على الحادث – كان يحمل كمية من التفاح لنقلها من بستان زوجها إلى "كوموكس." كانت تنوى الرجوع فى اليوم نفسه ولكنها بقيت بعيداً عن الجزيرة ثلاثة أيام وأربعة ليال نظرًا لتعطل محرك القارب. وفى صباح يوم الأحد عادت مع صديقها الذى ركبت قاربه واكتشفا المأساة معًا.

كانت المخاوف تزداد حول الصبى الصغير ابن السيد والمدام "وايلد" والذى لم يكن فى المنزل وقت الحريق. لم يضيع رجال البوليس وقتًا وراحوا يبحثون فى كل مكان ولم يأت مساء يوم الأحد إلا وقد تحدد موقع الصبى فى الغابات على بعد أقل من ميل واحد من منزله المحترق. كانت ملابس الصبى مبتلة تمامًا وكان يرتعش

من البرد لأنه بقى عدة ساعات تحت الآجام، ولكن فيما عدا ذلك فإنه لم يصب بأذى، وظهر من البحث أيضًا أنه أصطحب معه شيئًا من الطعام قبيل مغادرته المنزل؛ فقد وجدوا معه لقيمات من الخبز لدى العثور عليه.

هذا وسوف يبدأ التحقيق فى كورتنى حول أسباب النيران التى دمرت منزل آل "وايلد" وأسفرت عن وفاة السيد "وايلد."

قلت له: "هل كنت تعرف أولئك الناس؟"

اقلبى الصفحة.

٤ من أغسطس، ١٩٢٣. من خلال التحقيق الذى جرى فى "كورتنى" على جزيرة فانكوفر حول الحريق الذى أسفر عن وفاة آنسون جيمس وايلد من سكان جزيرة كورتيز فى أبريل من هذا العام تبين وجود شك فى جريمة إحراق مبانٍ عمدًا مع سبق الإصرار، كما تبين من التحقيق أن الفاعل إما أن يكون هو المرحوم نفسه أو أن يكون الحريق بفعل شخص ما أو أشخاص مجهولين هناك صعوبة فى العثور على دليل مادى ضدهم. لم يقبل المحققون وجود "جركن" الكيروسين فى موقع الحادث على أنه دليل كاف؛ فقد كان السيد "وايلد" يشترى هذه "الجراكن" كثيرًا ويستخدم الكيروسين، حسب شهادة السيد بيرسى كمبر البقال فى مانسون لاندنج فى جزيرة كورتيز.

لم يكن الصبى، ابن المرحوم، ذى الأعوام السبعة قادرًا على تقديم

أى دليل بشأن الحريق. لقد عثر عليه فريق البحث بعد ساعات من الحادث هائماً على وجهه فى الغابة على مقربة من منزله. وعند سؤاله قال إن أباه كان قد أعطاه خبزاً وتفاحًا وأخبره أن يتمشى إلى مانسونز لاندنج ولكنه ضل الطريق. ولكن بعد بضعة أسابيع قال إنه لا يعرف ماذا حدث بالضبط، وكيف ضل الطريق وقد مشى فى ذلك الطريق أكثر من مرة فى الماضى. وقد ذكر الدكتور "أنتونى هلويل" من فكتوريا أنه بالكشف على الصبى فإنه يُرجح أن يكون - أى الصبى - قد آثر الهرب لدى رؤية النار، وربما كان أتيح له من الوقت ما مكنه من أخذ بعض الطعام معه الأمر الذى لا يستطيع أن يتذكر منه شيئًا الآن. كما قال الدكتور "هلويل" إن القصة التى كان الصبى قد رواها فى البداية قد تكون صحيحة، وأنه وجد بعد ذلك صعوبة فى استعادتها من ذاكرته. وقال أيضًا إن استجواب الصبى أكثر من اللازم قد لا يفيد؛ لأنه ربما لا يكون قادراً على التمييز بين ما حدث فى الواقع وبين ما تخيله حول الموضوع.

لم تكن المدام "وايلد" فى المنزل ساعة الحريق لأنها كانت قد ذهبت إلى جزيرة فانكوفر فى قارب يخص جيمس تومبسون "غورى" من "يونيون باى."

قُيدَ حادث وفاة السيد وايلد على أنه نتيجة خطأ غير مقصود. وحفظت القضية على أنها حريق لم يعرف سببه.

أغلقى الكتاب الآن.

أعيديه إلى مكانه. أعيدى كل شىء إلى مكانه.

لا. لا. ليس على هذا النحو. ضعى كل شىء فى مكانه الصحيح. حسب السنة. هذا أفضل. بالطريقة التى كانت مرتبة عليها.

ألم تأت بعد؟ انظرى من النافذة؟

حسنًا. سوف تأتى قريبًا.

أرأيت؟ ما رأيك فيما حدث؟

لا أهتم. لا أهتم برأيك.

هل خطر فى بالك أن تجرى حياة الناس على ذلك النحو وتنتهى بهذه الطريقة؟ ها أنت قد رأيت. إن حياة الناس تجرى على ذلك النحو وتنتهى أحيانًا هذه النهايات.

لم أخبر "تشس" بذلك كله، رغم أنى كنت أحكى له كل كبيرة وصغيرة جرت لى فى الذهاب والإياب. تكونت لديه طريقة فى التخلص من أى ذكر لآل "غورى". أصبح لديه كلمة واحدة يتخلص بها من ذكرهم: "ناس غريبون."

ازدهرت جميع الشجيرات التى كانت مظلمة فى الميدان. أخذت أزهارها لون القرنفل الفاتح فأضحت أشبه بالفشار الملون بالألوان الصناعية.

وبدأت عملى فى وظيفة حقيقية.

اتصلت بى مكتبة "كيستيلانو" فى عصر يوم سبت وطلبت منى الالتحاق بالعمل لبضع ساعات. وجدت نفسى على مكتبى أختم الكتب التى يستعيرها الناس بختم تاريخ استرجاعها. كنت أعرف بعضهم حين كنت أستعير الكتب مثلهم. وأنا الآن أبتسم لهم وأرحب

بهم بوصفى موظفة فى المكتبة. كنت أقول: "نراك على خير بعد أسبوعين." وكان بعضهم، من مدمنى القراءة مثلى، يقول وهو يضحك: "هذا وقت قصير جداً."

وظهر بعد ذلك أن هذه الوظيفة من النوع الذى كنت أستطيع تحمله؛ فلم يكن فيها حسابات - وعندما كان أحدهم يدفع غرامة تأخير أو فقد - كنت أعيد إليه الباقى من درج المكتب أمامى. ثم إنى عرفت الآن مواقع أغلب الكتب على رفوفها، وكيف أملأ البطاقات. إذن تعلمت البدايات.

أخذت ساعات إضافية. ثم لم يمض وقت طويل حتى عينت فى وظيفة ثابتة بأجر كامل لأن إحدى العاملات المعينات أُجْهِضَت فلزمت بيتها شهرين كاملين، وما شرعت فى العودة إلى العمل حتى حملت من جديد ونصحها الطبيب بعدم العودة. وهكذا وجدت لى مكاناً بين الموظفين الدائمين واحتفظت بوظيفتى حتى بعد أن أحسست ببوادر الحمل: أول حمل بالنسبة لى. عملت مع سيدات كنت أعرفهن من شكلهن مدة طويلة. مافيز وشيرلى والمدام كارلسن والمدام يوست. أخبرونى كيف كنت آتى وأتسكع ساعات - كما قلن - فى المكتبة. تمنيت ساعتها لو لم يراقبننى بهذه الطريقة، تمنيت لو لم أكن من الزائرين المدمنين لهذه المكتبة.

كان عملى هذا سبباً فى بهجة متواضعة قنعت بها وأنا على مكتبى ألقى الناس بوجه بشوش، يفتر ثغرى عن ابتسامة خفيفة لدى قدومهم. كان مصدر سعادتى أنى كنت أشعر أن الناس يروننى الآن

شخصاً خبيراً بشىء ما، شخصاً لديه مهمة يقوم بها فى هذه الدنيا، ومصدرها أيضًا أنى ضربت صفحًا عن ممارسة دور الفتاة المتراجعة المعتزلة الهائمة على وجهها، أو الرومانسية الحالمة، أصبحت الآن الفتاة التى تعمل فى المكتبة.

والحق أن الوقت الذى كنت أخصصه للقراءة بدأ يقل الآن، أحياناً كنت أمسك بكتاب وأنا جالسة على مكتبى دون أن أقرأه - كنت أمسك بالكتاب بوصفه شيئًا، وليس بوصفه إناءً علىّ أن أفرغه فى جوفى فى التو واللحظة - تنتابنى عندئذٍ رجفة خوف كما لو كنت أستيقظ من حلم أجد فيه نفسى فى المبنى الخطأ، أو أنى تأخرت عن موعد الامتحان، أو أنى على وشك الوقوع فى مأساة تسبب انقلاباً فى حياتى، أو أخطئ فى حق نفسى خطًا كبيراً أعانى منه طول عمرى.

كانت السيدات التى عملت معهن فى المكتبة يتذكرن الأوقات التى كنت أجىء فيها إلى المكتبة وأنشغل فى الكتابة. قلت لهن إنى كنت أكتب رسائل. ولم تقنعهن إجابتى. قلن: "وهل كنت تكتبين الرسائل على ورق درجة ثالثة. قلت: "إن ذلك أفضل وأرخص."

تركت آخر دفتر كتبت فيه فى درج دولابى، هجرته بعد أن ماتت رغبتى فى النظر إليه مرة أخرى، تركته مع جواربى المهملة وملابسى الداخلية، نالت منه الرطوبة وأصبح منظره يملؤنى بالغثيان والذل. أردت أن أتخلص منه ولم أفعل.

لم تهنئنى المدام "غورى" على الوظيفة الجديدة. قالت لى: "لم تخبرينى أنك ما زلت تبحثين عن وظيفة." قلت لها إنى سجلت

اسمى فى مكتبة من فترة طويلة وإنى أخبرتها بذلك. قالت:

"هذا قبل أن تبدئى فى العمل عندى. والآن ماذا ستفعلين مع السيد"غورى؟" قلت لها: "أنا آسفة."

"ولكن أسفك لن يجديه نفعًا. هل يجديه أسفك نفعًا؟"

رفعت حاجبيها وحدثتنى بلهجة آمرة سمعتها تتحدث بها فى التليفون مع الجزار أو البقال عندما يرتكب خطأ ما فى الطلبات التى كانت تريدها. واستمرت تقول:

"وماذا أفعل معك الآن؟ لقد تركتنى فى حيص بيص، أليس كذلك؟ أتمنى أن تحافظى على وعودك مع الناس أفضل من ذلك، أفضل من حفاظك على وعودك معى."

كان ذلك هراءً بالطبع. لم أعدها بشىء عن مدة بقائى مع السيد "غورى." ومع ذلك فقد جعلتنى أشعر حقًا بوخز الضمير. لم أعدها بشىء حقًا. ولكنى تذكرت عندما كانت تطرق بابى ولا أجيب، وعندما كنت أدخل شقتى خلسة كما يدخل اللص، أو أخرج منها متسللة كما يخرج المرتاب خشية أن يراه أحد. كنت أُخفض رأسى عندما كنت أمر إزاء نافذة مطبخها. وتذكرت تلك العاطفة الكاذبة التى تظاهرت بها عندما كانت تقدم لى ما كانت تقدمه من ألوان الطعام على أطباقها النظيفة. ثم أردفت تقول:

"على العموم لم أكن أحب أن أوكل أمر السيد "غورى" إلى مثلك ممن لا يُعْتَمَد عليه، لم أكن راضية أبدًا عن الطريقة التى كنت تعاملينه بها، أحببت أن أخبرك بذلك فى وجهك."

وسرعان ما وَجَدَتْ جليسة جديدة - سيدة رهيبة تضفر شعرها، لم أسمعها تتحدث ولكنى كنت أسمع المدام "غورى" تتحدث معها. كنت أسمع ذلك لأن المدام "غورى" كانت تترك باب الشقة مفتوحاً. سمعتها تقول عنى:

"لم تكن تكلف نفسها غسل الكوب الذى كان السيد "غورى" يشرب فيه الشاى. وقليلاً ما كانت تعمل له الشاى، لا أدرى فيم كانت تعجبه، تجلس وتقرأ الجرائد القديمة؟"

والآن وأنا أستعد للانتقال من البيت تركت المدام "غورى" نافذة مطبخها مفتوحة على مصراعيها فكان صوتها يكاد يصم أذنى رغم أنها كانت تتحدث مع السيد "غورى." سمعتها تقول:

"وهاهى الآن ذاهبة. هى هى لن تتغير. لن تقول حتى وداعًا من باب الأدب. أعطيناها وظيفة فى وقت لم يلتفت إليها فيه أحد. ولكن الآن لن تقول حتى وداعًا."

ولم أقل وداعًا. كنت مضطرة إلى المرور أمام نافذتهم الأمامية حيث كان السيد "غورى" يجلس، ولكنى كنت أعتقد أنه حتى إذا لوحت بيدى الآن، أو إذا نظرت إليه، فلن يحس إلا بالانكسار، أو الغيظ. اعتقدت أن أى شىء يصدر منى فى تلك اللحظة سيكون ضاراً بنفسيته.

ولم أبتعد أكثر من عمارة من ذلك البيت حتى كنت قد نسيت كل شىء عن السيد والمدام "غورى." كان الطقس قد تحسن، وكانت أوقات الصباح أصفى مما كانت عليه. كان انتقالى إلى المنزل الجديد

مصحويًا بإحساس بالحرية والانطلاق والعزيمة والإصرار. أصبح ماضيّ القريب في نظرى مرتبطًا بما يشين؛ الساعات التى كنت أمضيها خلف الستارة التى كانت تقف حائلاً بين السرير المحشور فى الجدار والمطبخ، والساعات التى كنت أمضيها على طاولة المطبخ أملأ الصفحة تلو الصفحة بالإخفاق، والساعات التى كنت أقضيها فى حجرة حارة مع رجل مسن مقعد، على ذلك "الموكيت" الخشن والأريكة المنجدة بالقطيفة، ورائحة ملابسه وجسده، وتلك القصاصات التى ألصقها بالألبومات، وفدادين من ورق الجرائد الذى كنت مضطرة إلى أن أتصفحه كل يوم، وتلك القصة الرهيبة التى احتفظ بها وجعلنى أقرؤها له. (لم يخطر ببالى لحظة أنها من تلك القصص التى تعكس مأساة إنسانية من النوع الذى كنت أحبه فى الكتب.) أتذكر ذلك كله الآن وكأنما أتذكر فترة قضيتها فى مرض عرض لى فى طفولتى حين حبست نفسى، بسبب الكسل، بين ملاءات قطنية تفوح منها رائحة زيت الكافور. يعتورنى إحساس بالتعب المستمر، وأفرع الشجر المشرفة على نافذة غرفتى ترسل إلى رسائل لا أفهمها. أتذكر تلك الأيام ولا أحن إليها كثيراً، فتلك كانت مرحلة من مراحل العمر انتهت، ولكنها لم تزل جزءاً من نفسى، من تاريخى، فهل هو الجزء الذى لا أحبه؟ لقد انتهى الآن وأصبح من الماضى. وقد تظن أن الزواج هو الذى غيرنى، ولكن ليس الزواج، على الأقل فى الفترة الأولى. لقد مررت، كما تمر بعض الكائنات، بفترة بيات شتوى مؤقت استغرقتها فى التأمل، فأنا أعرف نفسى لا أتغير من

أجل أحد، وعنيدة، وطبعى طبع رجل، ينطوى قلبى على أسرار قلما أكشف عنها. الآن عرفت طريقى، ورضيت بنصيبى بالزواج من الرجل الذى أحببته، وبالوظيفة التى ساقتنى إليها الأقدار. وأعتقد أن جمالى لا بأس به، وعندى قدرة على التحدى عندما يحين الوقت. يعنى أننى أستطيع أن أستمر فى حياتى.

أحضرت المدام "غورى" كيس مخدة وطرقت بابنا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة صفراء متوثبة للعراك. سألتنى إذا ما كان هذا الكيس لى. قلت لها دون تردد إنه ليس لى. وقلت لها أيضاً إننا لا نملك غير كيسى مخدة وهما الآن يغطيان الوسادتين على سريرنا. قالت فى لهجة ملؤها التحدى: "ولكنه ليس لى على أية حال." قلت لها: "وما أدراك؟" قالت فى تؤدة وقد ازدادت ابتسامتها ثقة وخبثًا: "هذا الكيس من نوع من القماش لا يمكن أن أضعه على سرير السيد "غورى" أو سريرى."

"ولماذا؟"

"لأنــه – لــيس – قماشــاً – جيداً يا حبــيـــــبتى."

دخلت إلى حجرتى ونزعت الكيسين اللذين على الوسادتين، وأحضرتهما للمدام "غورى" لترى بنفسها فظهر أنهما لا يتشابهان عكس ما كنت أظن. كان أحدهما من نسيج جيد – وهو كيسها فعلاً – والآخر الذى كان فى يدها كان لى. قالت فى نبرة ملؤها التشفى:

"لا أصدق أنك لم تلاحظى أن هذا الكيس لن يكون إلا لك أنت."

كان "تشس" قد سمع عن شقة أخرى، شقة حقيقية، ليست

"جناحاً"، ولكنها شقة بحمام كامل وحجرتى نوم. كانت شقة زميل له فى العمل يريد أن ينتقل منها لأنه اشترى هو وزوجته بيتًا. كانت الشقة فى عمارة تقع على ناصية شارع ماكدونالد. لم تكن المسافة أيضًا بعيدة عن عملى، فكنت أتمشى وكان "تشس" يأخذ الأوتوبيس نفسه الذى كان يأخذه، وبمرتبينا استطعنا أن نفى بالحاجات الجديدة وزيادة. ترك لنا الزميل وزوجته بعض الأثاث الرخيص فى الشقة، لم يكن يناسب بيتهما الجديد ولكنه كان رائعًا بالنسبة لنا. رحنا نتجول فى الشقة، فى الطابق الثالث، نبدى إعجابنا بدهان الجدران والأرضية المكسوة بالباركيه، والمطبخ الواسع ودواليبه وخزائنه، وبأرض الحمام المائلة، وفوق كل ذلك كان فى الشقة شرفة صغيرة تطل على مروج منتزه "تاتلو." جربنا الحب من جديد، بطريقة جديدة، أحببنا وضعنا الجديد، أحببنا بهجتنا بالخروج إلى حياة الناضجين، خلاصنا من البدروم الذى لم يكن إلا محطة قصيرة فى رحلة الحياة. ظللنا سنوات نذكر حياة البدروم فى حديثنا بين الحين والحين على أنه نكتة عارضة، أو اختبار تحمل. نتذكر الآن كل مرحلة من مراحل حياتنا فتزداد علاقتنا توطداً: البيت المستأجر، أول بيت امتلكناه، ثانى بيت امتلكناه، أول بيت امتلكناه فى مدينة أخرى – كل تلك كانت محطات فى حياتنا نتذكرها فينشأ لدينا إحساس بالارتقاء والتقدم، حتى اشترينا بيتنا الكبير الذى نسكن فيه فى الوقت الراهن والذى دخلته بشىء يسير من الاطمئنان النفسى، وأقل احتمالاً للهرب.

أخبرنا "راى" بأننا سوف ننتقل إلى شقة أخرى ولم نخبر المدام "غورى،" وهو ما زاد عداءها لنا أو بمعنى أصح جن جنونها. قالت: "تحسب نفسها شاطرة. إنها لا تستطيع أن تنظف بيتها، حجرتان لا تستطيع تنظيفهما، كل ما تفعله أنها تكوم القمامة فى ركن من الأركان."

عندما اشتريت أول مكنسة نسيت أن أشترى معها سلة قمامة، وكنت فعلاً أكوم القمامة فى الركن. ولكن كيف عرفت ذلك دون أن تكون قد دخلت حجرتنا بمفتاح احتياطى كانت تحتفظ به؟ تأكدنا الآن أنها كانت تدخل حجرتنا فى غيابنا. ثم قالت أيضاً:

" فتاة جبانة. عرفت من أول لحظة رأيتها فيها أنها جبانة وكذابة. وأنا متأكدة أنها ليست طبيعية، مجنونة، وماذا تنتظر من فتاة تجلس بالساعات تكتب رسائل!! تقول إنها تكتب رسائل!! أنا عارفة؛ هى لا تكتب رسائل، إنها تكتب أشياء وتعيد كتابتها إلى ما لا نهاية، تكتب الشىء نفسه الذى كتبته من قبل عدة مرات!! هناك خلل فى عقلها."

وعرفت من هذا الكلام أيضاً أنها كانت تعمد إلى سلة المهملات فتأخذ الأوراق التى كنت أكتب فيها وتبسطها من جديد لترى ماذا كنت أفعل. كنت كثيراً ما أبدأ القصة نفسها بالكلمات نفسها فى كل مرة .. المرة تلو المرة.

وعندما تحول الطقس إلى الدفء تخليت عن ارتداء الجاكت وارتديت سويتر خفيف يفى بالغرض فوق القميص وحزام أحكمت ربطه حول خصرى. فتحت المدام "غورى" الباب الأمامى وصاحت فى إثرى:

"كلبة. انظروا إلى الكلبة، انظروا إلى لبسها، انظروا كيف تبرز ثدييها وتمد ردفيها خلفها. تظنين نفسك مارلين مونرو؟" ثم استمرت تقول:

"لا نريدك فى بيتنا. كلما غادرت أسرع كان ذلك أفضل لنا."

واتَّصلَت بـ "راى" وأخْبَرَتْه أننى كنت أحاول أن أسرق ملايات سريرها وأكياس مخداتها. وراحت تشكو له من أنى كنت أحكى القصص عنها لكل من أقابله فى الشارع. فتحت الباب ورفعت صوتها حتى أسمع كل ما كانت تقول رغم أن ذلك لم يكن ضروريًا لأن خط التليفون كان مشتركًا وكان يمكن أن أرفع السماعة وأسمع كل شىء فى أى وقت. ولكنى لم أكن أفعل ذلك أبدًا – من طبيعتى ألا أسترق السمع إلى ما يقوله الآخرون – ولكن ذات مساء عندما كان "تشس" معى رفع سماعة التليفون وتحدث إلى ابنها "راى":

"لا تصدق ما تقوله أمك يا "راى." إنها عجوز مخبولة. أعرف أنها أمك، ولكن الحق حق، إنها مخبولة." سألته بعد ذلك هل غضب "راى" منك لأنك قلت عن أمه مخبولة؟ قال: "لم يقل غير "طيب، أوكيه."

وضعت المدام "غورى" السماعة وبدأت تصيح فى اتجاهنا مباشرة وتقول: "سوف أبين لكم من المعتوه، سأبين لكم من هو الكذاب المخبول الذى ينشر الأكاذيب عنى وعن زوجى –." ورد عليها "تشس" : "اتركى زوجتى وشأنها، لا علاقة لك بها." سألنى بعد فترة "ماذا كانت تقصد بأنك كنت تنشرين الأكاذيب عنها وعن زوجها؟" قلت له: "لا أدرى." وقال: "أعرف أنها غيرى منك. أنت شابة وجميلة

وهى عجوز شمطاء" ثم أردف: "انسيها." ثم حكى لى نكتة جعلتنى أضحك وأبتهج من جديد."

انتقلنا إلى شقتنا الجديدة بالتاكسى. حملنا حقائبنا فقط وانتظرنا على الرصيف وظهرانا للمنزل. توقعت منها صيحة أخيرة أو صيحتين، ولكننا لم نسمع شيئًا. قلت لـ "تشس": "ماذا لو كان معها بندقية وأطلقت الرصاص على ظهرى الآن؟" قال "تشس": "لا تتحدثى مثلها." قلت: "أريد أن ألوح للسيد "غورى" لو كان هناك." وقال "تشس": "الأفضل ألا تفعلى."

لم أشأ أن ألقى نظرة وداع على البيت، وبعد ذلك لم أعد إلى شارع "أربتس" مرة أخرى. لم أعد أتذكر حتى شكله رغم أنى أتذكر جيداً بعض الأشياء القليلة جيدًا - الستارة فى الفجوة والنيش المملوء بأطباق الصينى ومتكأ السيد "غورى" الأخضر.

عرفنا بعد ذلك شباباً آخرين بدءوا مثلنا بالسكن فى أحياء فقيرة فى بيوت آخرين. سمعنا عن الفئران والصراصير والحمامات القذرة وأصحاب البيوت المجانين. وكنا نحكى عن صاحبة البيت الذى سكنا فيه - المدام "غورى" التى كانت تعانى من جنون الشك. وفيما عدا ذلك لم أتذكر المدام "غورى".

ولكن السيد "غورى" ظل يتراءى لى فى أحلامى بين الحين والحين. فى الحلم كنت أظن أنه عرفنى قبل أن يعرفها. رأيته فى الحلم رشيقًا وقويًا، ولكنه لم يكن شابًا، ولم يكن بحال أفضل من الحال التى كان عليها عندما كنت أقرأ له فى تلك الحجرة شديدة

الدفء. ربما كان يتحدث ولكن حديثه لم يتجاوز تلك الهمهمة التى كنت أترجمها عنه بما يقتضى الحال. كان حديثه قاطعاً متعجرفاً، أو ربما كان توطئة لا ضرورة لها للفعل. وكان الفعل متقداً عنيفاً، لأن الأحلام فى تلك الأيام كانت حسية تثيرها الشهوة ويخلقها الشوق. لم تزايلنى تلك الأحلام طوال السنين التى كنت فيها شابة يافعة وزوجة حديثة العهد بالزواج ثم بعد ذلك دون أن أفكر فى تأجيل الحمل كما تفعل بعض الفتيات دون سبب مقنع. كنت متوثبة للحياة وفية لها راضية بها مع زوج لم يقصر فى إشباع رغبتى. ظلت تلك الأحلام تهاجمنى بين الحين والآخر، وجاوزت بداياته ورد الفعل عليه وما يستدعى ذلك من مجازفات حد المألوف وحد الخيال وحد اللياقة والاحتشام. كان سريرنا - أنا والسيد "غورى" - حصباء الشاطىء، أو ظهر قارب خشن، أو أسلاكًا رطبة بما عليها من شحم تؤذينا بالتفاف حلقاتها الرهيب. كان القبح مصدر سعادة ولذة محببة برائحة السيد "غورى" التى اختلطت بها الإثارة عندى والألم، وعيناه الهلاميتان الكريهتان، وأسنانه الصناعية الأنيقة فى تكلف ممجوج. كانت تلك الأحلام الهمجية توقظنى كل ليلة دون أن تتملكنى الدهشة أو حتى الخجل، ثم أستسلم للنوم من جديد، وبعد أن أستيقظ فى الصباح الباكر تكون ذاكرتى قد محت كل ما علق بها من تلك الأضغاث. وعلى ذلك النحو ظل المستر "غورى" سيد أحلامى بلا منازع، يتراءى لى حتى بعد أن مات بسنين عديدة، إلى أن بدأ الزمن يأخذ منه شيئًا فشيئًا حتى استهلكته الذاكرة كما تستهلك الأموات.

ولكن هل كانت تلك الأحلام بسببى وحدى؟ كان هو السبب أيضاً؛ فرضها بشخصيته الغريبة وتجاربه العجيبة. حفرت تجاربه لها مكاناً فى ذاكرتى لا تبرحه.

القارب والميناء والحصباء على الشاطئ والأشجار الصاعدة فى الهواء والتى تجثم على الأرض أو تفترش صفحة الماء، وتلك الجزر التى تحيط بالمكان وتلك الجبال المعتمة التى تميزه، تبعثرت فى المكان على غير انتظام، ولكنها بقيت هناك رغم ذهابنا على حالها، وأصبحت مشاهد انطبعت فى الذاكرة وقد اتخذت غرابة الأحلام والقصص.

ولكنى لم أر الأخشاب المتفحمة فى البيت وقد سقطت على جسد الزوج. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد، والآن ازدهرت أشجار الغابة حوله من جديد.

هوامش

(١) رواية للكاتب الساندرو مانزوني (المترجم).

(٢) رواية لفرجينيا وولف (المترجم).

(٣) رواية لسودين جابرين كلودين كوليه (المترجم).

(٤) رواية للكاتبة الايرلندية إليزابث باون (المترجم).

(٥) الملك كانيوت cunt, Knut كان ملك انجلترا الدنمركي ١٠١٧-٣٥ وملك الدانمارك ١٠١٨-٣٥ وملك النرويج ١٠٢٨-٣٥ وبعد مقتل إدماند الحديدي عام ١٠١٦ أصبح كانيوت ملك انجلترا بعد صراع مرير من أجل السلطة. كان مشهورا بزعمه القيام بأعمال خارقة (المترجم).

قبل التغيير

عزيزى الدكتور آر ....

شاهدت أنا وأبى مناظرة كيندى ونيكسون فى التليفزيون. اشترى أبى جهاز تليفزيون بعد أن سافرت أنت بوقت قليل. تليفزيون شاشته صغيرة وله أذنان تشبهان أذنى أرنب. وضعاه (أبى والسيدة بارى) فى حجرة السفرة أمام المائدة حتى يصبح الوصول إلى مفرش المائدة وأطقم السفرة صعبًا. لماذا وضعاه فى حجرة السفرة وهى التى لا تحتوى على مقعد واحد يصلح للجلوس عليه؟ ربما لأنهما نسيا أن بالبيت حجرة جلوس من الأصل. وربما لأن السيدة بارى كانت تحب مشاهدة التليفزيون وهى تتناول العشاء.

هل تذكر هذه الحجرة؟ لا تزال هى هى، لم تتغير ما خلا جهاز التليفزيون الجديد. نفس الستائر التى زينت صفحتها أوراق الشجر

الخمرية على أرضية بلون الصوف الطبيعى، ولوحة يظهر فيها السير جالاهاد[١] يمسك بزمام حصانه، وصورة مدينة جلنكو، وصورة يظهر فيها ريف منطقة رد دير دون إشارة لتلك المذبحة التى حدثت هناك فى القرن التاسع عشر.[٢] وهل تذكر دولاب الملفات القديم، لم يبرح مكانه من حجرة مكتب أبى إلا ببوصات قليلة دون أن يكلف أحد نفسه بإلصاقه بالجدار. وهل تذكر ماكينة الخياطة التى كانت تجلس عليها أمى، لا تزال هناك فى مكانها أيضًا مغلقة لم تمسسها يد بشرية (حتى أبى لم يذكر أمى على لسانه إلا مقرونة بتلك الآلة حين قال لى مرة: "هذه ماكينة خياطة أمك").

إذن فقد رجعت البلد. لم يسألنى أحد متى رجعت؟ ولا كيف؟ قدت سيارتنا الصغيرة (ربع نقل) بعد أن حملتها بكتبى وأوراقى وملابسى وقطعت الطريق من أوتاوا إلى هنا فى يوم كامل. قلت لأبى فى التليفون إننى انتهيت من رسالة الماجستير (والواقع أنى تخليت عنها أو قل أجلتها ولم أرد إخباره بذلك) وقلت له أيضًا إننى فى حاجة إلى إجازة (break). ولكنه قال مستغربًا كأنه لم يسمع عن هذه الكلمة قبل اليوم:

- إجازة؟ عمومًا لعلها إجازة وليست انهيارًا عصبيًا nervous break.

قلت مستغربة أيضًا:

- انهيار عصبى! لماذا؟

لكن كانت هذه لغته؛ لا تتجاوز عبارات مثل "نوبات الإغماء، قلق

حاد، اكتئاب، وانهيار عصبى،" أسماء أمراض كما ترى. كان أحيانًا ينصح مرضاه بالصبر ورباطة الجأش. فظيع. أو ربما أرسلهم إلى النوم ببعض الحبوب المخدرة، وبعض الكلمات الرومانسية الخالية من العاطفة. كان يغفر لمرضاه نزواتهم ونوبات غضبهم ولا يغفر لى كلمة أو نزوة أو غضبة. عندما وصلت لم ألق منه أى ترحيب قل أو كثر، ولم أره متبرمًا أيضًا. كل ما فعله هو أنه طاف حول السيارة التى تحمل أمتعتى ومصمص شفتيه مما رآه وضرب الإطار بيديه وقال:

- أنا مندهش أنك عدت.

فى تلك اللحظة فكرت فى تقبيله تظاهراً بالحب أكثر منه تعبيراً عن موجة عاتية من العاطفة. ولكننى لم أفعل، وبدلاً من ذلك ألقيت بنفسى على صدر السيدة "بى" الواقفة فى منتصف الطريق بين الممر وباب المطبخ. تحملت ملمس شعرها الأسود الغريب المقصوص على الطريقة الصينية على شكل دائرة حول وجهها الأصفر الصغير. شممت رائحة مريلتها البيضاء السميكة، وتحسست عظام صدرها التى كانت فى حجم أعواد تنظيف الأسنان. كنت أطول منها قامة بكثير؛ لم تصل إلى ترقوتى.

ثم قلت لهما وأنا أدارى اضطرابى إن الجو كان ساحراً، والقيادة كانت ممتعة. وكان ذلك ما حدث فعلاً. كان الجو فعلاً ساحراً، وكانت القيادة ممتعة فعلاً. لم يتغير لون الأشجار استعداداً للخريف، وكانت الأعشاب منتشرة وقد أخذت لون الذهب الأصفر. الغريب أن هذا الإحساس بالطبيعة زايلنى برؤية أبى، وأصبح

الإحساس البديل هو الإحساس الذى جربته عندما ألقيت نفسى على صدر السيدة بى. كان تصرفى ناحية أبى يتضمن شيئًا من التعالى، وكان تصرفى ناحية السيدة بى شيئًا من الادعاء الكاذب.

عندما انتهت المناظرة نهض أبى وأغلق التلفزيون. لم يكن يرى فائدة فى مشاهدة الإعلانات التجارية إلا إذا كانت السيدة بى هناك وقالت إنها تريد أن ترى ذلك الشاب الوسيم بسنه البيضاء البارزة، أو تلك الفرخة التى كانت تطارد ذلك الشىء المجهول (لم تكن تريد أن تقول إنها الزرافة، ربما كانت تتظاهر بالنسيان). كل ما كانت تراه جميلاً فى الإعلانات كان يسمح به، بما فى ذلك "الكورنفلكس" الراقص، بالإضافة إلى أنه كان يمتدح تلك الإعلانات بطريقة توحى بأنه يحذرنى من شىء ما.

سألته مرة عن سر اهتمامه بمناظرة كيندى ونيكسون. وأجاب:

– كل ما فى الأمر أنهما اثنان من الأمريكيين.

وحاولت فتح ثغرة أوسع فى موضوع الحديث فسألته:

– ماذا تعنى بذلك؟

عندما كنت تطلب منه الخوض فى موضوع يعتقد أنه لا يستحق الخوض فيه، أو تطلب منه الخوض فى نقاش يعتقد أنه لا يحتاج منه إلى دليل، كان لديه طريقة فى رفع شفته العليا إلى جانب فيه فتبرز سنتان من أسنانه الملطخة بالطباق.

– مجرد اثنين من الأمريكيين.

وكأننى لم أسمع الجملة الأولى قط.

ولذا كنت أجلس معه دون أن نتبادل أى حديث، ولكن الصمت لم يكن هو السائد لأنه، كما قد تذكر، كان يتنفس بصوت عال. كان الهواء يغوص فى رئتيه محدثًا ضجيجًا كأنه يسير فى أزقة ممتلئة بالحصى، أو كأنه يصطدم بأبواب ذات صرير عند الفتح والغلق. وكان الهواء يخرج من صدره محدثًا سقسقة وقرقرة كأن صدره قد أغلق على جهاز غريب يصدر أصواتًا غريبة تشبه أصواتًا قادمة من أنابيب بلاستيكية أو بقبقة فقاعات متنوعة. وليس لك أن تعترض، بل كان علىّ أن أتعود على ذلك. ولكن بهذه الأصوات كان أبى يشغل حيزًا كبيرًا من الحجرة بالإضافة إلى بطنه الكبير وساقيه الطويلتين وسيماه. ولكن ما سيماه هذه؟ إنها القائمة الطويلة من ضروب الإهانات التى أتذكرها وأتوقعها وبها تختبر قوته على الصبر الذى قد ينفد فى لحظة لا تستطيع التنبؤ بها. وأظن أن الكثير من الآباء والأجداد يدعون مثل هذه التعبيرات على الوجوه، منهم حتى من لم يؤت أية سلطة خارج البيت، ولكن أبى كان متقنًا فى وضع هذه التعبيرات على وجهه وتوظيفها كأحسن ما يفعل أصحابها.

أمامى عمل الكثير هنا ولكن الوقت لا يسمح. أو لأنى مكتئبة كما يقولون. جدران حجرة الانتظار نصل لونها لأن أجيالاً من المرضى اتكئوا عليها بمقاعدهم. أعداد من مجلة الريدرز دايجست ممزقة على المائدة. ملفات المرضى فى صناديق من الكرتون تحت مائدة الفحص، وسلال القمامة – من الخيزران المجدول – مشوهة كأن الفئران أكلتها. وليست الأمور أفضل فى المنزل. فهناك الشقوق التى

فى لون الشعر البنى فوق أحواض الغسيل فى الطابق الأول، والصدأ الذى يعلو التواليت. لابد أنك لاحظت ذلك كله. إن الفوضى تعم أرجاء البيت، ولكن الأكثر من ذلك تلك الأوراق والإيصالات والنشرات والإعلانات التى امتلأت بها الأدراج، أو التصقت على الأطباق، أو رقدت هنا وهناك تنبىء عن مزادات وخصومات وصفقات تمت ربما منذ سنوات أو شهور أو حتى أسابيع.

وليس هذا معناه أنهما لا حاجة لهما فى هذه الأوراق، أو أنهم تخلوا عنها تماماً. ولكن التعقيد والفوضى هما السمتان الأساسيتان فى هذا البيت. كانا يرسلان الغسيل إلى المغسلة بدلاً من أن تتولى السيدة "بى" غسله بنفسها كما كانت تفعل فى الماضى. قد تفهم هذا، ولكن الذى لا تستطيع أن تفهمه أن أبى لم يكن يتذكر أنه أرسل ملابسه، وحتى إن تذكر أنه أرسل ملابسه إلى المغسلة فإنه لا يتذكر ميعاد تسلمها، وتبدأ بينهما ثرثرة عجيبة حول البحث عن ثياب مغسولة فى البيت. الأغرب من ذلك أن السيدة "بى" تعتقد أن صاحب المحل يخدعها ويستبدل بالثياب ثياباً أخرى أقل قيمة. لذا فهى تدخل فى جدل عنيف مع العامل وتتهمه بأنه يأتى هنا لغرض خبيث فى نفسه. كانت السيدة "بى" تكلف ابن اختها بتنظيف الأفاريز ولكنه لم يفعل، أدار ظهره للمهمة، وأوصى بها ابنه، ولكن ابنه لم يفعل ولم يأت من الأصل.

كان أبى ينادى على ابن الأخت هذا باسم أبيه. يفعل ذلك مع الجميع. ينادى على أصحاب المحلات والشركات فى المدينة باسم

المالك السابق، أو حتى باسم المالك الأقدم الذى مات منذ قرن مثلاً. وهذا شىء أكثر من كونه زلة لسان أو قصور ذاكرة؛ إنه شىء قريب من التكبر أو الاستعلاء على الناس. يضع نفسه فوق الحاجة لأن يتذكر هذه الأشياء. أو قل يتعالى على ما حدث من تغيير سواء فى المكان أو فى الشخص. سألته عن اللون المفضل الذى يحب أن يراه فى حجرة الانتظار: هل هو الأخضر الفاتح أم الأصفر الفاتح؟ فسألنى: ومن الذى سوف يقوم بعملية الطلاء؟

- أنا.

- لم أعرف أنك تفهمين فى موضوع الدهانات.

- قمت بطلاء جميع الأماكن التى سكنت فيها.

- ربما ولكنى لم أر هذه الأماكن. وماذا سوف تفعلين مع مرضاى بينما تقومين بعمل الدهانات؟

- سوف أفعل ذلك فى أحد أيام الآحاد. ولا أحسب أن مرضاك سوف يكترثون بى بينما أنا أقوم بعمل الدهانات.

- هل تمزحين؟ وفى هذه السن؟

ثم قلت له إنى أستطيع القيام بهذا العمل ليلاً، ولكنه قال لى إن الرائحة التى سوف تنبعث فى النهار سوف تقلب معد مرضاى قلبًا. كل ما سمح لى بعمله فى النهاية هو إلقاء نسخ "الريدرز دايجست" خارج الحجرات وتكويم نسخ أخرى من جرائد ومجلات مثل ماكلين وشارلتين والتايم وليلة السبت. ثم قال إن المرضى سوف يشكون لأنهم تعودوا قراءة النكت التى تمتلئ بها الريدرز دايجست، وأن

بعضهم لا يحب بعض الكتاب الجدد مثل بيير بيرتون.

– هذا فظيع !!

قلت ذلك على سبيل الاستهجان ولكن صوتى كان يرتعش. ثم بدأت فى ترتيب الملفات الملقاة فى حجرة السفرة. كنت أظن أنها كانت تمتلئ بملفات مرضى قضوا منذ زمن بعيد. اعتقدت أننى يجب أن أجمع هذه الملفات إلى جانب الملفات الأخرى التى تمتلئ بها صناديق الكرتون وأرتب كل هذه الملفات فى المكتب حيث المكان الطبيعى لها.

رأت السيدة "بى" ما أفعله ولم تنبس ببنت شفة ولكنها أحضرت أبى على الفور. قال لى:

– من قال لك إننا فى حاجة إلى ترتيب هذه الملفات؟ ومن الذى سمح لك بالحضور إلى المكان من الأصل؟ أنا لم أقل لك.

آر. خلال الأيام التى كنت فيها هنا كانت السيدة "بى" فى إجازة مع أسرتها.. إجازة عيد الميلاد. (فلديها زوج مريض بمرض انتفاخ الرئتين الذى لازمه أغلب حياته، وليس لهما أطفال، بل عدد كبير من أبناء الأخت وأبناء الأخ وأولاد الأعمام والأخوال، وأولاد الأصدقاء والمعارف كذلك.) لا أظن أنك رأيتها على الإطلاق. ولكنها هى التى رأتك. قالت لى أمس: "أين ذلك السيد فلان الذى كنت تنوين الارتباط به؟ فقد رأت طبعًا أنى لا أرتدى خاتم الخطوبة. قلت لها:

– أعتقد أنه فى تورنتو.

– كنا نتمشى أنا وابنة أختى فى عيد الميلاد الماضى ورأيناك معه

تمران إلى جوار ماسورة المياه الرئيسية، وقالت لى ابنة أختى: "ما الذى يجعل اثنين مثل هذين يتشاجران طول الوقت؟"

كانت هذه طريقتها فى الكلام، وهى طريقة عادية بالنسبة لى إلا عندما أردت التعبير عنها على الورق. أعتقد أنها كانت تعنى أننا كنا نتجه صوب مكان ما ولكن غيرنا رأينا وقررنا الخروج من المنزل لكى نكمل شجارنا ... ! لست أدرى.

بدأت السيدة "بى" العمل مع أبى حين بدأت أذهب إلى المدرسة. قبل ذلك كان أبى يستعين ببعض السيدات الشابات اللائى كنت أحبهن كثيراً، ولكنهن ذهبن للزواج أو للعمل فى المصانع الحربية. وعندما كنت فى التاسعة أو العاشرة زرت منازل بعض أصحابى فى المدرسة، وقلت لأبى:

– لماذا تسمح لخادمتنا أن تأكل معنا؟ إن الخادمات اللاتى رأيتهن فى منازل أصدقائى لا يأكلن معهم.

رد أبى:

– السيدة بارى هى السيدة بارى ويجب أن تنادى عليها بهذا الاسم، وإذا لم يعجبك الأكل معها فاذهبى وكلى وحدك فى مخزن الحطب.

ثم تعودت على التجوال فى المنزل كله، وعلى إلقاء بعض الأسئلة على السيدة بارى التى لم تكن تتحدث إلا قليلاً. ولكن عندما كانت تتحدث كنت أعجب من كلامها، ومكثت زمناً أقلدها فى المدرسة أمام زملائى:

أنا:

– شعرك أسود جداً يا سيدة بارى.

هى:

– كل أفراد أسرتى شعرهم أسود. ثم إنه لا يتحول إلى الأبيض أبداً مع الأيام. هذا من ناحية أمى. إنه يظل أسود حتى وهم فى أكفانهم. عندما مات جدى لأبى احتفظوا بجثته فى المقبرة طوال الشتاء لأن الأرض كانت تتجمد، وعند مقدم الربيع كانوا يريدون دفنه فى الأرض. قال أحدهم: "لنلق عليه نظرة لنرى ماذا فعل به الشتاء!" أمرنا الرجل برفع غطاء الكفن. كان راقداً هناك يبدو على ما يرام: لم يتغير لون وجهه وملامحه. وشعره... كان شعره أسود كما كان. نعم ... أسود.

كنت أستطيع تقليد ضحكاتها، أو إذا شئت النبحات النحيفة التى كانت تنبحها، والتى لم تكن تعنى شيئاً، وإنما كنت أشبهها بعلامات الترقيم التى تلى الجمل والعبارات. وبعد أن تقابلنا، أنا وأنت، رحت ألوم نفسى على ذلك.

بعد أن أخبرتنى السيدة بارى كل ذلك عن شعرها وشعر أهلها قابلتها ذات يوم خارجة من حمام فى الطابق الثانى، كانت مسرعة تريد أن ترد على مكالمة تليفونية لم يكن يُسمح لى بالرد عليها. كومت شعرها داخل فوطة ولكن خيطاً نحيفاً يتحرك قادماً من عند أذنيها، خيط غامق أقرب إلى لون الأرجوان يتحرك. ظننت فى البداية أنها كانت تنزف.

قلت فى نفسى قد يكون دمها غامقًا أيضًا من فرط خبثها ولؤم طبعها. قلت لها على الفور:

- أنت تنزفين من رأسك.

فقالت على الفور:

- أوه ... ابعدى عن طريقى.

وتهالكت على الأريكة لتمسك بسماعة التليفون.

ذهبت بعد ذلك إلى الحمام فوجدت على الحوض خيوطًا داكنة من آثار سائل الصبغة التى كانت تستخدمه لصبغ شعرها، بل وجدت علبة الصبغة هناك قابعة على الرف. لم أتحدث فى ذلك الأمر بعد ذلك ولكن السيدة بارى لم تكف عن الزعم بأن شعرها أسود لم ينصل لونه، وأن شعر أقاربها كذلك لا يذهب لونه الأسود حتى وهم فى الأكفان.

... فى تلك السنوات كانت لأبى طريقة غريبة فى لفت انتباهى. فقد يكون مارًا أمام الحجرة التى أجلس فيها ثم يرفع صوته متظاهرًا بعدم رؤيتى ويقول كأنه يغنى:

العيب الرئيس فى هنرى الملك

أنه يمضغ قطعًا صغيرة من الخيط

وأحيانًا كان يتحدث إلى بصوت مسرحى يشبه الهدير. فيقول مثلاً:

- مرحبًا أيتها البنت الصغيرة. هل تريدين قطعة من الحلوى؟

وتعودت الإجابة بصوت نحيف رقيق كصوت الفتيات الصغيرات

يحمل نبرة تملق:

- أوه ... أجل سيدى.

- وووه ... لا يمكنك الحصول على ذلك !!

وهو يقول ذلك كان يضغط على حرف الـ a، ثم يردف:

- سولومون جرندى ولد فى ماندى _[٢]

ثم يشير بحدة بأحد أصابعه لكى آخذ قطعة الحلوى. وهو يقول:

- وعمدوه يوم الثلاثاء ـ

- وزوجوه يوم الأربعاء ـ

- ومرض يوم الخميس ـ

- وساءت حالته يوم الجمعة ـ

- ومات يوم السبت ـ

- ودفنوه يوم الأحد ـ

ثم فى صوت واحد هادر أشبه بهدير الرعد:

- وتلك كانت نهاية سولومون جراندى.

لم تكن هناك مقدمة لهذا العرض. ولم يكن يعلق بعد أن ينتهى. وعلى سبيل المزاح كنت أصفه بأنه سولومون جراندى. وفى المرة الرابعة أو الخامسة، قال لى:

- هذا يكفى ... هذا ليس اسمى. أنا أبوك.

ثم لا أذكر أننا رددنا تلك الأغنية معًا بعد ذلك.

قابلتك أول مرة فى حرم الجامعة، كنت وحيداً وكنت أيضًا وحيدة. قلت لى إن شكلى ليس غريبًا عليك، ولكنك لم تتذكر متى

قابلتنى وأين. كنت تقوم بتدريس هذا المقرر بين الحين والآخر حين يغيب أستاذ المادة لمرض أو أى سبب آخر. كنت تلقى علينا المحاضرة بدلاً منه. كنت تدرس لنا الوضعية المنطقية. كنت تسخر من اضطرارك إلى تدريس هذه المادة وأنت المتخصص في اللاهوت. كنت تلقى علينا التحية على استحياء، أو مع بعض التردد، وكنت أنا أبادرك بجملة كنت دائمًا تقولها لنا:

"ملك فرنسا السابق أصلع"

كنت تقول هذه الجملة لنتخذها مثالاً على الجملة الخبرية التى لا تعنى شيئًا لأن فاعلها لا وجود له. كنت تحدجنى بنظرة حادة فى شىء من الغضب تحاول أن تداريه بابتسامة باهتة لأستاذ يتقن مادته. ترى كيف كنت فى نظرك؟

بنتًا متحذلقة !

آر. لا تزال بطنى منتفخة قليلاً، ليس عليها علامات، ولكنى لا زلت قادرة على ضمها كلها فى قبضة واحدة. فيما عدا ذلك فأنا على ما يرام. وزنى يعود شيئًا فشيئًا إلى معدله العادى أو أقل من العادى. مع ذلك أعتقد أننى أبدو أكبر من سنى، أكبر سنًا من الرابعة والعشرين. ما زال شعرى طويلاً يفتقر للأناقة، أو قل إنه إلى الفوضى أقرب. هل يذكرك بشىء؟ كنت دائمًا تنصحنى بألا أحاول قصه.

على أية حال بدأت أعود نفسى على المشى حول المدينة، على سبيل التمرين. عودت نفسى على الرحيل فى الصيف، أذهب إلى أى

مكان أحبه دون أى إلمام بقوانين الأمكنة الجديدة، أو بأوضاع أهلها المختلفة. تعرف أنى لم أذهب قط إلى مدرسة فى مدينة. ربما لأن بيتنا هنا يقع خارج المدينة ... على مرمى حجر من الطريق الرئيس. لا أشعر فى نفسى بانتماء للمدينة. ذهبت مرة إلى إسطبلات الخيل قريبًا من حلبات السباق ورأيت هناك مالكى الخيول والمدربين الذى يتقاضون أجرًا لقاء التدريب. ورأيت أطفالاً آخرين يقتربون من مرحلة الصبا، لم أكن أعرف أسماءهم، ولكن جميعهم يعرفون اسمى. فى نظراتهم شك وتحفز؛ فهم يعرفون أبى من يكون. سمحوا لنا بوضع العلف والروث خلف الخيول، وكان فى ذلك مغامرة فيها خطر. كنت أرتدى قبعة جولف كانت لأبى وشورتًا فضفاضًا. كنا نتلمس طريقنا إلى السقف، يدفع بعضهم بعضًا ويتركوننى وحدى. أحيانًا يطلب منا الأولاد أن نختبىء لكى يمسكوا بنا. وأحيانًا يقول أحدهم لى: "هل أبوك يعرف أنك هنا؟" ثم يشرع الصبية فى مضايقة بعضهم بعضًا، وأحيانًا يحدث الواحد منهم صوتًا يشبه صوت التقيؤ وأعرف أنه يقصدنى بذلك الصوت. لذا توقفت عن الذهاب إلى هناك. تخليت عن فكرة كونى بنت الغرب الذهبى. ذهبت بدلاً من ذلك إلى الميناء وتجولت فى حوض السفن وتفرجت على القوارب المنتشرة فى البحيرة، ولكنى لم أحلم هذه المرة أن أعمل فى البحر. أيضًا لم أغشهم ولم أقل لهم إنى شىء آخر غير أنى واحدة من البنات. مال إلى أحد الرجال وصاح قريبًا من أذنى:

– هل نبت شعر لك هنا بين ساقيك؟

وقلت لـه فيما أتذكر:

- ماذا تقول؟

لم أكن خائفة ولا وجلة بقدر ما كنت حائرة. رجل ناضج على مستوى المسؤولية أراه مهتماً بمكان بين ساقى ينمو فيه شعر أو لا ينمو!! حتى من نبرة صوته عرفت أنه يمقت هذا المكان.

لقد اختفت إسطبلات الخيل الآن، واختفى انحدار الطريق المؤدية إلى الميناء، واستبدل بمخزن الغلال مخزن جديد، وضاعت خصوصية ضواحى المدينة، أصبحت تشبه الضواحى فى أى مكان. قل عدد المشاة؛ أصبح كل شخص يقود سيارته، اختفت أرصفة المشاة، وأضحت أرصفة الشوارع الخلفية مهجورة ومحطمة ويعلوها الصقيع حتى توارت تحت الأرض والعشب، اختفى الطريق الترابى الطويل الموازى لمدخل مزرعتنا تحت أشجار الصنوبر والكميات المنجرفة من أوراق الصنوبر وأوراق شجر أحمر صغير، وأعواد التوت البرى. لطالما وطئته أقدام الماشين عقوداً من الزمان يبغون زيارة الطبيب، يأتون من المدينة عبر الطريق الرئيس ويلجون منه إلى طريق فرعى يفضى بهم إلى عيادتنا (هناك فرع آخر يفضى إلى المدافن) على اليمين والشمال تقف أشجار الصنوبر تحتضن المدخل إلى طبيب يعيش فى ذلك البيت منذ نهاية القرن الماضى.

مر على عيادتنا جميع أنواع المرضى من الأطفال والأمهات والمسنين. بعد الظهر يأتى إلينا مرضى يصرخون من شدة الألم وتعلو أجسامهم الأوساخ. وأما فى المساء فيأتى إلينا مرضى أكثر

هدوءاً دون أن يكون فى رفقتهم أحد. كنت أجلس خارج العيادة أحتمى بشجرة كمثرى محاطة بحشد من شجيرات الليلاك الصغيرة، وأشرع فى التجسس على المرضى وأبى؛ لأن الفتيات الصغيرات كن معروفات بالتجسس على الآخرين فى ذلك الزمان. لقد اختفت الشجيرات الآن، بل أزالها ابن أخت السيدة "بارى" بجزازة العشب. كنت أتجسس على السيدات اللائى كن يرتدين أفضل ما عندهن من ثياب استعداداً للقاء الطبيب. أتذكر تلك الملابس التى كانت ترتديها النساء فى ذلك الوقت بعيد الحرب. تنورات طويلة تغطى الكاحلين وأحزمة محكمة وبلوزات منتفخة وأحياناً قفازات قصيرة بيضاء؛ فقد كن يرتدين القفازات والقبعات فى الصيف وليس من أجل الذهاب إلى الكنيسة فقط. قبعات مزخرفة من القش تعطى انطباعًا باستدارة الوجه. وثياب ذات أهداب صيفية خفيفة بأخاديد على الأكتاف أشبه بالكاب الصغير، وحزام أشبه بشريط زينة مضروب حول الخصر. ترتفع أهداب الأكتاف من فعل النسيم، فتعمد السيدة إلى رفع يدها المغطاة فى قفاز لإعادتها إلى سابق عهدها. إيماءة فى نظرى ترمز إلى فتنة نسائية يطمحن إليها دون جدوى. تنتهى خيوط القماش الرقيقة إلى الرقبة فتصنع ما يشبه فماً من قطيفة. تذكرت غياب أمى فشاع فى نفسى إحساس فقد الأم. ولكن هل كن أمهات أولئك النسوة المتشحات فى القبعات والأهداب؟ مكثت تحت الشجيرات آكل الكمثرى الصفراء المنقطة وأدعو.

كان أحد مدرسينا يأمرنا بقراءة مواويل قديمة مثل موال باترك

سبنس وطوجوربس وانتشرت فى المدرسة حمى تأليف المواويل.

سأنزل إلى الممر

لأرى صديقى الطيب

سأنزل إلى الحمام

لأفعل كما يفعل الناس !!

تغريك المواويل بالقافية حتى قبل أن تجد المعنى الذى يحتويها. حينئذ كنت أقوم بتأليف المواويل وتلاوتها وفمى ملىء بقطع الكمثرى الطرية.

سيدة تسير فى طريق طويل طويل

طالت المسافة بينها وبين المدينة

غادرت منزلها وارتاحت من غضب أبيها

تريد الآن معرفة مصيرها -

وعندما كنت أحس بوطأة الحشرات على نحو لا قبل لى به كنت أدخل البيت وتكون السيدة بارى فى المطبخ تدخن سيجارة وتستمع إلى المذياع حتى يناديها أبى فتلبى النداء. كانت تبقى حتى يغادر آخر مريض وتبدأ التنظيف والترتيب. فإذا سَمِعَت صراخًا قادمًا من المكتب كانت تجيب النحيب بضحك يشبه النحيب وتقول: "استمر فى الصياح والشكوى ولا يهمنى. " لم أكن أرى داعيًا لأصف لها ملابس النساء ولا مظاهرهن التى كنت أراها لأنى أعرف أنها لن يعجبها الحديث عن مظاهر النساء ولا عن جمال النساء وأناقتهن، ولا يعجبها وعى النساء ولا ثقافتهن. ربما يروق لها أن ترى امرأة تجيد

لعب الورق، أو الخياطة. لا أعتقد أنها فى حاجة إلى أحد. وكان أبى مثلها فى ذلك يعتقد أنه لن يكون فى حاجة إلى أحد. ولعل ذلك ما جعلنى أسأل: وفيم يحتاج أبى الناس؟ من ينبئنى؟ لن ينبئنى أحد. إنهم ينصحوننى بألا أكون أذكى من اللازم.

أتى عمه إلى فردريك هايد
يمرغ نفسه فى التراب.
راح يهزه بعنف يمنة ويسرة
ويوسعه ضربًا فى كل جسده –

ربما أريد أن أرسل لك كل هذا الذى كتبته، ولكن إلى أين أرسله؟ فكرت أكثر من مرة فى كتابة العنوان على الظرف أحسست بشلل فى يدى. مجرد التفكير فى أنى سأبعث إليك وأنت فى مكانك البعيد تعيش حياتك بدونى يؤلمنى غاية الألم. والأكثر ألمًا ألا أعرف لك مكانًا معلومًا، أو أن تعيش حياتك بدونى فى مكان أجهله.

عزيزى آر، عزيزى روبين، كيف تعتقد أنى لم أكن أعرف؟ كانت الأمور كلها تحدث أمامى وتشهد بها عيناى. وكنت سأسمع عنها لو كنت ذهبت إلى مدرسة هنا، ولو كان لى أصدقاء من أبناء أو بنات هذا الحى لعرفت منهم. الصبية فى المدرسة الثانوية هنا يعرفون ذلك فكيف لى ألا أعرف؟

وفى الإجازات كان لدى من الوقت متسع، كنت أستغرقه فى الطواف فى الشوارع وتأليف المواويل، لو لم أنشغل بهذه الأشياء لكنت أول من يعرف. والآن أصبحت أعرف كل شىء. عرفت الآن أن

بعض المرضى الذين يأتون فى المساء، وهم من النساء، كانوا يستقلون القطار. عرفت ذلك من ملابسهن الأنيقة. كن يغادرن فى قطار كان ينطلق فى وقت متأخر من الليل، وأما المسافة من العيادة إلى المحطة فكن، بلا شك، يقطعنها بسيارة تقلهن من العيادة.

وعرفت – من السيدة "بى" فيما أظن، وليس منه – أنهن كن يأتين إلى أبى من أجل حقنهن بحقن الفيتامين. كنت أسمع أصواتهن وهن يستقبلن الحقنة، وأعجب كيف لسيدات مثلهن تبدو على وجوههن وجاهة وثراء ألا يتحكمن فى أنفسهن ولا يصبرن على وخز الإبر. وخلال الفترة التى مكثتها كنت أتعرف على أسلوب الحياة فى هذا البيت، حتى إننى لم أكن أجرؤ على تناول فرشاة من الأرض، أو فتح درج من الأدراج، أو إلقاء الإيصالات القديمة التى تخص البقالة دون أن أستشير السيدة "بى" (على أية حال كنت عاجزة عن اتخاذ قرار فى أتفه الأمور). إلى درجة أننى فشلت حتى فى أن يقبلوا منى أن أصنع لهما قهوة على الموقد بدلاً من الجاهزة التى يفضلانها لأنها – كما كانا يقولان – لها نفس المذاق.

وضع أبى شيكًا جوار طبقى أثناء تناول الغداء اليوم – يوم الأحد. فى العادة كانت السيدة "بارى" تغيب أيام الآحاد. عندما عاد أبى من الكنيسة، أعددت الغداء من اللحم المجفف والخبز والطماطم والمخلل والجبن. لم يحدث أن طلب منى أن أصطحبه فى الذهاب إلى الكنيسة، ربما لأنه كان يريدنى أن آخذ حريتى مع أفكارى التى لا يأبه بها.

كان الشيك بخمسة آلاف دولار.

قال لى: "هذا لك، يمكنك وضعه فى حساب فى البنك، أو استثماره كيفما تشائين. تأكدى أولاً من الفوائد، أنا لا أتابع هذه الأمور. طبعًا سوف ترثين البيت أيضًا. كل شىء فى وقته وميعاده كما يقول الناس."

رحت أفكر: هل هذه رشوة؟ هل هو مال أبدأ به تجارة صغيرة؟ أم أسافر به فى رحلة؟ أم أدفعه مقدم بيت جديد صغير يصبح ملكًا لى فى المستقبل، أم أعود به إلى الجامعة للحصول على شهادات لم يكن مقتنعًا بها.

خمسة آلاف دولار يتخلص بها منى.

شكرته طبعًا، شكرته على الأقل لأنه دخل معى فى حوار أخيراً حتى إننى تجرأت وسألته عما فعل بأمواله التى جمعها عبر السنين. فقال إن هذا ليس له أية أهمية بالنسبة له. ثم أردف:

– اسألى بلى سنايدر إذا كنت تبحثين عن نصيحة مخلصة.

ثم تذكر أن بيلى سنايدر لم يعد يعمل فى أعمال المحاسبة؛ فقد تقاعد. ولكنه قال:

– أعرف رجلاً آخر له اسم غريب، اسم مثل "يسبيلانتى"، ولكنه ليس "يسبيلانتى."

قلت له:

– "يسبيلانتى" مدينة فى ميتشيجان.

– مدينة فى ميتشيغان ولكنها كانت اسم شخص قبل أن تصبح مدينة فى ميتشيغان. على الأرجح أنها كانت اسم رجل حارب الترك

فى أوائل القرن التاسع عشر.

قلت له:

- ربما تقصد فى حرب بايرون.

فتساءل أبى مستغرباً:

- حرب بايرون؟ ما الذى جعلك تسمينها حرب بايرون؟ بايرون لم يشترك فى أية حرب من الحروب. فقد مات بالتيفود. مات وأصبح بطلاً كبيراً، مات دفاعاً عن الإغريق، وما إلى ذلك.

قال أبى ذلك فى عصبية كأننى أنا المسؤولة عن هذا الخطأ التاريخى، وعن هذا الجدل الكبير عن بايرون. ثم هدأ شيئًا فشيئًا وراح يحكى لى، أو قل راح يتذكر سير الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية. تحدث عن الباب العالى وهممت أن أحدثه عن إننى لست متأكدة من أنه كان باباً حقيقياً، أم كانوا يقصدون القسطنطينية؟ أم كانوا يقصدون بلاط السلطان؟ ولكن الأفضل دائماً ألا تقاطع أحداً. عندما كان يبدأ فى حديث كهذا كان يجب أن أتوقف عن الكلام، أو أروح فى نوبة من الصمت، وكأنه يخوض حرباً حقيقية. كنت جالسة فى مواجهة النافذة، وكنت أستطيع، من خلال الستائر النظيفة، رؤية أكوام الأوراق، التى مالت إلى اللون الأصفر المخضب بالبنى، على الأرض وقد امتزجت بأشعة الشمس الغامرة (ربما كانت الليلة الوحيدة التى اشتدت فيها الرياح على غير العادة). تذكرت عندئذٍ عندما كنت أشجعه على الاستمرار فى مثل هذه الأحاديث بسؤال ... أو بالمصادفة.

الزلازل مثلاً. تحدث الزلازل فى سلاسل الجبال البركانية، ولكن أحد أكبر الزلازل حدث فى وسط القارة، فى مدريد الجديدة (وكانوا ينطقونها ماد رد الجديدة) فى ميسورى، فى عام ١٨١١. عرفت ذلك منه. الوديان المتصدعة. عدم الاستقرار الذى لا توجد علامة عليه على السطح، كهوف ضخمة تشكلت فى الحجر الجيرى، ماء تحت الأرض، جبال وجدت الوقت الكافى لتتآكل وتتحول إلى حطام.

أيضًا الأرقام. سألته عن الأرقام مرة من المرات وقال: سؤال مهم، يسمونها الأرقام العربية، أليس كذلك؟ أى مغفل يعرف ذلك. ولكن الإغريق ربما كانوا أقدر على استنباط نظام جديد، ثم استمر يقول: كان الإغريق قادرين على ذلك، ولكنهم لم يخترعوا الصفر. مفهوم الصفر.. ادخرت ذلك فى مؤخرة رأسى حتى أفتحه معه كموضوع مستقل فى يوم من الأيام.

لو كانت السيدة "بى" معنا الآن لما تمكنا من إدارة حوار كهذا، لما تسنى لى أن أظفر منه بمثل تلك الإجابات.

كان سيقول: ولا يهمك، تناولى وجبتك.

كما لو كان لكل سؤال دافع خفى، وأظن أنه كان لكل سؤال دافع خفى. كنت أتحايل لكى أغير دفة الموضوع. لم يكن من الأدب أن أترك السيدة "بى" فى الخارج. لذا كان موقفها مما يسبب الزلازل، أو تاريخ الأرقام (موقف عدم اكتراث أو نابع من ازدراء) وهو الموقف الذى يجب أن نذعن له، الذى يجب أن يسود.

الآن نعود إلى الحديث عن السيدة "بى" مرة أخرى. فى الوقت

الحاضر، السيدة "بى."

دخلت الليلة الماضية فى تمام العاشرة، كنت فى الخارج فى اجتماع الجمعية التاريخية، أو على الأقل كنت فى اجتماع لأحاول أن أنظم واحدا، حضر خمسة، اثنان منهم كانا يمشيان على عكازين. عندما فتحت باب المطبخ رأيت السيدة بى واقفة على المدخل إلى الصالة الخلفية – الصالة التى من المكتب تؤدى إلى الحمام والجزء الأمامى من المنزل. كانت تمسك بطست مغطى فى يديها، كانت فى طريقها إلى الحمام وكان يمكن أن تذهب من أمام المطبخ كما دخلت، كان يمكن ألا ألحظها. ولكنها توقفت فى مسيرتها ووقفت هناك، ومالت ناحيتى وصدرت منها علامة على الفزع.

أوه– أوه. متلبسة.

ثم اندفعت بسرعة إلى الحمام.

اندفعت بطريقة درامية. المفاجأة، والذعر، الاندفاع الذى يشبه الهرب. حتى طريقتها فى الإمساك بالحوض التى جعلتنى أنتبه لها، كان ذلك كله مقصوداً.

سمعت قعقعة صوت أبى قادمًا من المكتب، وهو يتحدث مع مريضة. رأيت أيضًا أضواء المكتب خافتة، ورأيت سيارة المريضة واقفة خارج البيت.

خلعت معطفى واتجهت نحو الدرج. كل ما قررت الاهتمام به الآن هو أن أعترض طريق السيدة "بى." لم أتوجه إليها بسؤال واحد، وأخفيت صدمتى. لم أسألها أسئلة من قبيل: ما الذى معك فى

الحوض يا مسز بى؟ أو ماذا تفعلان أنتِ وأبى منذ الصباح؟ (ليس لأنى كنت أناديه أبى قبل الآن.)

بالعكس: شغلت نفسى فى الحال أنقب فى صندوق من صناديق الكتب التى لم أفتحها. كنت أبحث عن مقالات السيدة آنا جيمسون. كنت قد وعدت بها رجلاً تحت سن السبعين قابلته فى الاجتماع. كان الرجل يعمل مصوراً ويعرف طرفًا من تاريخ كندا الجنوبية. قال لى - خلال نصف الساعة التى وقفنا خلالها فى الممر بدلاً من أن يمضى فى طريقه لإحضار القهوة - إنه كان يريد أن يكون مدرس تاريخ ولكنه كان يعانى من لثغة فى النطق مما حال بينه وبين ما كان يريد. قال لى إنه كان يتمنى أن يحضر لى قدحًا من القهوة ولكن الوقت لن يسعفه؛ فعليه أن ينطلق إلى البيت لكى يعتنى، بدلاً من زوجته، بالوليد الذى كان يعانى من مغص.

أفرغت الصندوق من الكتب قبل البحث. كنت كمن يبحث عن آثار من زمن غابر، شغلت نفسى فى البحث حتى غادرت المريضة، وغادر أبى مع السيدة "بى" إلى البيت وذهب هو إلى الطابق الثانى، ودخل الحمام وذهب إلى حجرة نومه لينام. رحت أقرأ هنا وهناك حتى أصبت بدوار وكدت أرقد على الأرض.

أثناء الغداء قال أبى بعد صمت طال: "ومن يهتم بتاريخ الأتراك اهتمامًا قل أو كثر؟ تاريخ قديم." وقلت بعد تردد ما كان يجب أن أقول: "أظن أنى أعرف ما يجرى هنا فى هذا البيت". فرجع برأسه إلى الخلف وقال بصوت يشبه صهيل الخيل. كان صوته فعلاً أشبه

بصوت حصان عجوز:

- صحيح؟ ما الذى تظنين أنك تعرفينه ويجرى هنا؟

- أنا لا أتهمك يا أبى. أنا حتى لا أستنكر ما تفعلونه هنا.

- حقًا!!

- نعم أنا لا أعترض على الإجهاض، بل إنى أعتقد أن القانون يجب أن يجيزه.

حينئذٍ قال أبى:

- لا أريد أن أسمعك تتفوهين بهذه الكلمة مرة أخرى فى هذا البيت.

- ولم لا؟

- لأنى أنا الوحيد الذى يحدد الكلمات التى تستخدم فى هذا البيت.

- أنت تسىء فهم ما أقول.

- ما أفهمه أن لسانك يفلت كثيراً هذه الأيام، لسانك يفلت أكثر من اللازم، وغباؤك زاد. تعليمك عالٍ ولكن عقلك غبى.

ولم يجعلنى هجومه أكف عن الكلام، استمررت: "يجب أن يكون ذلك على الملأ وقانونيًا. أليس كذلك؟ فرق كبير بين العلانية والسر. حاول أن تفهم ذلك."

ولم يكلمنى خلال بقية اليوم، وحتى أثناء العشاء لم يكلمنى، لا أعتقد أن ما قلته يمثل مشكلة. تصرفات تبدو غبية ومشينة، تجعلنى أريد أن أخرج من ملابسى. ولكنى لن أظل فى هذه الحال إلى الأبد،

ثم أجد نفسى مضطرة إلى الإعتذار بعد ذلك. (لعلك لا تندهش عندما تسمع ذلك). الوقت مناسب جداً الآن للرحيل من هنا.

أخبرنى الشاب الذى قابلته فى الاجتماع أن اللثغة التى فى لسانه تذهب عندما يسترخِي ويرسل نفسه على سجيتها. وقال لى إنه يتحدث معى الآن دون لثغ. كان فى وسعى أن أجعله يقع فى حبى ... لتزجية الفراغ ليس إلا. هكذا ... تمضى حياتى.

عزيزى آر. لم أرحل حتى الآن. لم تكن السيارة الربع نقل تناسب الرحلة، أدخلتها الجراج للفحص. وأيضاً الطقس تغير. بدأت الرياح تهيج كشأنها فى الخريف، وبدأ الهواء يضرب الشاطئ بعنف، تعثرت السيدة بى على درجات المدخل ووقعت وكسر مرفقها، مرفقها الأيسر، ورغم ذلك قالت لأبى إنها تستطيع أن تعمل بيدها اليمنى، ولكن أبى أخبرها أن الكسر ليس سهلاً وقال لها إنها يجب أن ترتاح لمدة شهر على الأقل. وسألنى إذا ما كنت أستطيع تأجيل رحلتى. استخدم هذه الكلمات بالضبط: "تأجيل الرحيل." لم يسألنى الوجهة التى أريد أن أرحل إليها. كل ما ما يريد أن يعرف السيارة التى أنوى الذهاب بها.

حتى أنا لا أعرف أين أريد أن أرحل.

قلت له: "سوف أبقى ما دامت لى فائدة بالنسبة لك. وبدأ يلين معى فى الكلام. أحاول أن أفعل ما كان يمكن أن تفعله السيدة بى. لم أعمد إلى إعادة ترتيب، أو إصلاح شىء. (وذهبت السيدة بى مع أحد أقربائها، وشعرت بالدهشة والامتنان.) أغلق باب الفرن كما

كانت تفعل السيدة بى بأن أضع وراءه كتابين من كتب الطب الثقيلة فوق كرسى من الكراسى التى ليس لها ظهر. أطبخ اللحم مع الخضروات بنفس طريقتها، ولا أفكر فى شراء نبات الأفوكاتة أو زجاجة قلب الخرشوف أو قارورة ثوم، رغم أنى أعرف أن هذه الأشياء تباع الآن فى السوبرماركت. أعد القهوة من المسحوق الذى وجدته فى المرطبان. حاولت شربه مرة حتى أعرف هل سأتعود عليه، ولكنى فعلاً تعودت عليه. أنظف المكتب آخر النهار كما كانت تفعل، وأعتنى بالغسيل، وصاحب المغسلة أحبنى لأنى لا أناقشه فى شىء ولا أتهمه.

يسمح لى أبى بالرد على التليفون، ولكن حين تكون المتصلة امرأة وتسأل عن أبى وليس عندها استعداد لأية تفاصيل أخرى كنت آخذ منها الرقم وأقول لها إن الدكتور سوف يتصل بك. هكذا كنت أفعل، وأحياناً كانت المرأة تغلق الخط من تلقاء نفسها. وعندما أخبر أبى بذلك يقول: "سوف تتصل فى الغالب فيما بعد."

المرضى من ذلك النوع كثيرون - المرضى الذين كان يطلق عليهم اسم "الاستثنائيين". قد يكون عددهم أكثر من واحد كل شهر. فى الغالب هو يداوى احتقان الحلق وتشنج القولون ودمامل الأذن إلخ. وأيضاً تسارع ضربات القلب وحصوات الكلى وتعسر الهضم.

آر. اليوم طرق بابى حجرتى. طرق الباب رغم أن الباب كان موارباً. كنت أقرأ. طلب منى - طبعاً ليس بنبرة استعطافية على الإطلاق ولكن بشىء من الاحترام المعقول - أن أساعده فى المكتب.

إذن أول مريضة استثنائية منذ رحيل السيدة "بى".

سألته: ماذا يريد منى أفعل؟

- كل المطلوب منك أن تمسكى بها ولا تجعليها تتحرك. إنها صغيرة السن وهذه أول مرة لها. أيضاً نظفى يديك جيداً، استخدمى الصابون الذى فى الزجاجة التى فى حمام الطابق الأرضى.

كانت المريضة تتمدد على ظهرها فوق طاولة الفحص وقد وضعت على نصفها الأسفل، بداية من الخصر، ملاءة، وعلى نصفها الأعلى سترة من الصوف ذات لون أزرق غامق أحكمت إغلاق أزرارها، وبلوزة بيضاء مزينة عند الياقة بشريط زينة. بدت هذه الملابس واسعة فوق ترقوتها وصدرها الذى بدا وكأنه خلا من ثدييها. كان شعرها أسود، كومته خلف رأسها على هيئة ضفائر وثبتته جيداً بدبوس. بدت رقبتها، بسبب هذه الطريقة فى اللبس، طويلة. وبدت عظام وجهها الأبيض واضحة المعالم حتى إن الناظر إليها من بعيد يظن أنها سيدة فى الخامسة والأربعين من عمرها، ولكن حين تقترب منها تراها شابة ربما لم تتجاوز العشرين. علقت جونلتها المثنية خلف الباب، وعلقت تحت الجونلة سروالها التحتى، عرفت ذلك من حافته.

كانت ترتجف بشدة رغم أن المكتب لم يكن بارداً. قال أبى:

- الآن يا مادلين، أول شىء هو أن ترفعى ساقيك إلى أعلى.

استغربت أنه يعرف اسمها، أم هل سألها عن اسمها واستخدم الاسم الذى أخبرته به؟ ثم قال:

- استرخِى، استريحى.

رفع رجليها إلى أعلى برفق، كانت ساقاها عاريتين، ويبدو أنهما لم يعرفا لسعة الشمس أبداً. كانت لا تزال ترتدى حذاءها الكوتشى، وكانت ركبتاها ترتجفان بشدة وهما على ذلك الوضع حتى كانا يصطكان. قال لها أبى:

- اثبتى أكثر، أنت تعرفين أنى لن أستطيع القيام بعملى حتى تفعلى ما أريده منك، هل تريدين بطانية فوقك؟

ثم قال لى:

- هاتى بطانية من الرف الأسفل هناك.

أحضرت البطانية وثنيتها حتى تناسب تغطية الجزء الأعلى من جسد مادلين. لم تنظر إلى. وكانت أسنانها تصطكان، أغلقت فمها تماماً. ثم قال لها أبى:

- الآن قليلاً من الميل.

ثم قال لى:

- امسكى ركبتيها مفتوحتين، امسكيهما بالراحة.

وضعت يدى على سنامتى ركبتى البنت المسكينة، وباعدت بينهما برفق على قدر ما استطعت. كانت أنفاس أبى تملأ الحجرة وهو يرسل تعليقاته التى لم أفهمها، كان على أن أمسك بساقى مادلين بشدة حتى أحول بينهما وبين الارتجاف الشديد. قالت لى:

- أين المرأة العجوز.

- ذهبت إلى بيتها. تعثرت وسقطت وكسر ذراعها، أنا هنا مكانها.

يعنى ذلك أن البنت جاءت إلى هنا قبل اليوم، ولم تكن هذه أول مرة لها.

قالت:

- سيدة فظيعة.

كان صوتها يعكس حالتها. أشبه بالدمدمة، ولكنه لم يكن متشنجًا كما توقعت من رجفة جسدها. قلت لها:

- أتمنى ألا أكون فظة مثلها.

ولم ترد. تناول أبى عودًا صغيرًا يشبه إبرة الخياطة ثم خاطبها بنبرة عادية، بطريقة لطيفة لم أعهدها فيه من قبل:

- الآن الجزء الصعب. وكلما تشنجت أكثر ازدادت صعوبة المهمة. ولذا أريدك أن تسترخى. نعم. هنا، بنت ممتازة، بنت ممتازة.

كنت أفكر فى شىء أقوله لها لعله يرضيها أو يلهيها. أرى الآن ما يفعله أبى. لقد وضع قطعة من القماش الأبيض على مائدة بجواره أعوادًا تشبه إبر الخياطة مختلفة فى السمك ولكنها متشابهة فى الطول. إنها هى التى سيستخدمها، الواحدة تلو الأخرى، فى فتح عنق الرحم وشده. لم أستطع رؤية تلك الآلات وهى تعمل فى جسد الفتاة من موقعى خلف الملاءة التى استخدمها كحاجز. ولكنى كنت أشعر بها من موجات الألم التى كانت تصل جسدها وتقلل من تشنجه وتجعله أهدأ.

من أين أنت؟ متى ذهبت إلى المدرسة؟ هل لديك وظيفة؟ (كنت قد

لاحظت أنها ترتدى خاتم زواج، ولكن كلهن ترتدين مثل هذه الخواتم.) هل تحبين عملك؟ هل معك إخوة ذكور أو إناث؟

لماذا تضطر إلى الإجابة على هذه الأسئلة حتى لو لم تكن تتألم؟

توقفت عن التنفس وراحت تحملق فى سقف الحجرة. قلت:

– أعرف. أعرف.

قال أبى:

– ما دمنا وصلنا هنا فإنك بنت ممتازة. بنت ممتازة وهادئة. الآن لم يتبق الكثير.

قلت:

– كنت أنوى دهان هذه الحجرة، ولكنى لم أتجول فيها جيداً، فإذا كنت تريدين طلاؤها، ما اللون الذى تفضلينه؟

قالت مادلين:

– هوه ... هوه.

كأن الهواء المتراكم فى صدرها يخرج مذعوراً رغماً عنها.

– هوه. هوه.

قلت:

– اللون الأصفر، أو الأصفر الفاتح، أو الأخضر الفاتح.

وعندما وصلنا إلى استخدام الإبرة الأغلظ أرسلت مادلين رأسها إلى الوراء حيث ألقت بها على وسادة خفيفة، وقد مدت رقبتها الطويلة، ومطت فمها، وضغطت بأسنانها على شفتيها قدر طاقتها.

قلت لها:

– تذكرى فيلمك المفضل. ما هو فيلمك المفضل؟

السؤال نفسه سألته لى ممرضة عندما وصل بى الألم مرحلة لا يمكن تصديقها، واعتقدت أن الراحة منه لن تجىء، أو لن تجىء هذه المرة على الأقل، كيف تستمر السينما إلى الآن فى هذا العالم؟ الآن أنا أقول الشىء نفسه لمادلين، وتصطدم عينا مادلين بعينىّ فأرى على محياها سيماء التائه الذى أدرك أن الإنسان قد يأتى عليه يوم تصبح فيه الساعة المعطلة أنفع منه وأجدى.

جازفت برفع يدها عن ركبتها وأسلمتها ليدها الأخرى، واندهشت عندما لاحظت كيف التقطتها بسرعة فائقة، وغاصت الأصابع فى الأصابع. ثم قالت بصوت يشبه الهسيس من خلال أسنانها المصطكة:

– قل بعض —— ريس. رايت.

وقال أبى:

– الآن نوشك على الانتهاء.

– احكى لنا حكاية.

أية حكاية يريدنى أن أحكيها؟ هيكرى ديكرى دوك؟ كل ما قفز إلى ذهنى هو ما تعودت أنت أن تقوله لى، "أغنية أونغس الطواف."(٤) تقول أبياتها الأولى:

خرجت قاصداً غابة البندق؛ لأن ناراً كانت تتقد فى رأسى –

لم أتذكر أبياتها التالية. لم أتذكر سوى الأبيات الأخيرة:

رغم تقدم سنى من كثرة التطواف

حول الأرض والتلال الخالية من البشر،
سأظل أبحث عنك حتى أجدك،
وأقبل وجهك وأحتضن يديك.
تخيل! أنا ألقِي قصيدة بين يدى أبى.
ما الذى كان يدور برأسها وهى تسمع؟ لا أعلم. كل ما فعلته هو أنها أغلقت عينيها.

كنت أعتقد أنى سأخاف الموت لأن أمى ماتت بهذه الطريقة: أثناء الولادة. لكن بمجرد دخولى حجرة العمليات وجدت أن الموت والحياة فكرتان لا يتصل أحدهما بالآخر، أشبه بالأفلام المفضلة. كانت أعصابى مشدودة إلى آخر درجة، كنت مقتنعة بأنى عاجزة عن فعل شىء، كأنى عاجزة عن زحزحة ما يشبه بيضة عملاقة، أو كوكبًا متوهجًا وليس جنينًا على الإطلاق. أحسست أنه وأنا قد توقفنا عند نقطة فى المكان والزمان لا نبرحها ولن نبرحها - ولم أبرحها؟ ولأى سبب؟ أحسست أن احتجاجاتى كلها لا فائدة منها، ولا داعى لها، بل إنها فقدت قيمتها. قال أبى:

- الآن أريدك، أريدك إلى جوارى. أحضرى الحوض.

وأحضرت الحوض نفسه الذى كنت أرى السيدة بارى تمسك به وتقف إلى جوار أبى. أمسكت به بينما كان هو ينظف رحم الفتاة بأداة مطبخ (لا أقصد أداة مطبخ ولكن هكذا بدت لى: مألوفة أو عادية.)

فى مثل تلك الأحوال التعيسة تبدو الأجزاء السفلية لأية فتاة

مكتنزةً حتى ولو كانت الفتاة نفسها نحيفة. فى أيام ما بعد الطلق، فى قسم الولادة، كنت ترى النسوة يرقدن دون مبالاة، أو حتى بطريقة متحدية، وقد انكشفت منهن الجروح الملتهبة والندوب المتقيحة، وسالت دموعهن الحارة. ظهرت أسلاك الخيط السوداء فوق الجروح التى تدلت منها أجزاء من اللحم الحزين، استقرت أفخاذهن الكبيرة على الأرض. كان مشهداً يستحق الرؤية حقًا.

خرجت من الأرحام سوائل تشبه "الجيلى" الذى أخذ لون الخمر الأحمر الغامق، ودم، وهناك فى مكان ما من الرحم يرقد الجنين. الجنين الأشبه باللعبة الصغيرة التى يجدها الأطفال فى صندوق "السيريال" أو الهدية التى يحصلون عليها بعد شراء كيس من الفشار. أو كدمية من البلاستيك لا قيمة لها إلا إذا كان لقلامة الظفر فائدة. لم أجهد نفسى فى البحث عنه أو النظر إليه، بل إنى نأيت بنفسى عن رائحة الدم الدافئ.

"الحمام" قال أبى "هناك غطاء، هاتِيه." كان يقصد قطعة القماش المطوية إلى جوار الأعواد الملوثة. لم أسأله: "هل هى التى فى حوض الحمام؟" وذهبت وأنا معتقدة أنها هى التى قصد. حملت الحوض واجتزت الردهة إلى حيث يقع حمام الطابق الأرضى، تخلصت من محتويات الحوض، وملأته بالماء، وشطفته مرتين، وأعدته إلى أبى الذى كان يضمد جروح الفتاة ويلقى عليها بعض التعليمات. كان يتقن إلقاء التعليمات - كان يتقن هذا الأمر فعلاً، ولكن وجهه كان يبدو جاداً، وتظهر عليه علامات الإعياء الشديد. قلت فى نفسى: لابد

أنه يريدنى ألا أفارقه فى هذه المهمة الصعبة، فلربما يفقد السيطرة فجأة وينهار. لابد أن المسز بى كانت- ربما فى الأيام الخوالى - تنتظر فى المطبخ حتى تحل اللحظات الأخيرة. وظنى أنها معه الآن حيث هو.

لو أن أبى توقف أو فقد السيطرة، لما فعلت شيئًا. ماذا كنت سأفعل؟

ربت على ساق مادلين وأمرها أن تتمدد جيداً على الطاولة.

"لا تتحركى أبداً، ولا تحاولى النهوض ولو للحظات." ثم أردف: "هل رتبت أمر عودتك؟ هل ينتظرك أحد بسيارته؟" فقالت فى صوت ضعيف ولكنه ملىء بالاستياء والضغينة:

- ينتظرنى فى الشارع الآن طوال الوقت. يفترض أنه ينتظرنى ولن يبرح مكانه أبداً.

تناول أبى سترته البيضاء واتجه ناحية نافذة حجرة الانتظار. قال:

- أنت متأكدة. حسنًا إنه هناك.

ثم فى نبرة ملؤها الإعياء:

- أين سلة الغسيل؟

وتذكر أن سلة الغسيل هناك فى حجرة العمليات التى كان يعمل فيها، فقفل راجعًا ووضع "البالطو" وقال لى:

- سأكون شاكراً لك لو أنك قمت بتنظيف هذه السترة."

والتنظيف معناه القيام بعملية التعقيم وتنظيف الغرفة بالمعنى الأشمل.

قلت: سأفعل.

ثم توجه نحو الفتاة وقال:

"جيد .. الآن أقول لك تصبحين على خير، ابنتى سوف تعتنى بأمرك حين يحين وقت ذهابك." والحق أنى فوجئت عندما نطق كلمة "ابنتى" بدلاً من أن ينطق اسمى كما كان يفعل فى السابق. سمعته يقول "ابنتى" مرة أو مرتين فى السابق عندما كان يضطر إلى تقديمى لأحد على سبيل المثال، ورغم ذلك فوجئت.

بمجرد أن غادر أبى الحجرة أنزلت مادلين ساقيها من فوق الطاولة وترنحت قليلاً وأسرعت لمساعدتها. قالت لى:

– أوكيه، أوكيه، أريد فقط أن أنزل من فوق هذه الطاولة بسرعة. أين وضعت تنورتى؟ لا أريد أن أظل على هذه الحال المزرية أكثر من اللازم.

وأحضرت لها تنورتها من وراء الباب وارتدتها دون مساعدتى ولكن وهى ترتجف. قلت لها:

– فى وسعك أن ترتاحى بعض الوقت. زوجك سوف ينتظرك.

قالت:

– زوجى يعمل فى غابة بالقرب من كينورا، وسوف أذهب إليه الأسبوع القادم، وهناك يمكننى أن أنتظر.

ثم أردفت:

– والآن أريدك أن تبحثى عن معطفى .. وضعته فى مكان ما من هذه الحجرة.

إذا كان يهمك أن تعرف فيلمي المفضل - وأعتقد أنه يهمك - فهو "الفراولة البرية"(٥). هل تذكر صالة السينما العتيقة التى كنا نشاهد فيها معًا كل هذه الأفلام السويدية واليابانية والهندية والإيطالية. أتذكر أن هذه السينما توقفت عن عرض الأفلام الكوميدية البريطانية المعروفة بالـ carry on movies، وأفلام مارتن ولويس، ولكنى لا أتذكر اسمها الآن.(٦) أما فيلمك المفضل على ما يبدو لى فهو "الختم السابع"(٧) أو هكذا أخمن عندما كنت تدرس الفلسفة لقساوسة المستقبل. هل هذا صحيح؟ وهو فيلم يابانى فيما أظن، لا أتذكر موضوعه الآن، تذكر أننا كنا نتمشى بعد انتهاء الفيلم مسافة أكثر من ميلين، وكنا نخوض فى حديث متوهج حول الحب البشرى والأنانية والله والعقيدة واليأس، وعندما كنا نصل إلى البيت كنا نكف عن الكلام، ونلزم الصمت ونحن نرتقى الدرج نحو الغرفة فى هدوء. آآه ... أو لعلك تريد أن تقول فى امتنان وتوق.

لو لم يكن شجارنا عميقًا لما كنت مهتمة بحضورك هنا يوم عيد الميلاد القائت. كنت سأشعر بخوف عليك قبل أن أقدمك لأبى. وعندما سمع اسمك استغرب وقال:

- روبن؟ هل هذا اسم رجل؟

فقلت أنت إنه اسمك. وتظاهر بأنه لم يسمع من قبل بأن هذا اسم لرجل.

ولكنى أشهد لك، فقد خضت فى حوار ناجح مع أبى. تناقشتما حول صراع كبير أجهله، حول الدرجات الكهنوتية للرهبان فى القرن

السابع، أليس كذلك؟ كان ترتيبهم حسب طريقتهم فى حلق رؤوسهم. وصفك بأنك الطويل ذو الشعر المتجعد. ولكنه لم يكن يقصد شيئًا سوى المديح.

وعندما أخبرته فى التليفون بأننا - أنا وأنت - ورغم ذلك كله لن نتزوج، قال لى: "أوه.. أوه.. وهل أنت واثقة بأنه فى استطاعتك العثور على زوج آخر مناسب؟" لو كنت اعترضت على كلامه أو أبديت غضبًا لبادر بقوله إنه كان يمزح، وفعلاً الأمر يستحق المزاح، فلم أوفق فى جذب رجل من قبل، وربما لم أكن فى أفضل حال يمكننى من ذلك.

عادت المسز بارى الآن. عادت قبل أن تمر ثلاثة أسابيع وليس شهرًا كما هو المفترض. ولكنها لم تعد بكامل عافيتها: اضطرت إلى العمل عددًا أقل من الأيام، أيضًا بدأت تستغرق وقتًا أطول فى ارتداء ملابسها، والقيام بأعمال منزلها حتى إنها أصبحت لا تصل إلى هنا (وكان يوصلها ابن أختها أو زوجته) قبل العاشرة فى الصباح. كان أول ما قالته لى بعد عودتها:

- أبوكِ يبدو فى حال يرثى لها.

وكانت فى الواقع على حق.

وكان ردى:

- ربما عليه أن يأخذ قسطًا من الراحة.

فقالت:

- إنه يتعرض لمضايقات من قبل كثير من الناس.

السيارة الربع نقل جاهزة الآن، ونقودى فى حسابى فى البنك. كل ما بقى أن أفعله هو أن أرحل. ولكنى أفكر فى أشياء غبية ومزعجة. فماذا لو قدمت إلينا مريضة أخرى ممن يسميهم أبى "الحالات الخاصة"؟ أغلب الظن أن المسز "بى" لن تقدر على مساعدته. كيف تساعده وهى التى لم تتمكن حتى الآن من استخدام يدها اليسرى فى رفع أى ثقل .. لن تستطيع رفع الحوض لمدة طويلة بيدها اليمنى.

أر. اليوم أقدم النهار بعد السقوط الكبير للثلوج. تساقط الثلج طوال الليلة المنصرمة، وعندما طلعت الشمس كانت السماء زرقاء صافية. صمتت الرياح وراق الجو، وسكتت الكائنات كأنها تحتفل بالطقس البديع. أغرانى ذلك بالمشى لبعض الوقت تحت أشجار الأناناس. كانت بقايا الثلج لم تزل متعلقة بالأغصان والفروع، وبين الفينة والفينة تسقط على الأرض بيضاء متألقة كتلك الأنوار التى تزدان بها شجرة عيد الميلاد، أو قل كقطع الزمرد المتلألئ. خلا الطريق العام الآن من بقايا الثلج، وخلا الممر أيضًا. أصبح أبى قادرًا على الذهاب إلى المستشفى، وأصبح فى مقدورى أن استقل سيارتى وأرحل عندما أرغب فى ذلك.

شاهدت السيارات قادمة من المدينة أو ذاهبة إليها كأن الحياة عادت إلى طبيعتها بعد توقف قصير.

قبل أن أعود إلى المنزل أردت أن أتأكد من أن محرك سيارتى يعمل، وتأكدت. ولكن على مقعد الراكب وقعت عيناى على صندوق.

كان الصندوق يحتوى على زنة رطلين من الشكولاتة، من النوع الذى اشتريته لى من السوبر ماركت. لم أستطع أن أعرف ما الذى جاء به إلى هنا - قلت فى نفسى ربما كان هدية من الشاب الذى قابلته فى الجمعية التاريخية. وكان ذلك تفكيراً غبياً من جانبى، ولكن من غيره؟

حررت خفى من الثلوج العالقة، وتذكرت بأنى فى حاجة إلى مقشة أضعها على الدوام خارج الباب. غمرت المطبخ أشعة الشمس التى تسللت عبر النوافذ. خمنت ما يمكن أن يقوله أبى حين يرانى: "كنت تتأملين الطبيعة كعادتك، أليس كذلك؟"

كان يؤم الطاولة وقد ارتدى قبعته ومعطفه. كان يذهب فى مثل ذلك الوقت ليشرف على مرضاه فى المستشفى. سألنى:

- هل قاموا بتنظيف الشارع العام من الثلوج؟ وكيف حال الممر؟

قلت له إن الطريق والممر خاليان الآن من الثلوج. كان يستطيع التحقق من ذلك من خلال النافذة. وضعت غلاية الماء على النار وسألته: هل يريد قدحاً من القهوة قبل أن يخرج؟ قال:

- ممكن ... بشرط أن تكون الطريق نظيفة حتى أتمكن من الخروج.

- يوم جميل.

- بشرط ألا يضطر المرء إلى شق طريقه بصعوبة.

فرغت من إعداد قدحى القهوة ووضعتهما على المائدة. جلست

أمام النافذة وقد تعرض وجهى للضوء القادم من الشمس، وجلس أبى إلى الجانب الآخر من النافذة بعد أن نقل مقعده إلى مكان بحيث يصافح الضوء ظهره. لم أتمكن من قراءة تعبيرات وجهه فى هذا الموضع، ولكن أنفاسه كانت مسموعة كالعادة.

شرعت أحكى عن نفسى لأبى. لم يكن ذلك دأبى فى السابق. كل ما كنت أريد أن أقوله له إننى أنوى الرحيل إذا حل الغد. فتحت فمى وراح الكلام يتدفق منه وأنا أسمع ما أقول بشىء من السخط والرضا على طريقة الثمل الذى لا يعى. ومما قلت:

– أنت لا تعرف أبداً أننى ولدت طفلاً، حدث ذلك فى السابع عشر من يوليو، فى أوتاوا، لم أكن أتوقع ذلك أبداً.

قلت له أيضًا إننى تركت الطفل للتبنى بمجرد ولادتى له، ولم أعرف هل كان ذكرًا أم أنثى، بل وأوصيت ألا يخبرنى أحد بذلك. وأوصيت بألا أراه أيضاً.

قلت له أيضًا:

– أقمت مع "غوزى"، هل تذكر عندما حدثتك عن صديقتى "غوزى". تقيم الآن فى انجلترا، ولكنها كانت فى ذلك الوقت تعيش بمفردها فى منزل والديها. فقد نُقِلا إلى جنوب أفريقيا. كانت تلك من المصادفات السعيدة.

أخبرته عمن يكون أبو الطفل. عندما سألنى قلت له إنه أنت. وقلت له أيضاً: إن كل ما كان ينقصنا بعد إتمام الخطبة هو الزواج الرسمى. وقلت له إن رأيك كان مختلفًا؛ قلت لى إننا يجب أن نبحث

عن طبيب يجرى لى عملية إجهاض.

ولم يلفت نظرى بأن هذه الكلمة لا ينبغى أن تُذكر فى بيته.

قلت لـه إنك قلت لى: لا نستطيع أن نمضى فى طريق الزواج الرسمى؛ لأن أى متطفل سوف يفهم، دون عناء، أننى كنت حاملاً قبل الزواج، وأننا لا يمكننا الزواج حتى نتأكد من عدم وجود أى حمل.

وإلا فهناك احتمال كبير بأن تفقد وظيفتك فى كلية اللاهوت.

كنت ستتعرض للتحقيق أمام لجنة قد تحكم عليك بأنك غير صالح من الناحية الأخلاقية لتعليم كهنة المستقبل، أو كان من الممكن أن توصم شخصيتك بالفساد، ولنفترض أن ذلك لم يحدث؛ وأنك لم تفقد عملك، وأنهم اكتفوا بتوجيه اللوم إليك، وحتى لو لم يوجهوا إليك اللوم فلن يكون لك الحق فى أية ترقية، وسوف يكون ذلك بقعة فى سجلك،، وحتى لو لم يحدثك أحد بذلك، فسوف يدخرونها ذلة يستغلونها ضدك، وهو أمر لن تحتمله. سيخبرها الدارسون القدامى للدارسين الجدد، ستسرى عنك النكات سريان النار فى الهشيم، وستتاح الفرصة لزملائك للنيل منك، أو الاكتفاء بأبداء العطف عليك .. وهو الأسوأ، ستصبح هدفًا للازدراء والاستخفاف، باختصار ستفشل فى حياتك.

واعترضت.

وقلت لى إننى لا يجب أن أستهتر بالدناءة المستقرة فى نفوس البشر،وأن الأمر سيكون مدمرًا أيضًا بالنسبة لى. فالنساء لن يتسامحن، خاصة إذا كن لطيفات معى فى السابق، وقلت لك ساعتها

إننا نستطيع أن نرحل إلى مكان آخر حيث لا يدرى بنا أحد، وقلت لى إنهم سوف يعرفون، ستجدين دائمًا من يعثر عليك ويتحدث عنك، أضيفى إلى ذلك أنك ستكونين مضطرة إلى الانتقال إلى وظيفة جديدة بمرتب أقل، أو مرتب هزيل، وماذا نصنع بهذا المرتب ولدينا طفل؟

كنت مذهولة من مناقشة ظننت أنها لا تتسق مع الرجل الذى أحببت، والكتب التى قرأناها معًا، والأفلام التى شاهدناها معًا، والقضايا التى ناقشناها - سألتك: أليس لكل ذلك أهمية بالنسبة لك؟ وقلت عندئذٍ: نعم تهمنى هذه الأمور، ولكن هذه هى الحياة!! سألتك: وهل أنت من هذا النوع من الناس الذين يحتملون أن يضحك عليهم الناس؟ الذين ينسحبون أمام الناس؟

وقلت لى ساعتها: إنك لست بهذا السوء الذى أتخيله، على الإطلاق.

يومها ألقيت بخاتم الخطبة على الأرض وتدحرج تحت سيارة مركونة، وأثناء شجارنا كنا نسير فى شارع قريب من النزل الذى كنت فيه أقيم، كان الوقت شتاءً مثل الآن: يناير أو فبراير. ولكن المعركة سرعان ما خفت بعد ذلك. كنت أريد أن أعرف أكثر عن الإجهاض من صديقة لها صديقة مرت بالتجربة. هدأ الشجار، وأنت لم تكلف نفسك حتى بالسؤال. ولكنى كذبت وقلت إن الطبيب انتقل من مكانه. ثم تماديت فى الكذب وقلت لك إنى لا أستطيع أن أفعل ذلك، لا أستطيع أن أجهض نفسى.

ولكن هل كان كل ذلك من أجل الطفل؟ أبداً، لم أعتقد أنى كنت على حق فى المناقشة معك.

احتقرتك عندما رأيتك تزحف مذعوراً تحت السيارة المركونة، وذيل معطفك يخفق حول ردفيك. رحت تخدش الثلج لتعثر على الخاتم، وتنفست الصعداء عندما عثرت عليه. كنت مستعداً لتحضننى، معتقداً أنى سأكون سعيدة أيضًا بالعثور على الخاتم، ويمكن أن نتصالح فى الحال، وقلت لك يومها إنك لن تفعل شيئًا يستحق الإعجاب فى حياتك كلها.

وقلت لك إنك منافق سريع البكاء شأن مدرسى الفلسفة.

ولم تكن تلك النهاية؛ لأننا تصالحنا فعلاً ولكن دون أن يغفر أحدنا للآخر، وحتى لم نتخذ أية خطوة تجاه ذلك. تأخر الوقت. افترقنا. رأى كلُ منا أنه أنفق وقتًا أكثر من اللازم فى الحفاظ على العلاقة. افترقنا. وشعر كلُ منا بالراحة. فى ذلك الوقت كنت متأكدة أن الفراق كان راحة لنا، ولونًا من الانتصار.

أليس هذا غريبًا؟ يستحق الانتباه؟

سمعت المسز "بارى" خارج الباب تنفض قدميها لإزالة الثلج العالق فوق خفيها، قلت ما كنت أريد أن أقول بسرعة، كان أبى يجلس كل ذلك الوقت متصلب الجسد من الارتباك والخجل كما اعتقدت، أو بعد أن انتابه الامتعاض الشديد، فتحت المسز "بارى" الباب وهى تقول:

– يجب أن تضعى مكنسة خارج الباب –

ثم صرخت قائلة:

- ماذا تفعلين بجلوسك هنا؟ ماذا جرى لك؟ أبوك ميت؟ ألا ترين؟ الرجل ميت!

لم يكن أبى ميتًا، كانت أنفاسه أعلى من المعتاد، ما رأته فى تلك اللحظة، وما كان يجب أن أراه أنا، بعون من الضوء، لولا أنى كنت أتحاشى النظر إلى وجهه وأنا أحكى له حكايتى، أنه كان يعانى من جلطة أعمت عينيه، وشلت جسده. كان يجلس بميل خفيف إلى الأمام وقد استند على المائدة بالجزء الصلب من بطنه. وعندما حاولنا تحريكه من على مقعده، تمكنا فقط من مواربته حتى ارتاحت رأسه على المائدة، بعد لأى، أو قل بعد شىء من التمنع الجليل. بقيت قبعته فوق رأسه، وظل قدح القهوة فى مكان يبعد عن عينيه اللتين فقدتا البصر بحوالى بوصة، كان القدح نصف ملآن.

قلت إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا، فقد كان جسده ثقيلاً جداً، اتجهت ناحية التليفون واتصلت بالمستشفى لكى يحضر لنا أحد الأطباء ليأخذه إلى هناك. لا توجد فى المدينة عربة إسعاف، ولم تعرنى المسز "بى" انتباهًا، راحت تحرر أبى من ملابسه، راحت تفك الأزرار وتنتزع معطفه بعنف وهى تتضجر وتئن وتشكو من كثرة ما بذلت من جهد، أسرعت ناحية الممر تاركة البيت مفتوحًا. عدت بسرعة وأحضرت مكنسة، ووضعتها وراء الباب. عدت ووضعت يدًا على ذراع المسز "بى" وقلت: "لا تستطيعين - " أو شيئًا من هذا القبيل، ورمتنى بنظرة قطة غاضبة.

وجاء طبيب. استطعنا أنا وهو جذب أبى والوصول به إلى السيارة ووضعناه على المقعد الخلفى. وجلست إلى جواره لأمسك به حتى لا يقع. كان صوت أنفاسه يزداد وطأة، وبدا كأنه يستاء من كل ما نفعله. ولكن الحقيقة أننا نستطيع أن نمسك به الآن، وأن نحول بينه وبين السقوط، وأن نتحكم فى جسده كله، وكان ذلك غريباً، غاية فى الغرابة. وبمجرد أن رأت السيدة "بى" الطبيب هدأت وتراجعت، إنها لم تتبعنا حتى لترى كيف نخرج من البيت وندخل أبى فى السيارة، سيارة الإسعاف.

مات أبى بعد الظهر، فى حوالى الساعة الخامسة مساءً، وقالوا لى إن موته كان مناسباً، فقد أراحه من المعاناة التى كانت تنتظره.

لم تكن جعبتى قد فرغت تماماً عندما أقبلت المسز "بارى." كنت أريد أن أقول لأبى: ماذا لو تغير القانون؟ ينبغى أن يتغير القانون بأسرع ما يمكن، هذا ما كنت أريد أن أقوله له. كان يعرف وكنت أعرف أنه سيخسر عمله، أو جزءاً من عمله، هل كان سيخسر الكثير؟

ترى ماذا كان سيكون رد فعله؟

أغلب الظن أنه كان سيقول: "لا تتحدثى فى التجارة وإدارة الأعمال، هذا ليس من شأنك.

أو كان سيقول: "حتى لو حدث ذلك سوف أظل قادراً على كسب قوتى."

وكنت سأقول له: لا.. لا أقصد المال. كنت أعنى المخاطرة.

السرية. السلطة.

تغيير القانون معناه تغيير العمل، أو تغيير هوية المرء.

أم هل سيبحث عن مخاطرة أخرى، عقدة أخرى يصنعها فى حياته. عن عمل يزعم أنه رحمة؟

وإذا تغير هذا القانون، فإن أشياء أخرى يجب أن تتغير. أنا أفكر فيك أنت الآن، كيف يتغير القانون فلا يحدث أن تخجل من الزواج من امرأة حامل، لن يكون هناك عار فى ذلك،، فلننتظر القليل، القليل من السنين فقط ويصبح الأمر مدعاة للاحتفال وليس للمداراة، ستحاط العروس الحامل بأكاليل الزهور، وهى فى طريقها إلى المعبد، أو حتى إلى كنيسة كلية اللاهوت، وحتى لو حدث ذلك، سيبقى دائمًا شيئًا نخجل منه، أو نخشاه، سنسعى لتجنب أخطاء أخرى فى حياتنا.

ثم ماذا عنى أنا؟ هل حكم على أن أمتطى حصان العناد والغرور، وأكتفى بما لدى من أخلاق، وأتعالى على الآلام، وأتشبث بالحق، فقد أعوض خسارتى؟

غيروا الإنسان. نأمل ذلك. كلنا يحدوه الأمل فى ذلك.

غيروا القانون، يتغير الإنسان. رغم ذلك لا نريد كل شىء دفعة واحدة – لا نريد أن نصلح كل شىء – أن تملى علينا الأشياء إملاءً من سلطات أعلى منا. أحوالنا لا تعجبنا .. نعم. ولكن علينا أن نغير ما بأنفسنا أولاً.

ولكن من "نحن" هذه التى أتحدث بها؟

آر. يقول محامى أبى: "الأمر غريب غاية الغرابة." وأنا أعرف ما يقصد؛ لم يترك أبى فى حسابه فى البنك مالاً يكفى لتغطية تكاليف جنازته، أو حتى لدفنه .. كما يقولون. (لم يقل المحامى ذلك، المحامون لا يتحدثون بهذه الطريقة.) قال إن ما سيبقى من مال سيكون قليلاً جداً. لم نجد فى خزانته أية شهادات استثمار، ولا علامة على أنه يستثمر أمواله فى مكان ما. لم يترك وصية للمستشفى، ولا للكنيسة، ولا للمدرسة الثانوية التى تعلم بها. وأكثر ما صدمنى وأدهشنى أنه لم يترك للسيدة "بارى" أية نقود. المنزل ومحتوياته من حقى. أعطانى خمسة آلاف دولار قبل وفاته. وهذا كل ما فى الأمر.

بدا المحامى مضطربًا كل الاضطراب، وقلقًا من هذا الوضع المخجل. ربما ظن أنى اتهمته بسوء الطوية. وأنى قد أسعى لتشويه سمعته. سألنى إذا ما كان فى البيت خزانة أخرى وضع أبى فيها أمواله وأوراقه، فى منزلى، أو فى منزل أبى سابقًا، أو مكان يصلح لإخفاء المال فيه. وقلت له إنه لا يوجد شيء من هذا القبيل. ويحاول هو أن يوحى لى - بطريقة بارعة طبعًا وغير مباشرة حتى إننى لم أفهم ما كان يرمى إليه فى البداية - إن كان ثمة سبب يجعل أبى يحتفظ بكمية كبيرة من المال سراً، كمية كبيرة من دخله، كم كبير من المال "الكاش" كما قال، أخفاها ربما فى مكان ما.. هذا احتمال وارد جداً.

وقلت له إنى لست مهتمة أكثر من اللازم بالنقود.

أعجز عن وصف تعبيرات وجهه. لم يكن يستطيع النظر فى

عينى. قال لى:

– ربما تستطيعين الذهاب إلى البيت والبحث بنفسك ... جيداً هذه المرة. لا تهملى الأماكن البسيطة المتوقعة، فقد تجدين الأموال فى علبة "كوكيز"، أو فى صندوق تحت السرير، حتى يصبح الأمر مفاجأة للباحثين، حتى أحرص الناس وأذكاهم، ثم يردف وأنا أهم بالخروج:

– أو حتى فى كيس مخدة.

سيدة فى التليفون تريد أن تتحدث مع الطبيب.

– آسفة الطبيب مات.

– أقصد الدكتور "ستراكان." هل النمرة خطأ؟

– إنه هو... ولكن آسفة .. مات.

– وهل خلت العيادة من غيره – ألم يكن له شريك فى العيادة أستطيع التحدث معه الآن؟ أى شخص آخر غيره؟

– لا .. لا يوجد أحد.

– هل لك أن تعطينى أى رقم آخر أستطيع أن أتصل به؟ أى دكتور آخر يستطيع أن –

– لا ليست لدى أية أرقام. لا أعرف أى أحد آخر.

– لابد أنك تعرفين عما أتحدث. الأمر خطير جداً. عندى ظروف خاصة جداً –

– آسفة.

– النقود ليست مشكلة على الإطلاق.

- لا.

- من فضلك حاولى تذكر أى شخص، فإذا تذكرت أى دكتور آخر فيما بعدا تصلى بى، سوف أترك لك رقمى.

- لا تتعبى نفسك.

- أنا لا أهتم. أنا أثق بك. على أية حال الموضوع لا يخصنى. أعرف أن كل الناس تقول ذلك ولكنى أتحدث الصدق. الأمر يخص بنتى التى هى فى حالة يُرثى لها، منهارة نفسياً.

- أسفة.

- لو عرفت كم تعبت لكى أحصل على هذا الرقم سوف تحاولين مساعدتى.

- آسفة.

- أرجوك.

- أنا آسفة.

كانت مادلين آخر حالة من حالاته الخاصة. رأيتها فى الجنازة. لم تذهب إلى كينورا. أو ربما عادت من هناك. لم أتعرف عليها فى البداية لأنها كانت ترتدى قبعة سوداء مزخرفة بريش عند الحواف. لابد أنها استعارتها - لم تكن متعودة على الريش الذى كان يتدلى حتى يبلغ عينيها. قلت لها الكلام نفسه الذى أقوله لكل شخص:

- شكر الله سعيك.

ثم تداركت أنها قالت لى شيئًا غريبًا. قالت:

- كنت أظن أن لك غرامًا بالحلوى.

قلت للمحامى: "ربما كان أبى يرفض أخذ أجره من زبائنه، ربما كان يعمل للخير وليس للمال. بعض الناس يريدون مرضاة الله.

فقال المحامى وقد اعتاد علىّ ولم يعد يخجل من شيء: "ربما."

"وربما كان يسهم فى عمل خيرى يتبرع له ولا يريد لشماله أن تعرف ما أنفقت يمينه."

وظل المحامى ينظر فى عينى هنيهة. ثم قال:

"عمل خيرى؟" ثم قاطعته:

- حسنًا، لم أبدأ فى حفر البدروم بعد.

فابتسم لهذا المزاح الثقيل بشىء من الجفول.

***

غادرت السيدة بارى دون أن تخبر أحداً. حتى لم تظهر بعد ذلك. لم يكن هناك شيء تعمله، فلما كانت الجنازة فى الكنيسة، وكان الاستقبال فى ردهة الكنيسة، لم تحضر الجنازة. ولم يحضر أحد من اقاربها، كان هناك أناس كثيرون فى الجنازة فلم أستطع أن أعرف ما إذا كنت رأيت أحداً من أقارب بارى أو معارفها؟

اتصلت بها تليفونيًا بعد ذلك بعدة أيام وقالت: "لم أذهب إلى الكنيسة لأنى كنت أعانى من برد شديد."

قلت لها: " ليس لهذا اتصلت، أنا أستطيع أن أتكفل بحياتى."

وسألتها: ماذا سوف تعمل فى المستقبل؟ قالت:

"لا أظن أنك ستكونين فى حاجة إلىّ الآن."

قلت لها: "يجب أن تأتى لأعطيك شيئًا من البيت، شيئًا على سبيل

الذكرى." كنت أريد أن أسألها عن الأموال التى كان أبى يكسبها. ولكنى لم أعرف كيف أفاتحها فى الموضوع. قالت: "عموماً أنا تركت بعض الأشياء فى البيت وأريد أن أزورك عندما أستطيع."

وزارتنى فى الصباح التالى. كانت الأشياء التى جمعتها عبارة عن ممسحات وجرادل وفرشاة وسلة ملابس. لم أصدق أنها جاءت لتأخذ هذه الأشياء، ولم أصدق أنها جاءت لتأخذها لأسباب وجدانية، ولكن ربما. ربما كونها أشياء استخدمتها سنين طويلة - وأنفقت أثناء تلك السنين صحتها وحياتها فى هذا البيت أكثر مما أنفقت فى بيتها.

قلت لها: هل هناك شىء آخر، من أجل الذكرى؟

جالت ببصرها فى أركان المطبخ، وهى تعض على شفتها السفلى. لابد أنها كانت تريد رد ابتسامة لاحت على وجهى. قالت: "لا أظن أن هناك شيئًا سأحتاجه فى المستقبل."

كنت مجهزة لها شيكًا، لم يتبق إلا أن أكتب المبلغ. لم أستطع أن أقرر كم أكتب لها من الخمسة آلاف دولار التى أعطنيها أبى. ألف؟ فكرت. ولكن الألف قليلة جداً. فهل أضاعف المبلغ؟

أخرجت دفتر الشيكات الذى كنت قد أخفيته فى الدرج، وأمسكت بقلم، وكتبت الشيك بمبلغ أربعة آلاف دولار. وقلت لها: هذا لك، وشكراً لك على كل شىء."

استقبلت الشيك بين يديها وحدقت فيه، وحشرته فى جيبها حشراً. قلت فى نفسى ربما لم تكن تستطيع قراءة المبلغ بالضبط. ثم

رأيت على وجهها سحابة من ظلمة، وشعوراً بالخجل، وعدم قدرة على الشكر.

أخذت معها كل ما كانت تريد أخذه، مستخدمة يدها السليمة. فتحت لها الباب. كنت أريد أن أقول لها ما يواسيها ويهدىء من روعها. كل ما استطعت قوله: "هل لا يزال ذراعك يؤلمك؟ فقالت إنه لن يتحسن أبدًا حسبما أظن. وتحولت بوجهها كأنها خشيت أن أقبلها مرة أخرى. قلت لها: "حسنًا .. أشكرك كثيراً .. وإلى اللقاء." راقبتها وهى تدنو من سيارتها. ظننت أن أبن اختها هو الذى جاء بها إلى هنا. ولكن لاح لى فى الحال أن لها سائقًا جديدًا. هل كانت يدها مكسورة؟ سائق جديد؟ هل يفسر هذا عجلتها واضطرابها الغريب؟

خرجت من السيارة زوجة ابن أختها لكى تساعدها فى تناول حاجياتها. لوحت بيدى ... ولكنها كانت مشغولة فى ترتيب المكانس والجرادل. هتفت:

"سيارة فخمة!!"

لم أعرف ماركة السيارة، ولكنها كانت جديدة وواسعة وساحرة. لونها فضى أرجوانى فاتح.

نادتها زوجة ابن أختها: "هيا بنا." وأحنت السيدة "بارى" رأسها اعترافًا بالجميل.

ارتجفت فى ملابس البيت، وقفت هناك ورحت أنظر حتى غابت السيارة عن الأنظار. لم أستطع الجلوس لأفعل أى شىء. عملت

لنفسى قهوة وجلست فى المطبخ. تناولت علبة شيكولاتة مادلين من الدرج وأكلت قطعتين، رغم أنه لم يعد لى طاقة على أكل الحلوى بسبب لونها البرتقالى ووسطها الأصفر. تمنيت لو أنى شكرتها. لا أعرف كيف أشكرها الآن - لا أعرف حتى اسمها الأخير.

قررت الخروج للتزلج. توجد خلف بيتنا حفر تكثر فيها الحصباء الثلجية. أظن أنى أخبرتك بذلك ذات مرة. ارتديت الزحلوفتين الخشبيتين اللتين كان أبى يستخدمهما فى الشتاء حين كان يريد أن يذهب لحالة ولادة أو إزالة زائدة دودية. لم يكن ثمة بديلٌ عن الأحذية ذات الشريط التى تمسك بالقدمين فى المكان.

سرت متزحلقة عائدة إلى حفر الثلج التى تغطت حوافها بالعشب على مر السنين، واليوم هى مغطاة بالثلوج. كان هناك طرقات مخصصة للكلاب، وأخرى للطيور، ودوائر لا تكاد ترى حفرتها فئران الغيطان التى كانت تدور حول نفسها، ولكن لا علامة على بشر. كنت أسقط بين الفينة والفينة، ولكن السقوط كان سهلاً على الثلج الكثير الطرى، وبين سقوط ونهوض اكتشفت شيئًا.

عرفت أين ذهبت النقود. نقود أبى.

ربما فى عمل خيرى.

السيارة الفخمة.

وأربعة آلاف دولار من خمسة.

شعرت بسعادة تسرى فى جسدى منذ تلك اللحظة.

اعترانى إحساس بأنى أرى نقودًا تطير فوق جسر من الجسور،

أو يطاردها الهواء رفعًا وخفضًا إلى المجهول. أموال، آمال، خطابات غرام – أشياء كلها يمكن أن تطير في الهواء، وقد تعود من جديد وقد مسها التغيير، تعود محملة بضوء الفضاء، ومحررة من أحداث الماضي.

هل كان أبي يسعى لجمع المال بأية وسيلة؟ لم أتخيل ذلك، خاصة أن المدينة كلها لم تكن تتحداه، بل كانت تقف معه، أو قل إنها كانت تعينه بصمتها، تلوح الآن لي فكرة ربما لا تكون في محلها: ربما كان يسعى لإحباط توقعاتنا، أو ربما كان يريد أن يخبرنا بأنه لم يكن يأبه بجمع المال. هل يرى الآن – وهو ميت – صدمة المحامي؟ وهل يعرف أنني أسعى الآن لمعرفة الحقيقة؟

كلا. لا أظن أنه كان يفكر في هذه الأمور كلها. لا أظن حتى أنني كنت موضوعًا لتفكيره في أوقات كثيرة، كثيرة بالقدر الذي كنت أتمناه.

لم يبق إلا سبب واحد أخجل من ذكره .. هل كان أبي يفعل ما كان يفعل من أجل الحب؟

إذن من أجل الحب!! لا أستبعد ذلك أبداً.

***

تسلقت حفرة الثلج وما إن دخلت الحقول حتى شعرت بلمسات الهواء تصافح وجهي. كانت الريح تضرب الثلج الساكن على مسارات الكلاب، وآثار أقدام الفئران، وذلك الخط الضئيل الذي صنعته زحلوفتا أبي وقد يكون آخر شيء تصنعانه.

عزيـزى آر. روبن – تـرى مـا آخـر شـىء يمـكن أن أقـوله لك فى الختام؟

إلى اللقاء وأتمنى لك حظًا سعيدًا.

أرسل لك حبى.

(مـاذا سيـحدث لو أن النـاس فعلـوا هـذا الذى فعلت – يرسـلون حبهم عبر البريد للتخلص منه؟) فى هذه الحالة ماذا سوف يرسلون؟ علبة شكولاته تتوسطها أشكال تشبه صفار بيض الديكة الرومية، كومة من الورود مطوية فى جريدة لا يريد أن يفتحها أحد.)

اعتن بنفسك.

تذكر – ملك فرنسا الحالى أصلع الرأس.

هوامش

(١) أحد فرسان المائدة المستديرة في أسطورة الملك أرثر وأحد الجالبين للكأس المقدسة، وهو ابن غير شرعي للسير لانسلوت وإلين كاربونيك ومشهور بالشجاعة والإقدام والطهارة (المترجم).

(٢) مذبحة تلال السرو التي جرت في عام ١٨٧٣ في منطقة تلال السرو في ساسكتشوان وتورط فيها صيادو الذئاب الأمريكيون (المترجم).

(٣) يقصد Monday يوم الاثنين (المترجم).

(٤) قصيدة لوليام بتلر بيتس تقول أبياتها:

خرجت قاصدا غابة البندق،
لأن نارا تتقد في رأسي،
قطعت عصا كبيرة وقشرتها
وعلقت عليها ثمرة توت في خيط
وعندما تجمعت الفراشات البيضاء في الجناح
وكانت النجوم شبه الفراشات تلمع في الفضاء،
ألقيت ثمرة التوت في جدول
وأمسكت بسمكة سلمون فضية صغيرة،
ووضعتها علي الأرض
وذهبت لأنفخ الريح في النار،
ولكن شيئا يحدث حفيفا
وناداني شخص باسمي:
لقد أصبحت بنتا متألقة
والتفاح يزدهر في شعرها

من الذي ناداني باسمي ومضي
وتلاشي خلال الهواء الساطع
وأمشي بجوار العشب الطويل المرقط
وأقطف حتي يمضي الوقت والأوقات
تفاحات القمر الفضية،
وتفاحات الشمس الذهبية.
رغم تقدم سني من كثرة التطواف
حول الأرض والتلال الخالية من البشر،
سأظل أبحث عنك حتي أجدك،
وأقبل وجهك واحتضن يديك. (المترجم).

(٥) فلم كتبه وانتجه إنجمار بجمان Ingmar Bergman عام ١٩٥٧ عن عجوز يتذكر ماضيه. قام بالتمثيل في هذا الفيلم بيبي آندرسن وماكس فون سايدو، وإنجرد ثولون وآخرون. فاز الفيلم بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين الدولي للسينما (المترجم).

(٦) الكاري أون carry on هي سلسلة طويلة من الأفلام الكوميدية البريطانية أخرجها جيرالد توماس وأنتجها بيتر روجرز بين عامي ١٩٥٨ و١٩٧٨. مارتن ولويس نسبة للمثلين دين مارتن وجيري توماس اللذين ألفا ثنائيا كوميديا في عام ١٩٤٤، قاما معا بتمثيل وإخراج العديد من الأفلام والمسلسلات الكوميدية (المترجم).

(٧) فيلم سويدي عرض عام ١٩٥٧ من إخراج إنجمار برجمان عن رحلة فارس من العصور الوسطي خلال أرض مصابة بالطاعون حاول فيها الموت استدعاءه والنيل منه. أما الاسم فيرجع لسطر ورد في سفر الرؤيا الإصحاح الثامن السطر الأول: ويقول: ولما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعة (المترجم).

نهر منستيونغ(۱)

I

•

أزهار سوسن ودموية،(۲)

ونعناع برى،

نجمع ملء الذراعين،

ونرجع جذلين.

تقدمات ذلك هو اسم الكتاب. كُتِبَ بحروف ذهبية على غلاف أزرق غامق. أسفل الحروف نُقِش الاسم الثلاثى لمؤلفته: ألميدا جويانت روث. كانت الجريدة المحلية " الفيديت" تنعتها بـ شاعرتنا. يبدو أن ثمة مزيجًا من الاحترام والازدراء لمهنتها وجنسها كليهما، أو لما يوحى به الاسم والمهنة من أزمة متوقعة. على غلاف الكتاب صورة فوتوغرافية، واسم المصور فى زاوية، وفى زاوية أخرى

التاريخ: ١٨٦٥. نشر الكتاب فيما بعد عام ١٨٧٣.

كانت الشاعرة ذات وجه أسيل، وأنف يميل إلى الطول، وعينين بارزتين حزينتين سوداوين، يخيل للناظر إليهما أنهما على وشك السقوط على خديها مثل دموع عملاقة. اجتمع بعض من شعرها الأسمر حول وجهها في ضفائر مرسلة، أو ستائر مسدلة، مع وجود خيط من شعر أشيب ظاهر للعيان رغم أنها بدت في تلك الصورة لم تتجاوز الخامسة والعشرين. ليست حسناء ولكنها من ذلك النوع من النساء الذى يعمر طويلا ولا يزداد مع الأيام سمنة. ترتدى فستاناً مزيناً بثنيات ضفيرية من شريط عريض مطرز بحاشية من قماش أبيض، أهداب أو عقد، يؤنس القبُة عند الرقبة. على رأسها قبعة مصنوعة، على ما يبدو، من القطيفة ذات اللون الغامق ليضاهى لون الفستان. القبعة عاطلة من الزينة، لا تبعث على الإعجاب، أشبه ببيريه ناعم الملمس مما يجعل الناظر يحس بمقاصد فنية، أو على الأقل غرابة حيية تشى بطبع حرون لهذه السيدة الشابة ذات الرقبة الطويلة ورأسها المائل إلى الأمام مما يدل على أنها كانت طويلة القامة ضامرة الجسم تعوزها البراعة. تبدو بدءاً من خصرها أشبه بشاب من طبقة النبلاء عاش فى قرن سابق، أو لعلها كانت الموضة.

جاء فى التصدير لكتابها: " فى عام ١٨٥٤ جاء أبى بنا – أمى وأختى كاثرين وأخى وليام وأنا – إلى براري كندا الغربية (كما كانت تسمى حينذاك). كان أبى يصنع عدة الحرب للخيل والإنسان. كانت هذه مهنته التى امتهنها، ولكنه كان رجلاً مثقفاً يحفظ عن ظهر

قلب صفحات من الكتاب المقدس، وصفحات من مسرحيات شكسبير، وكتب إدموند بيرك. استطاع أن يحقق نجاحًا اقتصاديًا بعد وقت قصير من هجرته إلى تلك البلاد الجديدة. أنشأ متجرًا كبيرًا لبيع السروج والمصنوعات الجلدية. وبعد عام شيد هذا المنزل المريح الذى فيه أقيم الآن ... وحدى. كنت فى الرابعة عشرة، أكبر إخوتى، عندما جئنا إلى هذه البلاد من كنغستون، تلك المدينة الجميلة التى لم أعد أرى شوارعها الأنيقة، بيد أنها لا تبرح الذاكرة. كانت أختى فى الحادية عشرة وأخى فى التاسعة. وفى الصيف الثالث من إقامتنا الجديدة مرض أخى وأختى فجأة بحمى كانت منتشرة، وقضيا نحبهما لا يفصلهما إلا أيام قلائل. أما أمى الغالية فلم تستعِد نشاطها وحيويتها بعد تلك الضربة القاصمة لأسرتنا. تدهورت صحتها ووافتها المنية هى الأخرى بعد ثلاث سنوات. أصبحت من ثم بمثابة ربة بيت بالنسبة لأبى، وكنت سعيدة أن أساعده فى بيته اثنى عشرة سنة حتى وافاه الأجل فجأة ذات صباح فى متجره.

منذ نعومة أظافرى وأنا متيمة بقرض الشعر. رحت أشغل نفسى، أو قل أسكِّن آلامى التى فاقت، على ما أظن، آلام البشر جميعًا، بمحاولات متعثرة فى نظمه. لم أوت براعة يدوية أستغلها فى أشغال الإبرة، وتلك المنتجات الرائعة من أعمال الزخرفة التى يراها المرء هذه الأيام، ذلك الفيض الوافر من سلال الفاكهة والخضراوات التى تزدان برسومات لصبية هولنديين صغار، أو عذارى متقلنسات

يقبضن على كؤوس ملأى بالماء، دليل آخر على أنها فوق طاقتى. ولذا فإنى أقدم، عوضاً عن ذلك، ثمار ساعات فراغى، هذه الأبيات، أو قل هذه الزهرات المتواضعات، أو هذه الأغنيات البسيطة، أو الدوبيتات، أو قل هذه التأملات."

ومن ضمن العناوين التى أعطتها لهذه القصائد: "أطفال فى لهوهم" و "سوق الغجر" و "زيارة لأسرتى" و "ملائكة من ثلج" و "قس عند مصب نهر منستيونغ" و "جولة فى الغابة القديمة" و "لحن الحديقة". وقصائد أخرى عن الطيور والزهور البرية، والعواصف الثلجية، وبعض الأشعار الهزلية عما يجول فى خاطر المرء وهو يستمع للمواعظ الكنسية.

"أطفال فى لهوهم": الكاتبة طفلة تلهو مع أخيها وأختها. من هذه الألعاب لعبة يتجاذب فيها الأطفال ويتوارون فى الأركان، ويحاول بعضهم الإمساك بالآخر. كانت تلعب فى ظلمة الشفق المتعاظمة حتى جاء يوم وأدركت أنها أكبر سناً من لداتها. لم تزل تسمع الأصوات الطيفية لأخيها وأختها وهما يناديان عليها: تعالى، هلمى، دع ميدا تأت. (ربما كانت الميدا تسمى ميدا بين أفراد الأسرة، ولعلها اختصرت اسمها ليوافق مقتضى القصيدة). "سوق الغجر": كان الغجر يقيمون معسكرهم على أبواب المدينة. سوق يبيعون فيه القماش وأشياء أخرى بسيطة. وكانت الكاتبة وهى طفلة تخشى أن يسرقها هؤلاء الغجر من أسرتها. ولكن الأمور جرت على النقيض، فقد سرقت أسرتها منها، سرقها غجر لا تعرف مكانهم ولا

كيف السبيل إلى مساومتهم.

"زيارة لأسرتى": وهى زيارة للمقابر، والقصيدة حديث إلى النفس.

"ملائكة من ثلج": كانت الكاتبة تُعلِم أخاها وأختها كيف يرسمون ملائكة بالرقود على الثلج وتحريك الأذرع لتطبع أشكالا على الثلج أشبه بالأجنحة. كان أخوها ينهض دائما دون أن يكترث تاركًا ملاكًا بجناح واحد. هل سيُمنح جناحه الناقص فى السماء؟ أم سيطير ببدائله؟

" قس عند مصب نهر منستيونغ": هذه القصيدة تنوه باعتقاد شعبى بعيد عن الصحة بأن المستكشف أبحر صوب الشاطئ الشرقى لبحيرة هورون، واستقر عند مصب النهر الكبير.

"جولة فى الغابة القديمة" : عبارة عن قائمة بكل أنواع الأشجار التى تم قطعها من الغابة الأصلية، أسمائها وصفاتها الشكلية واستخداماتها، مع وصف عام للدببة والذئاب والصقور والغزلان وطير الماء.

"لحن الحديقة": يبدو أنها دليل أو تكملة لقصيدة الغابة، وتحتوى على بيان بالنباتات التى جلُبت من الأقطار الأوربية مع شذرات من التاريخ والخرافات التى اتصلت بها، وما استنُبت منها من نباتات كندية فى النهاية.

القصائد مكتوبة فى رباعيات أو دوبيتات. وثمة محاولتان فى السونيتة. القافية بسيطة فى الغالب أ ب أ ب أو أ ب ج. تستخدم

القافية المذكرة أى التى تنتهى بمقطع منبور، وقليلاً ما تستخدم القافية المؤنثة أى التى تنتهى بمقطع غير منبور. ترى هل تستخدم هذه المصطلحات اليوم؟ لا وجود للشعر غير المقفى.

II

زهور بيضاء باردة كالثلج
تزدهر حيث يرقد "الملائكة".
هل يكتفين بالرقود تحت الثلج
أم يهمن فى ملكوت الله؟

فى عام ١٨٧٩ كانت ألميدا روث لم تزل تعيش فى المنزل الذى يقع على الناصية عند ملتقى شارعى دوفرين وبيرل، المنزل الذى شيده الأب لأسرته. لم يزل قائما هناك حتى اليوم، يعيش فيه الآن مدير متجر لبيع الخمور. والبيت مكسو من الخارج بألواح من الألومنتال، واستبْدل بالشرفة مدخل مسقوف، أما مخزن الخشب والسور والأبواب والمرحاض والزريبة فلم يعد لهم وجود. تظهر هذه الأشياء فى مكانها فى صورة ترجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر. يظهر البلى على البيت والسور حيث يبدو البيت كأنه فى حاجة إلى طلاء. أو لعل ذلك لشكل الصورة الباهت ذى اللون الضارب إلى السمرة. بدت النوافذ ذات الستائر المصنوعة من شرائط، أشبه بالعيون البيضاء. لا ترى العين أثرا لأشجار الظل. والواقع أن أشجار الدردار الطويلة التى كانت تغمر المدينة بالظلال حتى خمسينيات

القرن التاسع عشر، كأشجار الجميز التى تلقى الآن بظلالها القصيرة، أضحت أشجاراً صغيرة ضامرة ضُرب حولها سور لم يدفع عنها الأبقار المعتدية. وخارج ذلك الحاجز من الأشجار توجد أفنية خلفية وحبال غسيل وأكوام خشب ومساحات صغيرة من النخيل وحظائر ومراحيض، كلها مكشوفة عرضة للعوامل الجوية. قليلة هى البيوت التى تهتم بتنمية الزرع حولها. لا تجد إلا مساحات صغيرة من نبات موز الجنة وكثبان النمل والقاذورات المكومة، وبعضاً من نبات البطونيا الذى ينمو فى تجاويف جذوع الأشجار المقطوعة. الشارع الرئيس فقط هو المفروش بالحصباء، أما سائر الشوارع فليست إلا طرقات قذرة موحلة يعلوها التراب حسب الفصول. الأسوار ضربت حول الأفنية لتذود عنها الحيوانات المعتدية. أما الأبقار فقد شُد وثاقها بمعاقل فى أماكن خالية من العشب، أو تُركت لترعى فى الأفنية الخلفية، بينما تُركت الخنازير وكذلك الكلاب حرة مطلقة السراح تنام بكبرياء على الجسور الخشبية. لقد استقرت المدينة ولن تزول، بيد أنها لم تزل تأخذ طابع المخيم. ومثل المخيم أصبحت مشغولة طوال الوقت، تفيض بالناس الذين تراهم يمشون على أقدامهم أينما وجدتهم، مليئة بالحيوانات التى تترك مخلفاتها فى كل مكان؛ روث الخيل والأبقار وغائط الكلاب مما يدفع السيدات لرفع أرديتهن تجنبا للأذى. أصبحت المدينة تعج بالضوضاء التى تصدر من عمال البناء وسائقى العربات الذين يصيحون بجيادهم، والقطارات التى تأتى مرات عدة فى اليوم.

قرأت وصفًا لتلك الحياة فى جريدة " الفيديت" المحلية. كان الناس أصغر سنًا من اليوم، وربما مما سيكونون فى المستقبل. الذين تعدوا الخمسين لا يهاجرون إلى البلاد الجديدة. كانت القبور تضم عدداً قليلاً من الناس سيما من الشباب الذين لقوا حتفهم فى حوادث، أو من الأطفال الذين قضوا نحبهم بسبب الأمراض المعدية. يشكل الشباب أغلب سكان المدينة، وأما الأطفال والصبية فإنهم يجولون الأرجاء فى جماعات أشبه بالعصابات. الذهاب إلى المدرسة كان إجبارياً أربعة أشهر فى العام. توجد الكثير من الأعمال المؤقتة التى يستطيع الجميع القيام بها حتى الأطفال الذين تعدوا الثامنة أو التاسعة؛ جمع الكتان وربط الخيول وتوصيل البقالة إلى المنازل وتنظيف المعدّيات القائمة أمام المحال التجارية. وكثيراً ما يشغلون الوقت بحثا عن المغامرة. ذات يوم تبعوا سيدة ثملة تدعى كوين أجى. وضعوها على عربة يد وطافوا بها حول المدينة ثم ألقوا بها فى حفرة لإعادتها إلى وعيها. كانوا أيضًا يقضون جزءاً غير قليل من وقتهم حول محطة السكة الحديد، يقفزون فوق العربات الواقفة، ويندفعون بينها، ويراهنون على المخاطرة مما كان ينتهى بهم أحياناً إلى العجز أو الموت. كانوا يراقبون الغرباء القادمين إلى المدينة. يتبعونهم ويعرضون عليهم حمل حقائبهم وإرشادهم إلى الفندق لقاء خمس سنتات للحقيبة الواحدة. أما الذين لا يبدو عليهم يسر العيش فكانوا عرضة للمهانة والمضايقة، يحتشد حولهم الصبية مثل أسراب الذباب، ويمطرونهم بالأسئلة أينما ذهبوا. هل جاءوا للبدء فى

مشاريع جديدة؟ أم لإغراء الناس بالاستثمار فى مشاريع بعينها ؟ أم لبيع الأدوية أو تلك الصناعات الجديدة؟ أم للوعظ فى أركان المدينة ؟ كان ذلك يحدث طوال أيام الأسبوع. وتنصح الفيديت الناس أن يأخذوا حذرهم هذه الأيام من الانتهازيين والسراق والمومسات والمحتالين والباعة الجائلين والمحامين المشبوهين واللصوص الذين تقابلهم فى الطرقات ولاسيما عند السكة الحديد. كانت صفحاتها تتضمن إعلانات عن سرقات تمت، وأموال أُعطيت بقصد الاستثمار ولم ترجع لأصحابها، وبنطلونات سُرقت من فوق حبال الغسيل، وأكوام خشب نقصت، وبيض دجاج اختفى من حظائر دواجن. تكثر هذه الأفعال فى الطقس الحار.

الطقس الحار مجلبة للحوادث أيضًا. يزداد عدد الخيول الجامحة التى تقلب العربات وتهيج دون رادع. أيد تدهمها آلات الغسيل، ورجل يقطعه نصفين أحد ألواح الخشب سقط عليه فى مخزن الخشب. النوم العميق صعب المنال، الرضع يذبلون بسبب أمراض الصيف. وأصحاب الأجسام اللحيمة لا يقدرون على التقاط أنفاسهم. الموتى يدفنون على عجل. وذات يوم هام أحد الناس فى الشوارع وهو يضرب على جرس بقرة ويصيح : التوبة ! التوبة ! لم يكن من الغرباء هذه المرة، كان شابًا يعمل عند قصاب. أخذوه إلى منزله ولفوه فى قماش بارد مبتل وأعطوه بعض المهدئات، ومنعوه من الخروج، وصلوا من أجله، وعندما لم يبرأ وضعوه فى البيمارستان.

يقع منزل ألميدا روث على ناصية شارع دوفرين، وهو شارع

معروف محترم. فى هذا الشارع تقع بيوت التجار وبيت صاحب الطاحونة وبيت صاحب مصنع الملح. وأما شارع بيرل الذى تشرف عليه نوافذ بيتها وأبوابه الخلفية فحكاية أخرى. هناك تجاورها بيوت العمال، صف طويل من البيوت الصغيرة ولكن المحترمة. إلى الآن والأمور مقبولة. ولكن الأمور تسوء عند نهاية ذلك الصف من البيوت المتلاصقة، وتزداد سوءًا فى الصف الثانى. لا يسكن هناك غير الفقراء وسيئى السمعة. كانوا يعيشون هناك على حافة مستنقع يسمى مستنقع شارع بيرل، تم ردمه فى ذلك الوقت. هناك تنمو الأشجار الكثيفة والنباتات الضارة. هناك أقيمت الأكواخ المؤقتة. هناك أيضًا تجد أكوام القمامة والأنقاض وأعدادًا غفيرة من أطفال كالأقزام. هناك يدلق الناس الماء القذر أمام البيوت. أجبرت البلدية الناس على بناء المراحيض، ولكنهم ما لبثوا أن ذهبوا لقضاء حاجتهم فى الأدغال القريبة. فئات من الصبية يذهبون إلى هناك بحثًا عن مغامرة ويعودون بأكثر مما كانوا يرجون. ويقال إنه حتى مدير شرطة المدينة لم يكن يجرؤ على النزول إلى شارع بيرل فى ليلة الأحد. لم يحدث أن مشت ألميدا أمام تلك البيوت. فى أحد هذه البيوت تعيش الفتاة الشابة "آنى" التى تساعد ألميدا فى تنظيف المنزل. هذه الفتاة الصغيرة نفسها لم يحدث أن ذهبت إلى المستنقع. فالسيدة المهذبة لا يجب أن تذهب إلى هناك.

ولكن هذا المستنقع، وهو يقع إلى الشرق من منزل ألميدا روث، يعد منظرًا جميلا وقت الفجر. تنام ألميدا فى الجهة الخلفية من

البيت. لم تبرح حجرة نومها القديمة التى كانت تشارك فيها أختها كاثرين. لا تفكر فى الانتقال إلى حجرة النوم الأمامية الأوسع حيث كانت أمها تنام طيلة اليوم، وأصبحت فيما بعد مختلى أبيها حتى وفاته. من خلال أحد نوافذها كانت ترى الشمس مشرقة تغمر ضباب المستنقع الخفيف بالضياء الكثيف، وتتأمل الشجيرات القريبة تطفو أمام الضباب والأشجار الخلفية وهى ترتد شفافة بيضاء. فى المستنقع تنمو أشجار البلوط وأشجار الجميز والطمراق والجوز المر.

III

هنا حيث يلقى النهر البحر الداخل،
تنشر تنورتها الزرقاء من الخشب المهيب،
أفكر فى الطير والحيوان والذين ووروا التراب،
أطلالهم على الرمال الشاحبة لم تزل قائمة.

أحد الغرباء الذين وصلوا إلى محطة السكة الحديد منذ بضع سنوات كان جارفيز بولتر الذى يشغل المنزل المجاور لمنزل ألميدا روث – يفصله عنه قطعة أرض فضاء تطل على شارع دوفرين، اشتراها جارفيز فيما بعد. كان البيت أقل زخرفة من منزل روث، لا تحيط به أشجار الفاكهة أو الزهور. وذلك، كما كان الظن؛ لأن بولتر كان عزبًا ماتت عنه زوجته ويعيش بمفرده. فى وسعه أن يحفظ بيته نظيفًا ولكنه لا يهتم بزخرفته خاصة إذا كان هو نفسه حسن الهيئة متأنقًا

فى ملبسه. ولكن الزواج من شأنه أن يحمله على العناية بزخرفة البيت وبالجانب العاطفى من حياته كذلك، ويحميه أيضًا من شطط الغريزة ومن البخل والكسل والفساد والنوم الزائد وإدمان الشراب والتدخين وحتى من التجديف فى الدين.

فى الشأن الاقتصادى، يُظن أن وجيهًا جليلاً من مدينتنا يواظب على أخذ المياه من حنفية المدينة العامة، ويكمل مؤونته من الوقود بجمع الفحم السائب من فوق خط السكة الحديد. ترى هل ينوى دفع حق البلدية وهيئة السكة الحديد بكميات مجانية من الملح؟

كتبت ذلك "الفيديت،" جريا على عادتها فى الدعابة الحذرة والتعريض المستتر، أو حتى الاتهام الصريح، وعلى نحو لا تستطيعه جرائد اليوم دون الإفلات من عقوبة. إنهم يتعرضون لجارفيز بولتر بطبيعة الحال، بيد أنهم يتناولونه فى مواضع أخرى باحترام شديد بوصفه محاميًا مدنيًا، وصاحب عمل، وعضواً فى مجلس الكنيسة. رجل كتوم غريب الأطوار إلى حد ما. لعل ذلك بسبب حالة العزوبة التى يعيشها، فقد ماتت عنه زوجته ويعيش وحيداً الآن؛ حتى جلبه الماء من حنفية البلدة العامة و ملء جواله بالفحم السائب على قضبان السكة الحديد كان بسبب وحدته. ولكنه مواطن مهذب ثرى متقدم البطن قليلاً يرتدى بذلة غامقة وحذاءًا نظيفًا، تزين وجهه لحية غزيرة، ويشيع برأسه شعر أسود يشوبه خط أشيب نحيل وثؤلول شاحب ظاهر فى الشعر الكث وسط أحد حاجبيه، متجهم الوجه واثق النفس. يتحدث الناس عن زوجة شابة حسناء ماتت فى أثناء

ولادة طفلها، أو بسبب حادثة مأساوية كاندلاع حريق فى المنزل، أو حادثة قطار. ولا يوجد دليل على ذلك كله، إلا أنه كان سببًا فى إثارة محببة، كل ما قاله إن زوجته متوفاة.

جاء إلى هذا المكان بحثًا عن البترول. لقد تم حفر أول بئر بترول فى العالم فى مقاطعة لامبتون، جنوب هذه المدينة فى خمسينيات القرن التاسع عشر. وأثناء الحفر اكتشف جارفيز بولتر الملح وراح يعمل بجد ليستفيد أقصى درجات الاستفادة. فى إيابه من الكنيسة مع ألميدا روث كان يحكى لها عن آبار الملح التى يمتلكها. يقول إنها على مسافة اثنى عشر قدما تحت الأرض. "نقوم بضخ الماء الساخن إلى الملح كى يذوب، ثم نرفع المحلول الملحى إلى السطح ونصبه فى أوعية ضخمة على أجهزة تبخير مثبتة على نيران هادئة حتى يتبخر الماء ويترسب الملح الصافى النقى. إنها سلعة لا يستغنى عنها أحد."

"ملح الأرض" تقول ألميدا.

"نعم" يقول جارفيز وهو يقطب جبينه، قد يظن أنها تحط من قدره. ولكنها لا تقصد ذلك البتة. يحكى لها أيضًا عن المنافسين فى مدن أخرى من الذين حذوا حذوه، ويسعون لاحتكار السوق. ولحسن الحظ فإن آبارهم لم تُحفر بالعمق المطلوب، وحتى أجهزة التبخير لديهم لا تعمل بالطريقة الفاعلة. الأرض تحتضن الكثير من الملح فى باطنها، ولكن ليس من السهل استخراجه كما يظن بعض الناس.

تقول ألميدا: ألا يعنى أنه كان ثمة بحرٌ هائل فى باطن الأرض؟

ويقول جارفيز: "جائز جداً، جائز جداً." وراح يحكى لها عن مشاريعه الأخرى: مصنع طوب وفرن لحرق الحجر. ويشرح لها كيف أن هذه المشاريع تدر أرباحًا طائلة، وأين يوجد الطين الجيد. جارفيز يمتلك مزرعتين بهما مساحات من الأشجار الخشبية التى توفر الوقود لهذه المشاريع .

من بين الذين يتمشون قادمين من الكنيسة صباح أيام الآحاد المشمسة، رصدنا ثنائيًا: وجيه (ملحى) و سيدة (أديبة)، ربما تجاوزا سن الشباب الأول ودلفا الآن إلى مرحلة الكهولة. فهل لنا أن نحدس؟

مثل هذه القفشات تظهر فى جريدة "الفيديت" المحلية فى كل الأوقات.

هل يحدسون؟ وهل ينطوى مسلك جارفيز على تودد للسيدة؟

أليدا روث تمتلك مبلغًا قليلاً من المال ورثته عن أبيها، ولديها بيتها. ليست بالطاعنة فى السن، وفى وسعها أن تنجب طفلاً أو طفلين، وهى ربة بيت جيدة، ولها غرام بعمل الحلوى الجليدية، والتورتة المزخرفة. وهو غرام نشهده غالبًا عند الآنسات ذوات الخبرة. جمالها لا تشوبه شائبة، وهيئتها حسنة لا تتوافر للكثيرات ممن فى سنها من المتزوجات. فلم يرهق كاهلها تربية أولاد أو عناية بزوج. ولكن لماذا تجاهلت يفاعتها الأولى وضربت صفحًا عن الزواج فى بلد يستغرب فيه الناس امرأة دون شريك وأولاد. كانت فتاة تميل إلى التشاؤم. ربما كانت هذه هى المشكلة: موت أخيها وأختها ثم أمها التى فقدت عقلها قبل عام من وفاتها، وكانت تنام على سريرها

وتهذى بما لا تعرف. كل ذلك كان ثقيل الوطأة على نفسها، وتركها كياناً صعب العشرة. وهل كان غرامها بالقراءة وقرض الشعر إلا دليلاً على حاجتها وهى شابة، وليس عندما اكتهلت، إلى شيء تملأ به فراغها وتؤنس به وحدتها؟ لقد مضت خمس سنوات على نشر كتابها. وربما شجعها أبوها المتفاخر المولع بالكتب.

يعتقد الناس أن ألميدا روث تفكر فى جارفيز بولتر بعلاً لها، وأنها ستوافق إذا طلب يدها. هى تفكر فيه بالفعل، ولكنها لا تريد أن تشتط فى الآمال وتخدع نفسها. كانت تنتظر إشارة منه. فلو كان يذهب إلى الكنيسة فى ليالى الآحاد لكانت فرصة لمرافقته هذه المسافة إلى البيت تحت جنح الظلام. يحمل هو الفانوس (لم تكن الشوارع مضاءة فى ذلك الوقت) ليضيئ الطريق عند أقدام الآنسة ويلقى نظرة على قدميها الهزيلتين الرقيقتين. وقد يمسك يدها ليعينها على عبور المعدية الخشبية. ولكنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة ليلاً. و لم يكن يعرج عليها أو يصحبها إلى الكنيسة صباح الآحاد. فمن شان ذلك أن يكون إعلاناً. قد يسير معها وهى فى طريقها إلى البيت وعندما تصل إلى باب بيتها يرفع قبعته وينكفئ راجعاً. لا تدعوه للدخول، فسيدة تعيش وحدها لا يمكنها أن تفعل ذلك. فما يخلو رجل بامرأة، من أى سن، داخل جدران أربعة إلا والشيطان ثالثهما، يحدث المحظور: الاهتياج الفورى والهجوم العاطفى والشهوة الحيوانية والزنا وانتصار الحواس. ترى ما هى الشواهد التى يراها الرجال والنساء كل فى الآخر حتى يخشوا هذه المخاطر؟

عندما تمشى بجواره كانت تشم رائحة صابون الحلاقة والزيت الذى استخدمه الحلاق، ودخان غليونه ورائحة الصوف والكتان والجلد فى ملابسه الرجالية، الملابس المضبوطة المرتبة. كانت ملابسه ثقيلة أشبه بملابس أبيها التى كانت تنظفها بالفرشاة والنشادر. تاقت إلى المهنة (مهنة ترتيب ملابس الأب والعناية به) وتاقت إلى أبداء الاحترام للأب وسلطته الغامضة الحنون. إن ثياب جارفيز بولتر ورائحته وحركته تجعل الجانب المجاور له من جسدها يستشعر وخز الأمل، ويسبب لها رعشة تسرى فى جسدها وتستثير الشعيرات الخفيفة على ذراعيها. هل هو الحب؟ إنها تحلم به داخلاً حجرة نومها (أو حجرة نومهما) فى ملابسه الداخلية الطويلة وقبعته، إنها تعلم أن هذه الملابس مثيرة للسخرية، ولكنها فى الخيال لا تبدو كذلك، ويكون لديه جرأة رجل فى الحلم. يدخل حجرتها ويرقد على الفراش بجوارها ويهم بأخذها بين ذراعيه. يخلع قبعته بثقة، و تأخذها فى تلك اللحظة نوبة من الإذعان له والتوق الغامر، ويصبح زوجها.

شئ واحد لاحظته أمليدا على النسوة المتزوجات: كيف أن الكثيرات منهن يعمدن إلى رسم صورة ما لأزواجهن. يبدأن بأن ينسبن إليهم الأشياء المفضلة لديهم ثم الآراء والأساليب السلطوية. تقول الواحدة منهن مثلا: نعم، زوجى أنيق جداً ويدقق فى كل شئ. لا يلمس اللفت ولا يحب اللحم المقلى (أو يحب اللحم المقلى). يحبنى أن أرتدى الأحمر (أو اللبنى) طوال الوقت. لا يطيق صوت الأرغن،

ولا يحب أن يرى امرأة عارية الرأس. يقتلنى لو رآنى آخذ نفساً من سيجارة. بهذه الطريقة يتحول الرجال ضعاف الشخصية إلى أزواج، أصحاب بيوت. ألميدا روث لا تتخيل نفسها تفعل ذلك. تريد رجلاً لا يحتاج إلى من يصنعه من جديد، واثق من نفسه وصاحب رأى ومكتنف بالأسرار. إنها لا تبحث عن مجرد رفيق. الرجال فى رأيها - فيما عدا أباها - مفتقرون للحياة، غافلون. وترى أن هذه صفات لابد منها فى الرجال حتى يفعلوا ما يجب أن يفعلوا. فهل كانت - لو عرفت أن الأرض تختزن الملح فى باطنها - تسعى إلى استخراجه وبيعه؟ أبداً. كانت ستفكر فى البحر القديم. وهو نوع من التأمل لا يجد جارفيز بولتر وقتاً له بأى حال.

بدلاً من المرور عليها فى بيتها واصطحابها إلى الكنيسة قد يأتى جارفيز بولتر بمغامرة أوقع. يستأجر حصاناً ويأخذها خلفه فى نزهة ريفية، عندئذ ستكون سعيدة وحزينة فى الوقت نفسه. سعيدة لأنها بجواره، يأخذ بزمامها، وتلقى هذا الاهتمام منه أمام الناس جميعاً، وحزينة لأن الريف انتقل إليها. وصفه لها بحديثه واهتمامه. الريف الذى صورته فى قصائدها لا تريده أن يصدر من رؤيته ووصفه. بعض الأشياء تصرف عنها النظر: أكوام السماد ومساحات المستنقعات المليئة بجذوع الأشجار المحروقة، والأكوام الضخمة من الأغصان المقطوعة فى انتظار اليوم المناسب لإحراقها. النهيرات المتعرجة التى تم تقويمها وتحولت إلى قنوات صغيرة للرى بضفاف موحلة كئيبة. وأخرى ضربت حولها السياج ذات القضبان

المتشابكة. الأشجار أعيد غرسها فى المساحات المخصصة لزراعة الخشب، وأشجار الغابة كلها قصيرة جديدة. ولا يوجد على جوانب الطرق أو الحارات أو حول المزارع شىء خلا القليل من الغرس الحديث كثير الأغصان غض الأوراق. توجد أعداد كبيرة من مخازن الخشب - مخازن الخشب الكبرى التى ستغمر الريف خلال المائة السنة التالية كانت فى بداية الإنشاء. ومخازن الخشب ذات المنظر المزعج. وكل أربعة أو خمسة أميال توجد قرية صغيرة بها كنيسة ومدرسة ومتجر وورشة حدادة. ريف صرف منبت الصلة عن الغابة ولكنه عامر بالناس. كل مائة فدان مزرعة وكل مزرعة بها أسرة وكل أسرة بها عشرة أو اثنا عشر طفلاً. ذلك هو الريف الذى سيرسل بموجة بعد موجة من المستوطنين إلى المدينة، وبدأ يرسلهم فعلا إلى أونتيريو الشمالية والغرب. والحق أنك تستطيع أن تجمع الزهور البرية فى الربيع من مساحات الأشجار الخشبية، ولكن عليك أن تسير بين قطعان من الأبقار ذوات قرون طويلة لكى تصل إليها.

IV

لقد رحل الغجر.
أرض مخيمهم أصبحت خاوية.
فهل لى أن أساوم بجرأة الآن
فى سوق الغجر؟

تعانى ألميدا روث كثيراً من السهاد. وصف لها الطبيب دواء

البروميد وعلاجًا للأعصاب. ولكن قطرات البروميد توقظ أحلامها المزدحمة بالصور المزعجة. لذا ادخرت الزجاجة للطوارئ. قالت للطبيب إنها تحس بمقلتيها صلبتين كزجاج ساخن، وتحس بألم فى مفاصلها. قال لها: قللى من القراءة والدرس، علاجك هو الانغماس فى أعمال المنزل وممارسة بعض التمرينات الرياضية، إنه يعتقد أن مشاكلها ستزول إذا تزوجت، يعتقد ذلك رغم أن جل وصفاته لعلاج الأعصاب تذهب للمتزوجات، ، ولذا فإن ألميدا تعتنى ببيتها، وتساعد فى نظافة الكنيسة، وتمد يد العون لصديقاتها اللاتى يغطين جدران منازلهن بأوراق الحائط أو يستعددن للزواج، وتعد إحدى كعكاتها المشهورة لأطفال المدرسة فى نزهة الأحد، وفى يوم سبت حار من أيام أغسطس تقرر عمل حلوى العنب؛ عدة قوارير صغيرة من حلوى العنب تنفع هدايا قيمة فى عيد الميلاد، أو حتى إعانات للمرضى. ولكنها بدأت في وقت متأخر من النهار، والحلوى لا تنضج إذا حل الظلام. وضعت العصير الساخن فى كيس قماش الجبن لتصفيته، وتناولت ألميدا كاسًا من الشاى مع شريحة من الكعك بالزبد الذى كانت تحبه منذ الطفولة، وهو كل طعامها للعشاء. ثم تأخذ حمامًا سريعًا استعدادًا ليوم الأحد. تلف ملاءة حول خصرها وتترك النافذة مفتوحة وترقد على السرير دون أن تشعل المصباح. وتحس بتعب شديد. وتحس بنسيم خفيف يداعب الحجرة. وتحس بشجار خفيف.

ولم تلبث أن تستيقظ. وعندما تستيقظ تحس بالليل متقدًا بالحر منذرا بالخطر. وترقد من جديد وجسدها ينز عرقًا. تحس أن

الصخب الذى تسمعه يعمل فى جسدها عمل السكاكين والمناشير والفؤوس، كل تلك الأدوات تقطع وتحز وتثقب فى رأسها، ولكن الأمر لم يكن كذلك. عندما تكتمل يقظتها تبدأ فى التعرف على مصدر تلك الأصوات التى سمعتها أو التى كانت تسمعها، أصوات الشجار فى ليالى الأحد الصيفية فى شارع بيرل. عادة ما يصدر الصخب من قتال حقيقى بين السكارى. تسمع احتجاجًا وصياحًا. تسمع من يهتف: جريمة قتل! جريمة قتل! حدثت جريمة قتل ذات يوم. ولكنها لم تكن نتيجة شجار. عثر على جثة عجوز فى بيته أردى طعنًا. ربما كان السبب بضع دولارات كان يخفيها تحت المرتبة.

وتنهض من فراشها وتذهب إلى المطبخ. كانت سماء الليل صافية غاب عنها القمر وسطعت النجوم. بيغاسوس(٢) يطل برأسه على المستنقع. علمها أبوها كيف تحصى النجوم فى تلك المجموعة. وبشكل تلقائى راحت تحصيها. تستطيع أذناها الآن أن تميز بعض الأصوات: إضافات جديدة للمشاجرة. بعض الناس، مثلها، استيقظ من نومه. تسمع من يصرخ: "اخرس! كفوا عن هذا الشجار وإلا نزلت وأشبعتكم ضربًا على مؤخراتكم يا أولاد الـ .... ". ولكن أحدًا لم يتوقف. وكأن كرة من النار تتدحرج فى شارع بيرل تقذف الشرر فى طريقها، النار هى الجلبة والصراخ والضحك والسباب، والشرر هو الأصوات التى تنطلق نشازًا. صوتان يتميزان عن باقى الأصوات حتى الآن ويصدران صياحًا أشبه بالنباح، وينخفض شيئًا فشيئًا ويتحول إلى ارتعاش متواصل، ثم تيار من السباب يحمل كل الألفاظ

التى تربط ألميدا بينها وبين الخطر والحرمان والرائحة الكريهة والمناظر المقززة. شخص ما ينهالون عليه ضربًا وهو يصيح: "اقتلونى! اقتلونى الآن!" إنهم يضربون امرأة وهى تصرخ: "اقتلنى! اقتلنى!" ويظهر جانب من فمها مترعًا بالدم رغم ما فى صوتها من نبرة استخفاف وانتصار. شىء من التصنع فى صوتها. الناس حولهم ينادون: "كفى! كفى!" ومنهم من يصيح: "اقتلها! اقتلها!" يصيحون فى جنون وكأنهم على خشبة مسرح، أو يشاهدون مباراة مصارعة أو ملاكمة محترفين. أجل، تقول ألميدا فى سرها، رأيت ذلك من قبل. لعلها تمثيلية، أو لون كئيب من محاكاة ساخرة مبالغ فيها. وكأن ما يفعله هؤلاء القوم، حتى جرائم القتل، لا يؤمنون به، ولا يستطيعون وقفه فى الوقت نفسه.

الآن تسمع صوت شئ يُلقى على الأرض، مقعد أو لوح خشبى أو صوت كومة من الخشب أو جزء من سور ينهار وكم آخر من الأصوات مباغتة جديدة. صوت جرىء، أناس يفرون من الطريق، أصبح الهرج قاب قوسين أو أدنى. هذه هى المرأة. كانت تمسك بشىء مثل عصا خشبية أو لوح من الخشب. وتديرها وتدفعها نحو شخص آخر لامرئى يجرى خلفها. وتهتف الأصوات: "آه، أسرع، الحق بها! الحق بها واضربها يا رجل!" أناس يقعون على الأرض الآن. شخص يمسك بتلابيب الآخر، ثم يتباعدان ويسقطان على سور ألميدا. يصبح الصوت الذى يأتى منها غامضًا مشوشًا كأنه يصدر من فم مكعوم، ثم صوت تقيؤ ونخير وضرب شديد، يتبع ذلك صوت

طويل مرتجف مذبذب، صوت ألم مخنوق ونفس مذلولة، أو روح مغادرة.

تركت آلميدا النافذة وجلست على سريرها. تقدح زناد فكرها. أليست هذه الأصوات التي سمعتها جريمة قتل؟ ماذا يجرى؟ ماذا يجب أن تفعل؟ يجب أن تشعل مصباحًا. يجب أن تترك الدرج وتشعل مصباحًا، لابد أن تخرج إلى الفناء، الفانوس، تلقى بجسدها على الفراش. تضع وسادة على وجهها فى لحظات، الدرج، المصباح، ترى نفسها هناك، فى الصالة الخلفية، تحكم رتاج الباب الخلفى، تصبح فريسة لنوم لا يقاوم.

وتستيقظ مروعة مع أول أضواء الصباح. ترى غرابًا كبيرًا يجثم على عتبة نافذتها يتحدث فى نبرة مستنكرة وبطريقة غير مستغربة، عن أحداث الليلة المنصرمة. يقول لها مؤنبًا: "استيقظى وحركى عربة اليد." وتفهم أنه يقصد شيئًا آخر بعربة اليد. شيئًا بغيضًا مجلبة لكرب عظيم. وتستيقظ بالفعل وتعلم أنه لا وجود للطائر. وتنهض على الفور، وتنظر من النافذة ، وتلاحظ شيئًا يستند إلى سور بيتها. شخصًا ضخمًا. جثة.

عربة يد

وتضع مئزرها فوق قميص النوم وتنزل الدرج. الحجرات الأمامية لم تزل مظلمة. الستارة مسدلة فى المطبخ. شئ ما يتحرك محدثًا صوتًا كصوت شئ يغوص فى الماء على مهل، يذكرها بحديث

الغراب. إنه عصير العنب يصفَّى أثناء الليل. تسحب المزلاج، وتخرج من الباب الخلفى، العناكب نسجت شباكها على المداخل فى جنح الظلام، الزهور تخفض رؤوسها مثقلة بالندى، وبجوار السور تغرق فى زهور الخطمى المتشابكة وتنظر تحت رجليها وترى.

جثة امرأة مكومة هناك، نائمة على جنبها ووجهها منكفئ على الأرض. لا تستطيع ألميدا أن ترى وجهها، ولكن هناك ثديين عاريين متدليين، وحلمة سمراء مشدودة مثل حلمة بقرة، وساقًا عارية وردفًا به أثر كدمة فى حجم قرص دوار الشمس. أما الجلد الذى خلا من آثار الكدمات فلونه ضارب إلى الرمادى، أشبه بلون نقارة الطبل. ترتدى ثياب نوم، أو ثيابًا لكل الأغراض و تفوح منها رائحة قىء وبول وشراب.

وتعدو ألميدا فى قميص نومها ومئزرها الرقيق. تجتاز الفيراندا وأشجار التفاح، وتفتح الباب الأمامى وتسرع خلال شارع دوفرين إلى منزل جارفيز بولتر، أقرب المنازل إليها، وتضرب الباب بكف يدها عدة مرات.

وعندما يظهر جارفيز فى النهاية تقول له:

– جثة سيدة.

كان فى بنطلونه الداكن المشدود بحمالتين، وقميصه المزرر نصفه، ووجهه غير الحليق وشعره المنكوش.

– سيد بولتر، سامحنى!! هناك جثة سيدة أمام بوابتى الخلفية.

ويرمقها بنظرة عنيفة وهو يقول:

- ميتة؟

أنفاسه رطبة. وجهه متجعد. عيناه محتقنتان بالدم. وتجيب ألميدا:

- نعم. أظن أنها ماتت مقتولة.

تلمح جزءًا من الصالة الأمامية الكئيبة. قبعته معلقة على مقعد. ثم تضيف وهى تجتهد لتجعل صوتها خفيضًا مفهومًا:

- استيقظت فى الليل على أصوات لغط وجلبة فى شارع بيرل. سمعت اثنين. رجلاً وسيدة يتشاجران.

ويلتقط قبعته ويضعها على رأسه، ويغلق الباب الأمامى، ويضع المفتاح فى جيبه، ويسيران على المشى الخشبى وتلاحظ أنها حافية القدمين. وينتابها إحساس بأن هناك من سيلقى عليها ببعض المسؤولية. كان يمكن أن تخرج بفانوس، كان يمكن أن تصرخ، ولكن من كان فى حاجة إلى مزيد من الصراخ؟ كان يمكن أن تضرب الرجل على رأسه. كان يمكن أن تسرع فى طلب النجدة، ساعتها وليس الآن. ويتجهان إلى شارع بيرل بدلاً من دخول فناء روث. كانت الجثة بطبيعة الحال منكفئة على وجهها شبه عارية كما رأتها فى البداية.

جارفيز بولتر لا يسرع ولا يتردد، يتجه إلى الجثة مباشرة، ويمعن فيها النظر، ويمس الساق بمقدم حذائه مثلما تمس كلبًا أو خنزيراً. يكزها مرة أخرى وهو ينادى فى جرأة ودون أن يرفع صوته: أنت.

وألميدا تحس بطعم الصفراء فى أسفل حلقها.

"حية!" يقول جارفيز بولتر. وتؤكد المرأة استنتاجه. إنها تتحرك حركة خفيفة. ويصدر منها شخير واهن.

تقول ألميدا: سأحضر الطبيب. ولو أنها لمست المرأة، لو أنها وجدت الجرأة على لمسها، لما قالت ذلك.

قال جارفيز بولتر: انتظرى، لنرى إذا ما كان يمكن أن تنهض. وهتف بالمرأة: قومى الآن، هلمى! انهضى الآن!

ويحدث شيء مذهل. الجثة تقوم على أربع. ترفع الرأس أولا. الشعر كله ملطخ بالدم والقيء، وتبدأ المرأة فى ضرب رأسها بعنف على أوتاد سور ألميدا، ويخرج صوتها أثناء ذلك، ويصدر منها صراخ ملء الفم مثل العواء. صراخ قوى يشى بشيء من بهجة مكروبة.

ويقول جارفيز بولتر: "أبعد ما تكون عن الموت. لا تحتاج حتى إلى طبيب."

وتقول ألميدا حين رفعت المرأة رأسها الملطخ:

– يوجد دم!

ويقول :

– الدم من فمها وليس جديداً.

ويقترب منها ويمسك شعرها البشع الغريب، ويجذبها بقوة ليمنعها من ضرب نفسها فى الجدار وهو يقول :

– كفى عن هذا الآن، كفى. اذهبى لبيتك. اذهبى لبيتك الآن! من أين أنت؟

ويتوقف الصوت القادم من فم المرأة. ويهز رأسها برفق محذراً إياها قبل أن يترك شعرها.

- اذهبى إلى بيتك الآن!

وبعد أن يتركها تندفع المرأة إلى الأمام بشدة، وتنهض على قدميها، وتشير وتترنح وتتعثر فى مشيها فى الشارع، وتصدر منها أصوات احتجاج متقطعة حذرة. ويتبعها جارفيز بولتر بنظراته برهة ليتأكد من أنها فى طريقها إلى بيتها. ثم يجد ورقة أرقطيون يمسح بها يده ويقول :

- ها هى جثتك تسير على قدمين!

كان الباب الخلفى مغلقًا. اتجه إلى الباب الأمامى الذى يظل مفتوحًا. ما زالت ألميدا تحس بالتعب. بطنها منتفخ وحرارتها مرتفعة وتحس بدوخة.

تقو ل بصوت ضعيف:

- الباب الأمامى مغلق، لقد خرجت من المطبخ.

لو تركها الآن لشأنها لذهبت إلى الحمام مباشرة، ولكنه يتبعها حتى الباب الخلفى والصالة. يتحدث إليها بلهجة قاسية لم تعرفها منه من قبل. يقول:

- لم يكن هناك دا ع لكل هذا القلق. هذه المرأة كانت ثملة. سيدة بنت ناس لا ينبغى أن تعيش بمفردها وسط جيران كهؤلاء. ويمسك بذراعها فوق المرفق بقليل. ولا تستطيع أن تفتح فمها لتكلمه، لتشكره. فلو فتحت فمها لتقيأت.

ما يحس به جارفيز بولتر نحو ألميدا فى تلك اللحظة هو ما لم يحس به فى السابق خلال التمشيات الحذرة وخلال جميع حساباته في عزلته. قيمتها التى لا خلاف عليها، و جدارتها بالاحترام لا شك فيها، وجمالها مقبول. لم يتخيلها زوجة من قبل كما يتخيلها الآن. أثاره شعرها المرسل الذى شاب قبل الأوان، ولكنه كثيف ناعم على أية حال. وجهها مخضب بحمرة خجل غامضة. ثيابها الخفيفة التى لم يكن ينبغى أن يراها بها أحد غير زوجها. طيشها و تسرعها وطيبتها ... وحاجتها ؟ يقول لها: - سأزورك فيما بعد. سأذهب معك إلى الكنيسة.

عند ملتقى شارع بيرل بدوفرين صباح الأحد الفائت عثرت سيدة من سكان الحى على جثة امرأة من قاطنى شارع بيرل ظنت أنها ميتة. ولم تكن، كما تبين فيما بعد، إلا ثملة. ولم تستيقظ من نعيمها - أو قل سباتها - إلا بجهد السيد بولتر الحثيث وهو من قاطنى الشارع، ومحام مدنى معروف كانت السيدة قد استدعته. ذلك النوع من الحوادث غير اللائق والمزعج والشائن لمدينتنا أصبح فى الآونة الأخيرة كثير الوقوع.

V

أجلس فى أعماق النوم،
وكأنى فى قعر البحر.
وأناس من سكان القاع

تحييني بكرم زائد.

وما ذهب جارفيز بولتر وسمعت باب بيتها الأمامي يوصد حتى اندفعت ألميدا إلى الحمام. ولكنها لم ترتح تماماً، وتدرك أن تراكم دم الحيض الذى لم يبدأ فى التدفق هو السبب فى انتفاخ بطنها والألم الذى تحس به. وتغلق الباب الخلفى بالقفل. ثم، وهى تتذكر كلمات جارفيز بولتر عن الذهاب إلى الكنيسة، تترك له ورقة كتبت عليها: لست على ما يرام، وأرغب فى الراحة اليوم. وتثبت الورقة فى الإطار الخارجى للنافذة الصغيرة للباب الأمامى. وتغلق الباب بالقفل أيضاً. إنها ترتعش وكأنها تعانى من صدمة عصبية أو خطر داهم. ولكنها تشعل النار لتصنع لنفسها كوباً من الشاى. تغلى الماء وتضع أوراق الشاى فى الإبريق الكبير. بخار الشاى ورائحته يزيدان مرضها. وتصب كوباً من الشاى الباهت لتشربه دون أن ترفع ستارة المطبخ. هناك على الأرض كان كيس الجبن ما زال معلقاً بين ظهرى المقعدين، وعصير العنب قد صبغ القماش المنتفخ بلون الورد الداكن. ألقت به فى الحوض. لا تستطيع أن تجلس وتنتظر شيئاً كهذا. وتشرب كأسها. وتضع البراد وزجاجة الدواء فى حجرة السفرة.

ولم تزل هناك حتى سمعت وقع حوافر الخيل الذاهبة إلى الكنيسة مثيرة سحابات من التراب تسخن تراب الطريق فيصبح مثل تراب البراكين. وهى فى الفيراندا يتناهى إلى مسمعيها صوت الباب يُفتح ووقع خطوات واثقة لرجل. كأنها تسمع الورقة وهو ينزعها من النافذة، ويفردها ويقرؤها. وكأنها تسمع رنين الكلمات فى عقله. ثم

تأخذ الخطوات طريقا آخر. ينزل الدرج ويغلق الباب. تقفز إلى ذهنها صورة الضريح. تجعلها تضحك. أضرحة تسير فى الشارع بأقدام تنتعل الأحذية، وأجساد طويلة تميل إلى الأمام. على سحنهم القاسية علامات استغراق. أجراس الكنيسة تقرع.

الساعة فى الصالة تدق معلنة الثانية عشرة. مضت ساعة. المنزل يتقد بالحر. تشرب كوبًا آخر من الشاى تضيف إليه قطرات من الدواء. تعرف أن الدواء يؤثر على قوتها. إنه المسؤول عن كسلها الغريب، ولكنه ضرورى.

أشياؤها التى تحيط بها، فى حجرة المائدة فقط، جدران مغطاة بورق حائط أخضر غامق مزين بأكاليل الزهور، ستائر منقوشة بخطوط ملونة، ومائدة عليها مفرش من الكروشيه، وسلطانية تمتلئ بالفاكهة الشمعية، وسجادة رمادية ضاربة إلى اللون القرمزى عليها نقوش باقات من زهور زرقاء وقرنفلية غامقة، وخوان مبسوط عليه أغطية مزخرفة وأطباق وأباريق، وأكواب شاى عليها زخارف شتى. أشياء كثيرة تراها. كل هذه الزخارف تبدو زاخرة بالحياة، على أهبة التحرك والتدفق والتغير، أو ربما الانفجار. كل شغل ألميدا الشاغل طوال اليوم هو أن تتأمل هذه الزخارف. لا لكى تمنع تغيرها بقدر ما كانت ترصده وتفهمه وتكون جزءًا منه. لا تحرك شيئًا مما فى هذه الحجرة.

وبالطبع لا طاقة لألميدا على الهرب من الكلمات، ربما تظن أنها تستطيع أحيانًا، ولكن هذا لا يحدث. ذلك التوقد لا يلبث أن يدفع

بالكلمات فى ذهنها للخروج. قصائد. أجل، مرة أخرى قصائد تتضاءل أمامها جميع القصائد التى كتبتها فى السابق. تصبح مجرد محاولة وخطأ، أسماءً بالية. النجوم والطيور والأشجار والملائكة على الثلج والأطفال الذين ماتوا فى الغسق. كل هذا لا داعى لوصفه مرة أخرى. عليك الآن بالصخب الفاحش فى شارع بيرل، ومقدم الحذاء اللامع الذى يرتديه جارفيز بولتر، وردف المرأة الأملس بالكدمات عليه أشبه بزهور زرقاء غامقة. المبدأ الآن على مبعدة من العواطف الإنسانية أو المخاوف أو اعتبارات الأسرة الحميمة. لا تفكر فيما يمكن عمله لتلك المرأة، أو فى حفظ عشاء جارفيز بولتر ساخنًا، أو نشر ملابسه على حبل الغسيل. فاض عصير العنب وجرى على أرض المطبخ يلطخ الألواح الخشبية ببقع لن تزول.

عليها أن تفكر فى عدة أمور فى وقت واحد: الشرائط المعدنية التى تفصل بين النقوش، الهنود العرايا، والملح فى أعماق الأرض، والمال الذى يجلبه الملح، والسعى لجمع المال الذى تتقنه رؤوس مثل رأس جارفيز بولتر، والعواصف القاسية فى الشتاء، والأفعال الخرقاء فى شارع بيرل. وعندما تفكر فى تقلبات الطقس العنيفة فلا سلام حتى بين النجوم. يمكن احتمال كل هذه الأشياء إذا نظمناها فى قصيدة. ونظمناها هى الكلمة المناسبة. لأن القصيدة سيكون عنوانها، أو هو عنوانها فى الواقع : " منستيونغ ". اسم القصيدة هو اسم النهر. كلا، إنها النهر نفسه: " المنستيونغ ". ذلك هو اسم

القصيدة، بكل حفره العميقة وأحواضه الهادئة تحت أشجار الصيف البهيجة وكتل الثلج المطروحة عقب الشتاء، تحدث صريراً أثناء الحركة، وفيضاناته الربيعية الكئيبة. ألميدا تمعن النظر فى قاع نهر عقلها. وعلى مفرش المائدة زهور الكروشيه الطافية، تبدو ناتئة بلهاء، تبعث على الضحك. الورود التى نسجتها أمها يوماً لا تبدو مثل الورود الحقيقية. ولكن الجمال كامن فى الجهد المبذول، واستقلالها الزائف، والرضا بنفوسها البسيطة. علامة مفعمة بالأمل. منســـتيونـــغ.

وتلزم ألميدا الحجرة حتى الغسق عندما تذهب إلى الحمام وتكتشف أنها تنزف. الدم بدأ يتدفق. تناولت فوطة وشدتها حول بطنها كنطاق. لم يحدث من قبل، أيام صحتها، أن قضت الليل فى ثياب النوم. لا تحس بقلق خاص بسبب ذلك. فى طريقها إلى المطبخ عبر عصير العنب المسكوب تعرف أنه سيكون عليها أن تزيل البقع. ولكن ليس بعد. ترتقى الدرج إلى الطابق الثانى مخلفة آثار أقدام وردية. تشم رائحة دمها الهارب وعرق جسدها الذى مكث طوال النهار فى الحجرة المغلقة المتقدة.

لا داعى للقلق.

لأنها لم تظن أن الزهور المنسوجة يمكن أن تطفو بعيداً، وأن شواهد الأضرحة يمكن أن تسير فى الشوارع. لم تحسب أن ذلك كان الحقيقة، وأن أى شئ آخر كان المجاز، وبذلك كانت تعرف سلامة عقلها.

VI

أحلم بكم كلما أقبل الليل،
وأزوركم حين يأتى النهار.
أبى، أمى،
أخى، أختى،
لم لا تجيبون ندائى ؟

٢٢ أبريل ١٩٠٣. فى مسكنها يوم الثلاثاء الفائت بين الثالثة والرابعة بعد الظهر رحلت عن دنيانا سيدة ذات موهبة، وخلق حسن. أثرى قلمها فى الأيام الخوالى أدبنا المحلى بسفر من الشعر البليغ العذب. وإنها لبلية كبيرة أن يصبح عقل هذه السيدة المهذبة موضع ريبة فى السنوات الأخيرة، وسلوكها، نتيجة لذلك مندفعًا خارجًا عن المألوف حتى نال من مسلكها وعنايتها بتهذيب شخصها فأصبحت فى نظر الغافلين الذين لا يعرفون قيمتها وأناقتها السابقة، غريبة الأطوار، أو موضع سخرية على نحو محزن. ولكن هذه الهنات قد نسيت الآن ولا يذكر لها غير شعرها الممتاز وخدماتها الماضية فى مدرسة الأحد، واهتماماتها الخيرية وعقيدتها الدينية الراسخة. كان مرضها الأخير قصير المدى من رحمة الله. أصيبت بالبرد بعد أن غمرها الماء أثناء جولة فى شارع بيرل. (قيل إن بعض الصبية الأشرار طاردوها فى المياه، وهذه نتيجة وقاحة وقسوة بعض شبابنا

الصغار، واضطهادهم المتعمد لتلك السيدة لدرجة أن السامع لا يمكن أن يكذب الحكاية برمتها) وتطور البرد إلى التهاب فى الرئة توفيت على أثره تحت سمع وبصر إحدى جاراتها المسز بيرت (آنى) فرايلز التى شهدت نهايتها الهادئة المحزنة.

يناير ١٩٠٤. أحد مؤسسى مجتمعنا، أحد صناع مدينتنا وباعثى نهضتها، رحل فجأة عن دنيانا صباح الاثنين الفائت بينما كان منكبًا على قراءة بريده فى مكتبه بالشركة. السيد جارفيز بولتر الذى كان يتمتع بموهبة تجارية قوية ونشاط ملحوظ مما مكنه من إنشاء عدة مشاريع تجارية محلية جلبت فوائد الصناعة والإنتاجية والتوظيف لمدينتنا.

بحثت عن ألميدا روث فى المقابر. وجدت الضريح الخاص بالأسرة. لم يكن هناك غير اسم واحد مكتوب عليه روث. ثم تنبهت إلى وجود شاهدين على الأرض، على مسافة بضعة أقدام أو ستة أقدام من الشاهد القائم كتب على أحدهما كلمة "بابا" وعلى الآخر كلمة "ماما". وعلى مبعدة من هذين الشاهدين وجدت شاهدين آخرين على الأرض أيضًا. عليهما أسماء وليام وكاثرين، وكان علىَّ أن أزيح ما تراكم عليهما من حشائش نامية وقذارة لأرى الاسم الكامل لكاثرين. لا وجود لتواريخ ميلاد أو وفاة. لا وجود لعبارات ثناء أو رثاء. لون فريد من إحياء الذكرى لا يأبه بهذا العالم. لا وجود لورود ولا وجود حتى لعلامات على شجيرات ورود ربما اقتلعت، اقتلعها

الحارس لأنه لا يحب هذه الأشياء، أو مصدر ضيق قاطع العشب، لم يجد من يعترضه فاقتلعها.

اعتقدت أن ألميدا دفنت في مكان آخر، عندما تم شراء هذه البقعة، عند موت الطفلين، كان يُعتقد أنها سوف تعيش وتتزوج وترقد فى النهاية بجوار زوجها. لم يعملوا حسابها فى مكان بينهم. ثم لاحظت أن الشواهد التى كانت ملقاة على الأرض إنما سقطت من الشاهد القائم. شاهدان للأبوين وشاهدان للصبيين، ولكن الشاهدين الآخرين وضعا بطريقة تسمح لثالث بينهما لتكملة المروحة. خطوت من شاهد كاثرين عدد الخطوات نفسه حتى أصل من كاثرين إلى وليام. وعند تلك البقعة رحت أجذب العشب وأزيل القذارة بيدى العاريتين. وما مضت برهة حتى أحسست بالشاهد وأدركت أنى كنت على حق. اجتهدت فى الوصول إلى الشاهد كله نظيفا وقرأت الاسم: "ميدا". كان مع الآخرين يتطلع إلى السماء. تأكدت من وصولى إلى نهاية الحجر. كان ذلك كل ما كتبته من الاسم ؛ ميدا. إذن كان اسمها ميدا فى الأسرة، وليس فى القصيدة فقط. أو لعلها اختارت اسمها من القصيدة ليكتب على ضريحها.

كنت أظن أن أحداً لا يعلم ذلك غيرى من بين الأحياء جميعًا، وأن أحداً لن يستطيع الوصول لهذا التسلسل فى الأحداث. ولكن الأمر ليس كذلك. فالناس مجبولون على حب المعرفة، أو قل فئة منهم. سيجدون الدوافع دائما لاكتشاف الأشياء، حتى الأشياء التافهة، سوف يضعون الشىء جنب الشىء، ويعرفون أنهم ربما أخطئوا فى

البداية، ألا تراهم يتجولون وهم يحملون كراسات ويزيلون الأتربة من فوق الأضرحة، و يقرعون الأفلام، لا هم لـهم غير وضوح الرؤية، والعثور على الأسباب، وإنقاذ شيء، ولو شيء واحد فحسب، من أنقاض الذكرى.

هوامش

(١) نشرت ترجمتي لهذه القصة في كتاب «ربما في حلب ذات يوم وقصص أخري» الصادر ضمن المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٤ والطبعة الثانية ضمن سلسلة الأدب بمكتبة الأسرة ٢٠٠٦، والطبعة الثالثة من المركز القومي للترجمة عام ٢٠٠٩ ندرجها هنا لتعيين القارئ علي الإحاطة بفن مونرو القصصي (المترجم).

(٢) نبات امريكي من الفصيلة الخشخاشية (المترجم).

(٣) مجموعة النجوم في السماء الشمالية سميت باسم الحصان المجنح في الأساطير الإغريقية، وقد أحصي عالم الفلك بطليموس الذي عاش في القرن الأول الميلادي مايقرب من ٤٨ مجموعة من النجوم، ولاتزال مجموعة «بيغاسوس» إحدي المجموعات الثمانية والثمانين التي يعرفها العصر الراهن (المترجم).

العاشق المسافر

رسائل

جلست لويزا فى مطعم الفندق تقرأ الرسالة التى تسلمتها اليوم. تناولت وجبتها المعتادة من البطاطس واللحم المفروم وشربت كأساً من البيرة. خلت الحجرة إلا من عدد قليل من المسافرين وطبيب الأسنان الذى كان يتناول عشاءه هناك كل ليلة لأنه كان يعيش دون زوجته التى رحلت منذ زمن. فى البداية أبدى اهتمامه بلويزا ولكنه أخبرها – دون تهيب – بأنه لم ير فى حياته امرأة تحتسى الخمر أو حتى تقترب من المشروبات الكحولية!! ولكنها قالت له بنبرة جادة:

– إنها تفيدنى صحياً.

كأن مفارش الموائد كانت تجد من يجددها كل أسبوع، ومن يغطيها بقطع المشمع المثقوب من أجل حمايتها. فى الشتاء كنت تشم

رائحة تلك القطع تفوح من حجرة الطعام، وكنت تشم رائحة دخان فحم أتٍ من الفرن، ورائحة شحم، وبطاطس مجففة وبصل ... رائحة تستثير الجائع القادم وقد نال منه برد الشتاء. على كل مائدة ترى حمالة صغيرة وُضعت عليها زجاجة تمتلئ حتى حافتها بمرق، وأخرى بصلصة طماطم، وإلى جوارها قارورة مملوءة حتى آخرها بالفلفل الحار.

كان العنوان التالى مكتوبًا على الرسالة:

أمينة مكتبة كارستيرز العامة، كارستيرز، أونتيريو، ٤ يناير ١٩١٧.

* قد تستغربين لهذه الرسالة من شخص لا تعرفينه، ولا يتذكر حتى اسمك. آمل أن تكونى أنت أمينة المكتبة نفسها التى أقصد، آمل ألا تكونى قد انتقلت إلى مكان آخر رغم السنين التى مضت.

لم يكن ما انتهى بى إلى هذا المستشفى شىء كبير؛ لقيت ما هو أسوأ منه بكثير ونسيته الآن. إنى أسأل نفسى دائمًا هل ما زلتِ تعملين فى تلك المكتبة؟ فإذا كنت أنت التى أعنى فأنت متوسطة الحجم تقريبًا وشعرك يميل إلى اللون البنى، جئت إلى هذه المكتبة قبل أن ألتحق بالجيش بأشهر قليلة، حللت محل الآنسة تامبلن التى كانت هناك حين كنت أتردد على المكتبة وأنا بعد لم أتجاوز التاسعة أو العاشرة. فى عهدها كانت الكتب مبعثرة فى كل ركن، وكانت سيدة عنيفة الطبع حادة المزاج، لم أكن أجرؤ على أن أطلب منها أية مساعدة. وعندما جئت أنت حدث تغيير كبير فى نظام المكتبة،

انتظمت الكتب على الأرفف وقمت بتصنيفها تحت عناوين معروفة: الأدب القصصى وغير القصصى، وكتب التاريخ وأدب الرحلات، وقمت بترتيب المجلات حسب موضوعاتها، بمجرد أن تصل المجلة تضعينها مع أخواتها حسب موضوعها ولا تتركينها على مكتبك حتى يصبح موضوعها قديمًا. كنت أشعر بالامتنان لك ولكنى لم أكن أعرف كيف أعبر لك عن ذلك الامتنان. كنت أيضًا أسأل نفسى مستغربًا ما الذى جاء بك إلى هذا المكان وأنت فتاة متعلمة وحاصلة على شهادة جامعية حسبما أظن.

اسمى جاك آغنيو، تجدين بطاقتى فى الدرج. كان آخر كتاب استعرته رائعًا - كتاب البشرية فى طور التكوين للكاتب هـ. ج. ولز. درست حتى الصف الثانى الثانوى، ذهبت بعد ذلك للعمل فى مصنع دودز كما كان يفعل الكثيرون. كما ترين لم أكمل دراستى عندما بلغت الثامنة عشرة؛ أنا شخص أقدس وجهات نظرى. قريبى الوحيد فى كارستيرز، أو أى مكان آخر، هو أبى باتريك أغنيو. يعمل عند دودز؛ لا يعمل فى المصنع، بل يعمل فى دارهم: يهتم بأمر الحديقة، إنه يحب الوحدة، والذهاب أحيانًا إلى الصيد فى الريف كلما وجد الفرصة. أكتب له رسالة أحيانًا، وأشك فى أنه يقرؤها.

بعد العشاء صعدت لويزا إلى حجرة السيدات فى الطابق الثانى وجلست إلى المكتب لكى تكتب الرد.

كم كانت سعادتى كبيرة وأنا أقرأ عن امتنانك لما كنت أقوم به فى المكتبة رغم أنه لم يكن إلا جزءًا من عملى العادى ولم يكن شيئًا

استثنائيًا. إننى متأكدة من أنك ترغب فى أن تسمع أخبار الوطن هنا، ولكن للأسف لن تجد منى العون على ذلك؛ فكونى غريبة هنا لا يتيح لى سوى التحدث مع رواد المكتبة أو الفندق. أما رواد الفندق من المسافرين فلا يتحدثون إلا عن أحوال التجارة (طبعًا من النادر أن يجدوا بضائع) وأحيانًا عن المرض، ولا يملون من الحديث فى الحرب.

الشائعات تتلوها الشائعات والآراء تجر المناقشات، آراء تجعلك تغرب فى الضحك إن لم تحزنك. لم أهتم بالكتابة عنها خصوصًا وأنا أعرف أن هناك رقيبًا يقرأ الرسائل وسيمزق رسالتى بعد أن يفرغ من قراءتها.

سألتنى عن سبب مجيئى إلى هذه المكتبة. القصة ليست غاية فى الغرابة. كان أبى يعمل فى قسم الأثاث فى محلات إيتون وبعد وفاته استمرت أمى تعمل فى قسم الكتان وعملت فى المكتبة لفترة قصيرة. لعلك تقول فى نفسك إن محلات إيتون تقابل محلات دودز بالنسبة لكم أنتم. تخرجت فى كلية جارفين. أصبت بمرض أدخلنى المستشفى وقضيت فيها زمنًا ليس بالقصير. وجدت الكثير من الوقت الذى أخصصه للقراءة، أفضل قراءة توماس هاردى الذى يتهمه الناس بالتشاؤم فى حين أراه يصور الحياة تصويرًا صادقًا- وأحب قراءة ويلا كاثر. وفاة أمينة المكتبة السابقة هو الذى جعل هذه الوظيفة من نصيبى، وأعتقد أنها وظيفة تناسب طبيعتى تمامًا.

●

أجمل شىء اليوم هو وصول خطابك، فقد أوشكت على الانتهاء من الخدمة هنا وكنت أود أن أعرف هل وصلتكِ رسالتى أم لا. سعدت جداً لأنك لم تستهينى برسالتى. إذا قابلت أبى أو أى أحد مصادفة فأنت لست مضطرة إلى أن تخبريه أننا نتراسل. الأمر لا يهم أحداً خصوصاً وأنا أعرف أن بعضهم يمكن أن يضحك لأننى أراسل أمينة المكتبة، لماذا نمنحهم الفرصة؟ إنهم يضحكون حتى من مجرد الذهاب إلى المكتبة. أنا سعيد أيضاً لأن خدمتى انتهت فى هذا المكان، أسعد بكثير من أناس عادوا بدون أقدامهم، أو فقدوا عيونهم، أو أصابهم عجز يجعلهم يتوارون عن الناس.

سألتنى عن محل سكنى فى كارستيرز. ليس مكاناً أفخر به على أية حال. فإذا كنت تعرفين أين يقع تل الخل اتجهى يميناً إلى طريق الزهور فهو آخر بيت على اليمين، قمنا بطلائه مرة واحدة فى حياتنا كلها باللون الأصفر. أبى يزرع البطاطس، أو كان يزرع البطاطس. كنت أملأ عربة بالبطاطس وأجول بها أنحاء المدينة وأرجع بخمسة سنتات كل مرة.

ذكرت فى خطابك أسماء كتاب تفضلين قراءة أعمالهم. كنت فى وقت من الأوقات مغرماً بقراءة كتب "زين غراى،" ولكننى تحولت من قراءة الروايات إلى قراءة كتب التاريخ أو أدب الرحلات. أقرأ أحياناً كتباً فوق مستواى الفكرى ولكننى أخرج بشىء من تلك القراءات. هـ. ج. ولز الذى ذكرته واحد من هؤلاء وروبرت إنغرسن الذى يكتب عن الدين. لقد أثاروا لدى قضايا كثيرة بدأت أفكر فيها. فإذا كنت من

المتدينين أرجو ألا أكون قد أسأت إليك.

ذات يوم عندما وصلت إلى المكتبة كان يوم السبت ظهراً وكنت أنت قد أغلقت الباب وأضأت النور فالظلام كان دامسًا والمطر كان غزيراً. لقد خرجت دون قبعة أو مظلة فابتل شعرك. أخرجت منه الدبابيس وأرسلته على ظهرك. هل أكون قد تجاوزت حدودى إذا سألت عما آل إليه شعرك. هل قصرتِه أم ما زال على حاله؟ أذكر أنك وقفت أمام آلة التهوية فهرب الماء منه كما تهرب الدهون من طاسة قلى تعرضت للنار. وكنت أنا أنهمك فى قراءة جريدة أخبار لندن التى تعج بأخبار الحرب المزودة بالصور. تبادلنا الابتسام. (لم أكن أعنى أن شعرك كان يعلوه الشحم عندما قلت ما قلت.)

●

لم أقص شعرى رغم أننى فكرت فى ذلك كثيراً. لا أدرى ما الذى منعنى من ذلك؟ أهو الكسل أم الإعجاب به؟

لست متدينة إلى الحد الذى تظن.

تمشيت حتى تل الخل ورأيت بيتكم. البطاطس تبدو ناضجة هناك. رآنى كلب بوليسى واحتدم، هل هو كلبكم؟

الجو يزداد دفئًا، والماء فى النهر يفيض كعادته فى الربيع من كل عام. سرى الماء إلى أسفل الفندق وأفسد علينا شرابنا فأعطونا زجاجة بيرة مجانية وقارورة بها زنجبيل. وذلك للمقيمين فحسب. هل تأمرنى بشىء أرسله لك؟

●

لا أحتاج إلى شيء محدد، السجائر موجودة، ولا أحتاج إلا إلى أشياء أخرى بسيطة تتكفل بها السيدات هنا فى "كارستيرز." أتمنى أن أجد الوقت لقراءة كتب المؤلفين الذين ذكرتهم فى رسالتك ولكنى أشك فى ذلك.

أول أمس سقط رجل ميتًا من أزمة قلبية ألمت به، أضحى خبر الصباح والمساء. لم نسمع غير سؤال واحد طوال الوقت: هل سمعت عن الرجل الذى مات بأزمة قلبية؟ ثم يضحك الناس جميعًا، ومن رحم المأساة تولد الغرابة أحيانًا. لم يكن الوقت وقت غارة جوية مثلاً حتى نقول إنه قضى ذعرًا. (على فكرة كان يكتب رسالة حين فاجأته الأزمة ولذا على أن أحترس الآن وأنا أكتب لك هذه الرسالة.) لقد مات كثيرون قبله وبعده، ماتوا بالرصاص أو بانفجار قنبلة، ولكنه كان أشهرهم لأنه مات بأزمة قلبية. يقولون.

●

* حرارة الصيف هذا العام شديدة، عربات الرش تجوب الشوارع كل يوم لكى تثبت الأتربة، يطاردها الأطفال وهم يقفزون ويغنون. أما الشيء الجديد الذى ظهر فهو عربة الأيسكريم التى يدفعها صاحبها ويجوب بها شوارع المدينة وينبه إليها الناس بجرس علقه فى مقدمتها. افتتن الأطفال بها أيضًا. يدفعها الرجل الذى أصيب فى حادث المصنع – أنت تعرف من أقصد .. لا أريد أن أذكر اسمه هنا: الرجل الذى فقد ذراعه حتى المرفق. حجرتى فى الفندق مثل الفرن؛ لأنها فى الدور الثالث. أتمشى أحيانًا حتى يأتى منتصف

الليل. كذلك يفعل الكثيرون مثلى .. يمشون أحيانًا بالبيجامات. الوقت يمر مثل حلم ثقيل. المياه فى النهر قليلة.. ولكنها تكفى للخروج فى جولة خلوية. حتى القس الميثودى فعلها فى يوم أحد من شهر أغسطس .. كان يصلى فى قداس عام صلاة استسقاء، ولكن القارب الذى كان يحمله عبر النهر كان به خرق فتسربت إليه المياه وابتلت قدماه وفى النهاية غاص القارب فى الماء وترك القس واقفًا فى النهر والماء لم يكد يصل إلى خصره. هل كانت تلك حادثة، أم هى خدعة ماكرة من قبل القس؟ سرت الشائعات بأن الله استجاب لصلوات القس لكن فى الاتجاه المعاكس. أتمشى بعض الأحيان وأمر على منزل دودز. أرى أباك يرعى الأشجار والنجيل باهتمام شديد مما جعلها تبدو فى أوج جمالها. المنزل جميل، يبدو شامخًا وبديعًا، ويبدو أن البرد لم يصل إليه لأنى سمعت صوت الأم وفتاة صغيرة فى ساعة متأخرة من الليل وكأنهما كانا يتمشيان فى الحديقة.

●

* قلت لك فى السابق إننى لا أحتاج شيئًا وأرانى الآن أطلب منك طلبًا غريبًا. أريد صورة فوتوغرافية لك. آمل ألا تظنين أننى تخطيت حدودى بطلبى هذا، فقد تكونين مخطوبة لشاب أو أن لك عاشقًا تكتبين له كما تكتبين لى. أنت فتاة بديعة ولا أستغرب أن يطلب يدك واحد من الموظفين الكثيرين حولك. أما الآن وقد تورطت فى الطلب فلا ينفع أن أسحب طلبى، أترك الأمر كله بين يديك.

كانت لويزا فى الخامسة والعشرين من عمرها. لها تجربة حب

مع طبيب كان يعالجها فى المستشفى. أسفرت التجربة عن فقدان الطبيب لوظيفته فى النهاية. الشك يقض مضجعها: هل استغنت المستشفى عن الطبيب أم هو الذى غادر المستشفى ضنًا بنفسه أن يتورط فى العلاقة معها خصوصًا أنه كان متزوجًا ويعول؟ الرسائل لعبت دورًا أيضًا فى هذه التجربة. حتى بعد أن غادر المستشفى كانا يتراسلان. تراسلا مرة أو مرتين بعد أن غادرت المستشفى ثم طلبت منه ألا يراسلها مرة أخرى، ولم يفعل. ولكن عندما لم تصل رسائله آثرت السفر إلى تورنتو تجوب الشوارع وتنزل فى الفنادق الرخيصة. وعندما عادت يوم السبت أو قل يوم الجمعة ليلاً كتبت له رسالة رزينة وحازمة والإحساس يراودها بأنها واحدة من بطلات الحب فى قصص التراجيديا. لم يبرحها ذلك الإحساس وهى تجر حقائبها عبر سلالم الفنادق الرخيصة وتتحدث عن الموضة الباريسية وتقول إن لديها مجموعة من القبعات النادرة وترشف من كأس وحيد من الخمر. لو كان لها صاحب تخبره لأخبرته – رغم أن الفكرة لم ترق لها – أن الحب عبث وخداع وأن هذه قناعتها. ولكنها كانت تحس بأن المستقبل ربما يأتى بلمسة حانية، أو رعشة تدغدغ حواسها المرهفة، أو انحناءة ذليل، أو سجدة ولهان.

عرجت إلى محل مصور ليأخذ لها صورة فوتوغرافية. استعدت لها الاستعداد المطلوب. تمنت لو ارتدت بلوزة بسيطة بيضاء، وثوبًا فضفاضًا كالذى ترتديه فتيات الأرياف وينتهى عند الرقبة بخيط يتركونه دون إغلاق فتشع منه فتنة العنق. ولكن لم تكن تملك مثل

هذه البلوزة؛ بل إنها لم تر مثلها إلا فى الصور. وكانت تراودها رغبة فى إرسال شعرها حراً على ظهرها. وحتى لو اضطرت إلى جمعه فوق الرأس فهى تفضل أن تجمعه فى كومة هشة لا تكاد تحكمها خيوط اللؤلؤ التى ربطتها.

ارتدت بدلاً من ذلك بلوزتها الحريرية الأشبه بقميص رجل، وربطت شعرها كما اعتادت أن تربطه. ظنت أن الصورة قد أظهرتها فتاة شاحبة غائرة العينين. مالت سحنتها للعبوس والتجهم أكثر مما كانت تريد. ورغم ذلك أرسلت الصورة مصحوبة بتلك العبارات:

لستُ مخطوبة، وليس لى خليل. تورطت مرة فى علاقة حميمة لم تدم طويلاً وافترقنا. كانت التجربة سبباً فى أزمة عميقة تجاوزتها. الآن أظن أننى لم أخسر شيئًا.

راحت تعصر ذهنها لكى تتذكره. لم تتذكر أنها كانت تهز شعرها كما قال لها، ولم تتذكر أنها كانت تبتسم لأى شاب عندما كانت قطرات الندى تسقط على "ريداتير" سيارتها كما زعم. لابد أنه كان يحلم بكل ذلك، وربما حلم به فعلاً.

بدأت تراقب أخبار الحرب باهتمام أكبر مما كانت تفعل فى الماضى. قررت ألا تتجاهلها مرة أخرى. عبرت الشارع وهى تحس أن رأسها قد امتلأ بكم من المعلومات المثيرة والمربكة شأنها شأن الناس جميعًا فى ذلك الوقت. معارك كوينتن وآراس ومونتديبه وإيميانز ومعركة جارية أحداثها على ضفاف نهر سوم حيث لا تشك أن معركة مثلها جرت هناك؟ على مكتبها بسطت خرائط الحرب

المنشورة على صفحات المجلات. رأت على خطوط تلك الخرائط الملونة زحف الألمان إلى مارن، والهجوم الأمريكى الأول على قلعة ثيرى. ألقت نظرة على صورة بنية لفنان يرسم حصانًا يثب أثناء هجوم جوى، وعلى بعض جنود أفريقيا الشرقية وهم يشربون رحيق جوز الهند، وعلى طابور من الأسرى الألمان وعلى رؤوسهم وأطرافهم ضمادات، يبدو الحزن على وجوههم وسيما الغضب على سحنهم. هى الآن تحس بما يحس به كل شخص - خوف مستقر وشك ثابت واستفزاز مستمر. تجاوز لحظة حياتك الراهنة وأنت ترى العالم يتحطم من حولك من وراء الجدران.

كانت سعادتى بالغة حين عرفت أنك لا ترتبطين بحبيب أو عاشق رغم أنانيتى التى قد تستشفينها من موقفى هذا. لا أظن أننا سوف نلتقى مرة أخرى. لا أقول ذلك لأنى حلمت بما سوف يحدث، أو لأننى شخص مجبول على الكآبة ولا يتطلع إلا إلى أسوأ الأمور. أقول ذلك لأنى أشعر أن هذا ما سوف يحدث فى الغالب، رغم أنى أتجاهل هذا الشعور وأبذل الجهد كى أبقى حياتى على ما يرام. لا أقول ذلك أيضًا لأنى أريد أن أورثك همًا أو أن أستجلب منك عطفًا؛ ولكنى أقول ذلك لأن إحساسى بأنى لن أرى مدينة "كارستير" مرة أخرى يجعلنى أريد أن أتحدث عن أى شىء. هى حالة أشبه بمرض الحمى. ولذا دعينى أجازف وأقول إنى أحبك. أتخيلك الآن تنهضين على مقعد فى المكتبة لتضعى كتابًا على رف وأنا مقدم إليك وأحتوى جسدك بيدى فتستديرين بين ذراعى كأننا اتفقنا على كل شىء.

كانت سيدات الصليب الأحمر وفتياته يلتقين كل ثلاثاء بعد الظهر في حجرات الاجتماعات التي كانت تقع في ردهة طويلة على مقربة من المكتبة. وعندما تخلو المكتبة من روادها لحظات قلائل كانت لويزا تنزل إلى الردهة وتدخل الحجرة التي كانت تمتلئ بالنساء. قررت أن تصنع وشاحًا. تعلمت في المستشفى كيف تضع الغرز الأساسية، ولكنها لم تتعلم شيئًا، أو ربما نسيت كيف تكمل.

النسوة مشغولات بملء صناديق، أو بقص وطي ضمادات من أقمشة ثقيلة قطنية كانت منشورة على المناضد. ولكن عددًا كبيرًا من الفتيات قرب الباب كن يلتهمن كعك الشعر ويحتسين الشاي. كانت واحدة تمسك بلفة من خيوط الصوف بين ذراعيها لفتاة أخرى لكي تتمكن من غزلها.

أخبرتهم لويزا بما كانت تريد معرفته. قالت لها إحدى الفتيات وكانت لا تزال تحتفظ بلفة من الصوف في فمها:

– ما الذي تريدين غزله؟

قالت لها لويزا:

– قناع لجندي.

– أنت تحتاجين الصوف المخصص للزي الرسمي إذن.

وقفزت الفتاة التي ردت عليها بنبرة أكثر أدبًا، من فوق المائدة، وعادت إليها ببعض كرات من الصوف البني، وبحثت عن إبرتين في حقيبتها، وأعطتهما للويزا وقالت لها إنها يمكن أن تعدهما ملكها، بل وقالت لها:

– سأساعدك على تخطى مرحلة البداية .. المقاسات حسب الزى الرسمى متشابهة تقريباً.

اجتمع حولها بنات أخريات، ورحن يضايقن هذه الفتاة التى كان اسمها "غورى". قالوا لها إن كل ما تفعله خطأ فى خطأ." قالت غورى:

– صح، صح. ما رأيكن هل أدخل الإبرة فى عيونكن؟

ثم تحولت إلى لويزا قائلة:

– هل تصنعينه لصديق؟ صديق يعيش فيما وراء البحار.

قالت لويزا:

– نعم.

كانوا يظنونها العانس التى فاتها قطار الزواج، يضحكن تارة، ويشفقن تارة، حسبما يظهر على وجوههن من علامات الهزل أو علامات العطف. قالت الفتاة التى كانت تأكل كعك الشعر:

– إذن أحسنى الفتق والرتق. أحسنى الخياطة حتى تحميه من البرد!

كانت إحدى الفتيات فى هذه المجموعة اسمها "غريس" هورن. لم تقل شيئًا. كانت خجولاً ولكن نظراتها حاسمة، فى التاسعة عشرة، بوجه عريض، وشفتين نحيفتين مضمومتين، وشعر بنى مقصوص فوق الجبين، وجسد ناضج جذاب. كانت مخطوبة لجاك أغنيو قبل أن يذهب إلى ما وراء البحار، ولكنهما اتفقا على ألا يخبرا أحداً عن هذا الموضوع.

نجحت لويزا في صنع صداقات مع بعض المسافرين الذين كانوا يقيمون في الفندق أياماً كثيرة. أحد الذين وطدت معهم الصداقة كان اسمه "جيم فراري." كان "جيم فراري" يبيع آلات كاتبة ومعدات مكاتب وكتبًا وكل أنواع الأدوات القرطاسية. كان شعره مرسلاً ومنكباه مستديرين وبنيته قوية، رجلاً في منتصف الأربعينيات، تظن حين تنظر إليه أنه كان يبيع أشياء أثقل وأهم كآلات زراعية مثلاً.

سافر جيم فراري كثيراً أثناء الوباء المعروف بالإنفلونزا الإسبانية، فهل كانت المحلات التجارية مفتوحة؟ تبيع وتشتري؟ كانت مغلقة! وكانت المدارس ودور السينما مغلقة أيضًا. بل إن الكنائس كانت مغلقة وهو ما اعتبره فراري يرقى إلى مستوى الفضيحة. قال للويزا:

– يحق لهم أن يخجلوا من أنفسهم.. جبناء. وماذا لو أصابنا المرض ونحن نحوم حول بيوتنا؟ أظن أنك لم تغلقي المكتبة؟ هل أغلقتها؟

قالت لويزا إنها لم تكن تغلق المكتبة إلا عندما تكون مريضة فعلاً. وعندما يكون المرض خفيفًا لا يستمر أسبوعًا في العادة. ولكنها كانت تضطر إلى الذهاب إلى المستشفى. لم يكونوا يسمحون لها بالبقاء في الفندق. قال لها:

– جبناء. عندما يجيء الموت لا يستطيع له أحد رداً. أليس كذلك؟

تطرق الحديث عن الزحام في المستشفيات وموت المرضات

والأطباء، ومشهد الجنازات المهيب الذى لا ينقطع. كان جيم فرارى يعيش فى شارع تقع فيه مؤسسة تتكفل بتجهيز الموتى فى تورنتو. قال إنهم لا يزالون يستخدمون الخيول السوداء والعربات السوداء وجميع التجهيزات القديمة وما يلزم من ضجيج وحزن مصطنع.

– كانت الجنائز تُشيع ليل نهار. ليل نهار.

ثم وهو يرفع نظارته من فوق عينيه:

– أنت نفسك تبدين فى صحة جيدة.

كان يظن أن لويزا تبدو فى صحة أفضل من المعتاد. ربما لأنها بدأت تضع "الروج" على وجهها. كانت بشرتها شاحبة زيتونية اللون، وكانت وجنتاها تبدوان فى عينيه بلا لون. كانت ترتدى ملابسها على عجل دائمًا، وتبذل الجهد الجهيد لكسب صداقة رجل أو امرأة. مزاج متقلب تغيره حسب إرادتها. الآن هى تحتسى الويسكى، رغم أنها لم تكن فى السابق تحتسيه دون أن تغمسه فى الماء. وكانت لا تشرب أكثر من قدح واحدة فى المرة الواحدة. وهو يتساءل الآن هل صادفت عشيقًا غيّر من طبعها. ولكن أقصى ما يمكن للعشيق أن يفعله هو أن يرفع من روحها المعنوية دون أن يغير من خياراتها فى الحياة مرة واحدة، وهو ما يعتقد أنه حدث لها. لقد مرت لحظات العمر وتضاءل مع الأيام طموح الحصول على زوج خاصة فى زمن الحرب مما يورث الاضطراب والهم لأى امرأة. كانت أكثر ذكاءً وأكثر جاذبية وأجمل وجهًا أيضًا من أغلب المتزوجات. ماذا حدث لامرأة مثلها؟ أحيانًا هو الحظ العاثر. أو لعله التقدير السيئ. رحم الله أيامًا

كان القدر القليل من الحدة والثقة بالنفس يطيح بعقول رجال. قال لها:

- لا تقف الحياة عند نقطة فجأة ودون سابق إنذار، لقد قمت بالعمل الصحيح حين تركت المكتبة مفتوحة.

كان ذلك فى أول شتاء ١٩١٩، بداية اجتياح وباء الأنفلونزا بعد أن ظن الناس أن الخطر قد زال. بدا أنهما الوحيدان فى الفندق. كان الوقت الساعة التاسعة بالتمام ولكن مدير الفندق ذهب إلى فراشه. كانت زوجته فى المستشفى تعالج من الأنفلونزا. أحضر جيم فرارى زجاجة الويسكى من البار، كانت مغلقة خوفًا من العدوى - جلسا إلى مائدة بجوار النافذة، فى حجرة السفرة. تجمعت قطع من ضباب الشتاء فى الخارج وراحت تزحف ناحية النافذة. لا تكاد ترى أنوار الشوارع وأضواء السيارات القليلة التى كانت تتدحرج بحرص فوق الجسر. قالت لويزا:

- لم يكن الموضوع موضوع مبدأ حين أبقيت المكتبة مفتوحة. الموضوع كان شخصيًا أكثر مما تظن.

ثم ضحكت وقالت له إنها ستحكى له قصة مثيرة. ثم أردفت:

- لا بد أن الويسكى قد ترك لسانى على راحته.

فرد فرارى:

- لست مغرمًا بالنميمة.

فحصته بنظرة قاسية وهى تضحك أيضًا، وقالت له إن الناس عندما يقولون إنهم لا يحبون النميمة فإنهم ينمون. لا تصدق من يقول

لك إنه لن يخبر أحداً بشىء أبداً.

ثم قالت:

- تعرف ذلك منهم حين تريد وفى المكان الذى تريده بمجرد أن تمتنع عن ذكر الأسماء الحقيقية.

ثم أردفت:

- أملى ألا أفعل ذلك، رغم أنى لا أهتم الآن. وربما يراودنى عمل العكس بعد أن يزول أثر الويسكى. هذه قصة تصلح درساً نتعلم منه كيف تورط النساء أنفسهن فى أشياء غبية ويضحك عليهن الناس. قصة طريفة يمكنك أن تتعلم منها كل يوم درساً جديداً.

وشرعت تحكى له عن جندى كان يرسل لها رسائل من وراء البحار. عرفها حين كان يرتاد المكتبة، ولكنها لم تتذكره. ولكنها راحت ترد على رسائله بطريقة مؤدبة، ردت على أول رسالة وصلت إليها، ثم استمرت بينهما المراسلات. أخبرها أين كان يعيش حين كان فى المدينة، واستطلعت المكان لترسل إليه عن حاله الآن. حكى لها عن الكتب التى قرأها، وحكت له عن الكتب التى قرأتها. باختصار أفضى كل منهما للآخر بما فى نفسه، وتأجج بينهما شىء، فى البداية من جانبه، كما صرح فيما بعد. لم تكن من النوع الذى يندفع عند أول إشارة أو إيماءة حال الساذج المخدوع. ظنت فى البداية أنها تريد أن تبدو لطيفة وكفى. وحتى فيما بعد لم تكن تريد أن ترفضه أو تحرجه. طلب منها صورة فحققت له مطلبه؛ أعطته الصورة التى يريدها رغم أنها لم تكن هى الصورة التى كانت

تريدها، ولكنها أرسلتها له. سألها هل كان لها عشيق أو حبيب فأجابته بصدق بأن ليس لها عشيق أو حبيب. لم يرسل لها صوراً له، ولم تطلب هى صورة له، رغم الفضول الذى استولى عليها فى أن تعرف كيف تكون هيئته. على أية حال التقاط الصور فى ميدان الحرب ليس بالأمر الهين بالنسبة له. بالإضافة إلى ذلك لم تكن تريد أن تصبح مثل هؤلاء النساء اللاتى ينسحبن من أول نظرة حين لا تعجبهن الهيئة.

كتب يقول لها إنه لا يتوقع أن يعود. قال إنه لم يكن خائفًا من الموت خوفه من أن ينتهى به الأمر كحال ذلك الرجل الذى رآه يرقد فى المستشفى يغالب آلام الجراح. لم يخبرها بتفاصيل تلك الجراح، ولكنها كانت تعرف الحالات التى رأتها فى المستشفيات. رجال قُطعت أطرافهم، وآخرون فقدوا عيونهم، وآخرون تحولوا إلى مخلوقات أشبه بالشياطين أو الأشباح بعد الحرق. لم يكن يبكى خوفًا من مصير مجهول. ولم تكن هى تعنى ذلك. كان يتوقع الموت، واختار الموت من بين خيارات أخرى كثيرة أشد قتامة، فكر فى ذلك كله، وكتب إليها كما يفعل الرجل مع من يحب فى مواقف كتلك.

وعندما انتهت الحرب، مرت فترة قبل أن يرسل شيئًا. راحت تتوقع رسالة فى كل يوم .. ولم يأت شىء. لم يأت شىء. خشيت أن يكون من أولئك الجنود ذوى الحظ العاثر، ممن قتلوا فى الأسبوع الأخير قبل وقف النار، أو اليوم الأخير، أو حتى الساعة الأخيرة. بحثت فى الجرائد المحلية التى تظهر كل أسبوع؛ أسماء الإصابات

الجديدة لا تزال هى هى حتى حل العام الجديد. بدأت المجلات تدرج أسماء العائدين إلى أوطانهم بالصور والأسماء وعبارات الإطراء. إضافات لم تكن تفسح لها المجلة مكانًا حين كان الجنود يعودون من ميدان القتال مثخنين بالجراح والأتربة. ثم رأت اسمه على قائمة. لم يُقتل ولم يُجرح. عاد إلى كارستيرز، بل خمنت أنه كان هناك بالفعل.

فى ذلك الوقت تركت المكتبة مفتوحة، رغم وباء الأنفلونزا الذى كان يشتد وطأة. كانت تجزم كل يوم بأنه سوف يأتى، وكانت تستعد لهذا اللقاء كل يوم. كانت أيام الآحاد فترات عذاب بالنسبة لها. تدخل صالة المكتبة الرئيسة فيراودها إحساس بأنه هناك ربما جاء قبلها وينتظرها، يتكئ على جدار ينتظر قدومها. تملكها ذلك الإحساس بقوة لدرجة أنها كانت تتخيل ظل رجل يشبهه. فهمت الآن كيف يرى الناس أشباحًا حقيقية. كلما فُتح الباب كانت تتوقع أن تتطلع إلى وجهه. تتعهد أحيانًا بينها وبين نفسها ألا تنظر إلى هناك حتى تكمل عد العشرة. رواد المكتبة قليلون بسبب الوباء. ابتدعت عملاً تعمله حتى لا يجن جنونها: فهى تعيد ترتيب أشياء. لم تكن تغلق المكتبة إلا بعد أن تمر خمس دقائق أو ربما عشر بعد موعد الإغلاق الرسمى. ثم راحت تتخيل أنه ربما يكون فى الناحية الأخرى من الشارع، جالسًا على درج مكتب البريد يراقبها من بعيد؛ لقد كان حييًا خجولاً فلن تصدر منه حركة أو نأمة. راودها قلق من أن يكون مريضًا شأن أغلب الناس فى تلك الأيام. استطلعت أحاديث

الناس حول الحالات الجديدة. لم يرد اسمه على لسان. فى ذلك الوقت تخلت تماماً عن القراءة. بدت أغلفة الكتب فى عينيها كأكفان رثة ومنمقة، وتخيلت أن تجد داخلها تراباً فوق تراب.

اعذروها !! - اعذروها بعد أن ظنت، بعد تلك الرسائل، أن آخر ما يمكن أن يحدث هو أن يتذكرها ويأتى لزيارتها، أن يقترب منها أو يتصل بها. لن تشعر بملمسه، أو تسمع أنفاسه، أو يطأ عتبة بيتها بعد تلك الوعود والمكاشفات. مرت مواكب الجنائز أمام نافذتها ولم تعر أيًا منها انتباهاً لأنها لم تكن تخصه. حتى عندما كانت مريضة على فراش المستشفى كان كل ما تريده هو أن تعود إلى بيتها، أن تنهض من فراشها وتغادره إلى البيت، لا ينبغى أن يظل بابها مغلقًا أمامه. تهافتت على قدميها وعادت إلى عملها فى المكتبة. وعلى مشهد من قيظ الظهيرة أحد الأيام، وبينا هى مشغولة بترتيب الجرائد الجديدة على حواملها قفز اسمه أمام عينيها كما تقفز الأشباح فى أحلام المحموم.

قرأت إعلانًا قصيراً عن زواجه بالآنسة "غريس هورن. " لم تكن من الفتيات اللاتى تعرفهن. ولم تكن من رواد المكتبة.

كانت العروس ترتدى فستانًا من حرير "الكريب" يزينه شريط بنى يميل إلى الأصفر الشاحب، وقبعة من قش فاتح بترويسة من قماش قطيفة بنى.

بحثت عن الصورة فلم تجد. شريط زينة بنى مائل إلى الأصفر الشاحب. تلك هى النهاية، ولابد أن تكون هذه النهاية، نهاية خيالها ورومانسيتها.

ولكن وهى تجلس على مكتبها فى المكتبة منذ ما يقرب من أسابيع قليلة، وفي ليلة أحد أيام السبت بعد أن غادر الناس جميعًا وأغلقت الباب وشرعت تطفئ الأضواء، طالعت عيناها قصاصة. مرت العينان على عبارة قصيرة. كنت مرتبطًا قبل أن أذهب إلى خارج البلاد. لا اسم، لا اسمه ولا اسمها. وهناك كانت صورتها تكاد تختفى تحت دفتر المكتبة.

كان فى المكتبة فى ذلك المساء نفسه. وكان الوقت زحامًا، وكانت تترك المكتب لتبحث عن كتاب طلبه زبون، أو لتعيد ترتيب الجرائد، أو لتعيد بعض الكتب إلى الأرفف. كان فى الحجرة نفسها التى فيها تجلس، يراقبها على راحته. ولكنه لم يعرفها بنفسه.

كنت مرتبطًا قبل أن أذهب إلى خارج البلاد.

قالت لويزا:

- هل تعتقد أن الأمر كله نكتة مارسها الرجل علىّ؟ هل تعتقد أن يبلغ الشر برجل هذا المبلغ؟

- حسب خبرتى لا يمارس الرجال مثل هذه الألاعيب بالقدر الذى تمارسه النساء. لا، لا، لا ينبغى أن يذهب عقلك بعيدًا. الأقرب إلى الحق هو أن يكون صادقًا فيما قال وفعل. كل ما فى الأمر أنه انجرف قليلاً وراء عاطفته. ليس فى الأمر عمق يستوجب الوصول إلى أغواره. كان مرتبطًا قبل أن يذهب إلى خارج الوطن، لم يكن يتوقع أن يعود سالمًا ولكنه عاد. وعندما عاد سالمًا كانت الخطيبة فى انتظاره، وماذا كان يستطيع أن يفعل غير ذلك؟

– صحيح، وماذا كان فى استطاعته غير ذلك؟

– كل ما فى الأمر أنه وضع فى فمه ما لا يقدر على مضغه.

قالت لويزا:

– إذن الأمر كذلك؟! الأمر كذلك إذن! وماذا فعلت أنا غير إظهار الغرور والخيلاء!

ثم انطفأت عيناها وظهر اللؤم على محياها وأردفت تقول:

– الأرجح أنه كان ينظر إلى الصورة فلا تعجبه، ويفكر فى الأصل فلا يتوقع خيراً، ألا تعتقد ذلك؟

قال جيم فرارى:

– لا أعتقد ذلك! ولا تقللى من شأن نفسك.

فقالت لويزا:

– لا أريدك أن تظن بى الغباء، لست بالغبية عديمة الخبرة وهذه القصة ردتنى إلى الصواب.

– الواقع أنى لا أظن بك الغباء على الإطلاق.

– ولكن ربما تعتقد أنى عديمة الخبرة؟

وكان على حق – كالعادة. فبعد أن يحكى النساء حكاية عن أنفسهن لا يصبرن عن الحكاية الأخرى. الشراب يطيح برؤوسهن بصورة حاسمة فيهرب الحرص عبر النوافذ.

كانت قد أفضت إليه بدخيلة نفسها قبل أن تدخل المستشفى. ثم روت قصة حبها لطبيب هناك. كانت المستشفى تقع على أرض جميلة على جبال هاملتون، وكانا يلتقيان هناك على الماشى المحاطة بسياج

الأشجار. الدرج طبقات من الحجر الجيرى، ومساحات معزولة نبت فيها زرع نادراً ما تراه فى "أونتيريو." كان الدكتور يلم ببعض المعلومات عن النبات وأخبرها أن هذه النباتات هى التى تنمو فى ولاية كارولاينا الكندية. هى نباتات مختلفة كل الاختلاف عن النباتات هنا، فهى أكثر أوراقًا، كما توجد غابات أكثر هناك أيضًا، وأشجار عجيبة رائعة، ومدقات بين الأشجار، وأشجار تيوليب.

– أشجار تيوليب! وزهر تيوليب على الأشجار! قال جيم فرارى متعجباً.

– لا، لا، بل أزهار لها شكل أوراق التيوليب!

خرج منها الضحك بصوت فيه نبرة تحدٍ، ثم عضت شفتيها، ولم ير مانعًا فى تكملة الحوار، فاستمر يقول:

– أزهار تيوليب على الأشجار!

ولكنها طفقت تقول إنها ليست أزهار تيوليب ولكنها أوراق تشبهها، وقالت إنها لم تقل إن هناك أشجار تيوليب، وطلبت منه التوقف، ومرت لحظات كان الحذر فيها هو السيد. ثم مرت لحظات أخرى عبروا خلالها حالة من التقييم الحذر – عرفها وتمنى ألا تكون هى على وعى بها – لحظات حبلى بالمفاجآت الصغيرة السارة والإشارات شبه الساخرة ونهوض لآمال فاجرة وضرب من الشفقة المنذرة بالسوء.

قال جيم فرارى فجأة:

– كل شىء يرجع لأنفسنا، هذا شىء لم يحدث من قبل، هل حدث

هذا الشىء من قبل؟ وربما لن يحدث فى المستقبل أبدًا.

وتركت له يدها ليعبث بها كيفما شاء، وحملها من فوق المقعد، وأطفأ أنوار حجرة الطعام عند خروجهما، وصعدا الدرج، ذلك الذى طالما ارتقاه كل منهما بمفرده، ومرا أمام صورة الكلب يحرس قبر سيده، وصورة هايلاند مارى تغنى فى الحقل، والملك العجوز بعينيه الناتئتين ونظراته المليئة بالدلال والشبع. كان "جيم فيرارى" يتمتم بهذه الكلمات، أو لعله يغنى بصوت خفيض وهما يصعدان الدرج:

– الليلة ليلة الضباب والغيوم، وقلبى تنهشه الهموم.

ولبثت يده على عاتق لويزا. ثم قال لها وهو يوجهها إلى انعطافة الدرج.

– كل شىء على ما يرام، كل شىء تمام.

وعندما وصلا إلى البسطة الضيقة المؤدية إلى الطابق الثالث هتف:

– لم يسبق لى أن ارتقيت هذا الدرج وأنا فى طريقى إلى الجنة قبل اليوم!

ولكن في ساعة متأخرة من الليل تأوه جيم فرارى وشرع يوجه إلى لويزا لومًا من بين براثن النوم التى بدأت تمسك بكامل روحه:

– لويزا، لويزا، لِم لم تخبرينى قبل اليوم أن الأمور سهلة على هذا النحو؟

– لقد قلت لك كل شىء.

قالت لويزا فى صوت خفيض هادئ.

- إذن لقد كنت مخطئًا. لم أكن أظن أبدًا أن ذلك ما كنتِ تقصدين.

وقالت إنها لم تكن تقصد ما كان يدور فى ذهنه. الآن وحدها، دون من يجبرها على إجابات لأسئلة، شعرت بنفسها تدور دورات متسارعة بصورة لا تقاوم، وكأن المرتبة تحولت إلى قارب صغير ينجرف بها بعيداً عن حجرة النوم، حاولت أن تشرح له أن آثار الدم على الملاءات يمكن أن تكون بسبب الدورة الشهرية، ولكن الكلمات خرجت من فيها بلامبالاة مغرقة فى التنميق، ولم يألف بعضها بعضًا.

حوادث

عندما عاد آرثر من المصنع إلى البيت، قبيل الظهر، صاح: "ابتعدوا عنى حتى أغتسل! لقد حدث حادث فى المصنع!" ولم يجبه أحد، كانت المسز "غروفز"، مديرة المنزل، فى المطبخ تتحدث فى التليفون بصوت عال فلم تسمعه، وكانت ابنتها، بطبيعة الحال، فى المدرسة. غسل وجهه وخلع ملابسه، ووضع كل ما كان يرتدى فى سلة. غسل الحمام جيداً كما يفعل القاتل بعد ارتكابه جريمة قتل. استعد للذهاب إلى بيت الرجل وقد اعتنى بنظافة ثيابه وتمشيط شعره. كان يجب أن يسأل أين البيت. كان يظن أنه يقع على تل الخل ولكن الظن خاطئ - على تل الخل يقع منزل الأب - ولكن الشاب وزوجته يعيشان فى الطرف الآخر من المدينة، أمام مصنع عصير التفاح القديم الذى كان قائمًا قبل الحرب.

وجد البيتين الصغيرين متجاورين، وتوجه إلى البيت الواقع فى الجهة اليسرى، كما قالوا له. على أية حال لم يكن من الصعب الوصول إلى البيت المقصود. فلقد سبقته الأخبار. وجد باب البيت مفتوحًا والفناء حافلاً بالأطفال الذين لم يصلوا إلى سن المدرسة بعد، تربعت فتاة صغيرة على عربة أطفال لا تبرح مكانها ولكنها كافية بسد الطريق أمامه، تلمس طريقه حول العربة ولكن فتاة بالغة خاطبته فى نبرة الناصحين: "أبوها ميت. أبوها مات."

من الباب الأمامى ظهرت شابة تحمل ملء اليد ستائر، قدمتها لسيدة أخرى كانت تقف فى الردهة. كانت السيدة التى أخذت الستائر ذات شعر رمادى ووجه متوسل، خلا فمها من طقم أسنانها العليا، ربما تركته فى البيت إيثارًا للراحة. كانت المرأة التى أعطتها الستائر بدينة ولكنها ترفل فى ثياب الشباب الغض.

قالت المرأة ذات الشعر الرمادى لآرثر: "أخبرها ألا تطلع على هذا السلم النقال، فمن شأن ذلك أن يتسبب فى كسر عنقها وهى تنزل بالستائر، هى تظن أننا نريد أن نغسل كل شىء، هل أنت الحانوتى؟ أوه .. لا .. سامحنى! أنت المستر دوود. غريس .. تعالِ هنا! سلمى على المستر دوود!"

"اتركيها براحتها،" قال آرثر. "هى تظن أنها ستأخذ الستائر هذه المسافة وتغسلها وتعود بها غداً؛ لأنه سوف يضطر إلى الدخول إلى الحجرة الأمامية، هى ابنتى ولا أستطيع أن أقول لها شيئًا." قال رجل تبدو عليه علامات الحزن، ولكن وجهه يريح الناظر إليه، يرتدى

بزة كنسية، كان قادماً من خلف المنزل: "سوف تهدأ حالاً." كان هو القس المكلف بإتمام الطقوس. ولكنه لم يأت من كنيسة من الكنائس التى كان آرثر يعرفها، فهل جاء من الكنيسة المعمدانية؟ أم من الكنيسة الخمسينية؟ أم من كنيسة الإخوان المسيحيين ومقرها فى بلايماوث؟ كان يمسك بقدح من الشاى ويرشف منه.

ظهرت امرأة أخرى قامت بإزالة الستائر بنشاط ملحوظ. قالت: "ملأنا الآلة وشغلناها، هذا يومها. أبعدوا الأطفال لو سمحتم عن هذا المكان."

اضطر القس إلى إفساح المكان لها حتى تمر، واضطر أيضاً إلى رفع يده إلى أعلى حتى يمنع اصطدام الستائر بقدح الشاى، ثم قال: "يا نساء .. ألا تتطوع واحدة منكن بتقديم قدح من الشاى للسيدة دوود؟" فقال آرثر: "لا .. لا .. لا تتعب نفسك." ثم أضاف موجهاً كلامه إلى السيدة ذات الشعر الرمادى: "ومصاريف الجنازة، أخبريها بمصاريف الجنازة ——"

صاح طفل مرح لدى الباب: "سروال ليليان مبتل! بالت ليليان على نفسها يا سيد أغنيو!" فقال القس: "نعم .. سنكون شاكرين." قال آرثر: "الأرض والشاهد، كل شىء." ثم أضاف: "تأكد من أنهم يفهمون ذلك جيداً. وحتى ما يريدون كتابته على الشاهد."

اختفت المرأة ذات الشعر الرمادى فى الفناء وعادت وهى تحمل طفلاً يصرخ بين يديها. قالت: "المسكينة، منعوها من دخول البيت... أين تذهب؟ ماذا تفعل غير ما فعلته!"

جاءت المرأة الشابة البدينة من الحجرة الأمامية تجر سجادة وتقول إنها تريد لهذه السجادة أن توضع تحت أقدام فرقة الجنازة الموسيقية، عندئذٍ قال القس: "غريس .. أقدم لك المستر دود .. يريد أن يقدم تعازيه." وقال آرثر مكملاً: "ويسألكم إذا كنتم تريدون أية مساعدة." فى تلك اللحظة كانت السيدة ذات الشعر الرمادى تصعد الدرج والطفل المبتل فى حضنها، يتبعها طفلان آخران، ولكن "غريس" أوقفتهما قائلة: "أوه .. تعاليا هنا .. لا تصعدا ... ارجعا!" فقالا: "أمى هنا فى الداخل."

"نعم هى هنا ومشغولة، ولا تريد أن يشغلها أحد عن عملها، هى هنا لمساعدتى، ألا تعلمان أن والد ليليان مات؟" فقال آرثر: "هل من شىء أقدمه لكِ؟" وهو يعنى أن يذهب ويخلى المكان.

وحدقت فيه "غريس" بفم فاغر، كانت أصوات ماكينة الغسيل تملأ البيت بالصخب، قالت له: "نعم لك عندى عمل. انتظر هنا." عندئذٍ قال القس: "هى فقط مشغولة للغاية، ولا تقصد الإساءة."

عادت "غريس" وهى تحمل عدداً وافراً من الكتب، وهى تقدم له الكتب: "ها هى الكتب ...أخذها من المكتبة، وأنا لا أريد أن أدفع غرامات لغيابها عن المكتبة، كان يذهب كل سبت ليلاً، وأنا أعتقد أن ميعاد تسليم هذه الكتب غداً، لا أريد أن تتسبب لى مشاكل بسببها."

قال آرثر: "سوف أفعل الواجب وبكل سرور، لا تقلقى." وردت "غريس": "كل ما فى الأمر أنى لا أريد أن أواجه مشاكل بسببها."

فـى تلك اللـحظة قـال القس بـصـوت نـاصـح رفيق: "المستر دود كـان يـتحدث عن الجنازة والمصاريف، كل شـىء بما فى ذلك الشـاهـد، أى شـىء بـخـصـوص الشـاهـد." فقـالت "غريس": "أوه .. لا أريد شـيئًا مغرقًا فى الخيال."

"فى صباح يوم الجمعة الماضى فى منشرة الخشب فى مصنع دود حدثت تلك الحادثة المأساوية الفظيعة. عندما كان المستر جاك أغنيو هناك يستطلع تحت حد المنشار، تعلق كم قميصه بمسمار برغى مثبت فى المنشار الدائر - من حظه السـىء - وبجذبة قوية أصبح ذراع الرجل ومنكباه ورأسه تحت شفير المنشار بالضبط. وفى لحظة كانت رأس الشاب المسكين قليل الحظ مفصولة عن جسده بزاوية بدأت من الأذن اليسرى وصولاً إلى الرقبة. كان موته نتيجة لذلك فوريًا. لم ينبس ببنت شفة ولم يمنح وقتًا حتى لإصدار صرخة أو أى صـوت يـدل عـلى وجـود شىء مـا. انـتـبه زمـلاؤه فى الـعمل للـمـصـيبـة التى حـدث لـه من شلال الـدم المتدفق من رقـبته عـلى الأرض."

هـذه هى الروايـة التى وردت مطبوعة فى الجريدة بعد حدوثـها بـأسبوع. نُشرت ليعرفـها الذين لم يشـهدوهـا شـهود العين، وللذين كانوا يريدون نسخة منها لإرسالها إلى أصدقاء لهم أو أقرباء خارج المدينة (بصفة خاصة الذين كانوا يعيشون فى كارستيرز ورحلوا عنها). ورد فى الجريدة خطأ فى حروف كلمة "شفير" وتم تصحيحه فى عدد الأسـبوع التـالى مع اعـتذار رقـيق عن الـغلطـة. ورد فى

الجريدة أيضًا وصف لجنازة كبيرة للغاية حضرها خلق كثير جاءوا من المدن المجاورة حتى من مدينة "والى" البعيدة. جاؤوا بالسيارات أو بالقطار، وجاء بعضهم بالخيول وعربات البوجى التى يجرها أربعة خيول، لم يكونوا يعرفون جاك أغنيو عندما كان على قيد الحياة، ولكن، وكما قالت الجريدة، أرادوا أن يعبروا عن حزنهم للطريقة المأساوية الفظيعة التى لقى بها حتفه. أغلقت جميع المحال التجارية فى كارستيرز أبوابها لمدة ساعتين بعد الظهر. لم يغلق الفندق أبوابه، ولكن ذلك لأن جميع القادمين كانوا يريدون مكانًا يتناولون فيه طعامًا وشرابًا.

أهل الميت هم زوجته، غريس، وابنة فى الرابعة من عمرها اسمها ليليان، كان المرحوم من المحاربين الأشداء فى الحرب الكبرى، وعلى جسده جرح واحد من أثر ذلك، ولم يكن جرحًا خطيرًا. علق كثيرون على هذا القدر الذى أخطأه فى الحرب و لم يخطئه فى المصنع.

لم تذكر الجريدة أن له أبًا كان على قيد الحياة، ولم يكن ذلك عن عمد؛ لم يكن محرر الجريدة من كارستيرز، وقد هم متطوعون بإحاطته علمًا بالأب الموجود ولكن الجريدة كانت قد مثلت للطبع، حتى الأب لم يشكُ من خلو الجريدة من ذكره. كان يوم الجنازة معتدل الطقس، فبعد الجنازة ترك المدينة وآل دود، على رأسه قبعة من اللباد ومعطف طويل يستخدمه كمفرش عندما كان يضطر إلى أن يأخذ "تعسيلة". كان حذاؤه المطاطى موثقًا فوق حذائه الجلد بأربطة بلاستيكية من النوع الذى كان يُستخدم فى ربط الأكياس.

خرج يصطاد أسماك الشبوط قبل مقدم الموسم. كانت عادته أن يقضى الربيع ثم بواكير الصيف، يطهو ما يصطاده ويأكله. كان يحتفظ بالمقلاة والقدر فى مكان ما على ضفة النهر. كان القدر مخصصًا لغلى الذرة التى كان يسرقها من غيطان الناس، يعيش أحيانًا على ثمار التفاح البرى وحبات الكروم، لم تكن هناك مظنة فى عقله، غير أنه كان يتجنب المحادثة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى كرهه للمحادثة لم يستطع تجنب الكلام مع الناس فى الأسابيع التى تلت وفاة ابنه، ولكنه وجد طريقة يحد بها من الحديث مع الناس.

مشينا فى إثره واطلعنا على أخباره.

بينما كان يمشى فى البلد ذلك اليوم قابلته امرأة من الذين لم يحضروا الجنازة. هى نفسها لم تسع إلى الدخول معه فى حوار، بل إنها كانت أحرص منه على الصمت والعزلة، خطواتها واسعة محسوبة تضرب بها الهواء بسرعة وحماس.

كان المصنع يشغل مساحة كبيرة من المدينة الصغيرة من ناحية الغرب، أشبه بجدار من تلك الجدر التى كانت تحيط بمدن العصور الوسطى. وكان المصنع يتكون من مبنيين كبيرين طويلين أشبه بالهضاب الصغيرة أو المتاريس المنيعة، يربط بينهما جسر حصين تقع فيه مكاتب الإدارة الرئيسية. تنتشر ورش المصنع عبر المدينة الصناعية وشوارعها التى تقوم عليها بيوت العمال. هنالك توجد أفران الصهر والمنشار الكبير ومغلق الخشب وحجيرات التخزين. تنطلق صفارة المصنع فى وقت معلوم فيستيقظ النائم وينهض

المتكاسل فى الساعة السادسة بالضبط فى الصباح، ثم تنطلق مرة أخرى إيذانًا ببدء العمل، فى تمام السابعة، ثم تنطلق مرة أخرى فى الثانية عشرة للذهاب لوجبة الغداء، ثم تنطلق بعد ذلك فى الواحدة بعد الظهر لبدء العمل من جديد، ثم تنطلق انطلاقتها الأخيرة فى الخامسة والنصف بالضبط فيضع العمال أدواتهم ويذهبون إلى بيوتهم.

كانت التعليمات معلقة بجوار ساعة الحائط يعلوها زجاج. أقرأ عليكم البندين الأولين:

أى دقيقة تأخير عن العمل يعنى خمس عشر دقيقة خصم. لا تتأخر.

السلامة ليست مضمونة. احرص على سلامتك وسلامة جارك.

حدثت حوادث فى المصنع بالطبع، على سبيل المثال لقى رجل مصرعه عندما سقطت عليه حمولة من الخشب، حدثت هذه الحادثة قبل آرثر. وقبل الحرب حدثت حادثة أخرى: بُتِرَ ذراع رجل، أو بالأحرى جزء من ذراعه، عندما حدث هذا الحادث كان آرثر خارج المدينة .. كان فى تورنتو. لم ير حوادث فى حياته أبدًا – لم ير شيئًا خطيرًا من تلك الأشياء التى حدثت، ولكن عقله الباطن ظل يحدثه عن شىء خطير على وشك الوقوع.

ربما لم يكن يتوقع حوادث فظيعة أن تحدث له قبل أن تلقى زوجته حتفها، ماتت عنه زوجته فى عام ١٩١٩، متأثرة بالإنفلونزا الإسبانية التى انتشرت كالوباء فى ذلك الوقت. هنالك استولى

الخوف والرعب على الجميع. ولكن آرثر لاحظ أن زوجته لم تخف أو تهتز. مضت خمس سنوات الآن على انتشار الوباء ووفاة الزوجة. إن آرثر يعتقد الآن أن وفاة زوجته نقطة تحول فى حياته: النقطة التى ودع عندها حياة خالية من الهموم واستقبل حياة أخرى مثقلة بالهم والقلق، ولكن يبدو أنه حرص على ألا تهتز صورته أمام الناس كرجل جاد مسؤول يفى بالتزاماته كلها - لم يلحظ أحد من الناس أى تغير فى حياته.

كانت أحلامه بالحوادث مثقلة بالصمت المنتشر فى الأمكنة. كأن كل شىء قد توقف أو أُحكم غلقه. تتوقف الآلات المنتشرة فى المصنع عن إصدار أصواتها المعتادة، وتوقف العمال والناس عن الكلام، وعندما كان آرثر يتطلع من خلال نافذة مكتبه العملاقة كان يعرف أن ما خططت له الأقدار يقع. لم يستطع أن يحدد شيئًا بعينه قد رآه وأخبره عن ذلك، لم يكن هناك إلا الفضاء والتراب المنبعث فى فناء المصنع .. ما يؤكد له حقيقة الوقوع.

لبثت الكتب فى صحن سيارته أسبوعًا أو نحو ذلك، قالت له ابنته "بيا" ذات يوم: "ما فائدة وجود هذه الكتب هنا؟" ثم راح يتذكر.

مرت "بيا" على عناوين الكتب ببصرها مرور الكرام، وقرأت أسماء مؤلفيها. السير جون فرانكلن وحكايات الرحلة إلى الغرب من تأليف جى. بى. سمث، الخطأ فى هذا العالم من تأليف جى. كيه. شسترتون. الاستيلاء على مقاطعة كيبك من تأليف أرشيبولد هندرى، البلشفية: النظرية والتطبيق من تأليف اللورد برتراند رسل.

"البلشفية،" قالت "بيا"، ولكن آرثر شرح لها كيف تنطق هذه الكلمة بطريقة صحيحة. سألته عن معناها، وقال لها: "إنها شيء كانوا يعرفونه في روسيا، وأنا نفسي لم أفهمه جيداً، ولكن مما سمعته عنها أزعم أنها شيء مشين."

كانت "بيا" في الثالثة عشرة في ذلك الوقت، وكانت قد سمعت عن الباليه الروسي وأيضًا عن الدراويش، ولبثت عامين بعد ذلك تظن أن البلشفية ليست إلا رقصًا يشبه رقص الزار، أو هي ضرب من الرقص المبتذل. هذه هي القصة التي حكتها في الغالب بعد أن شبت عن الطوق.

ولم تقل إن الكتب كانت تتصل بالرجل الذي قضى في الحادث، ذلك من شأنه -في ظنها - أن يفقد القصة طرافتها، أو لعلها في الواقع نسيت.

احتارت أمينة المكتبة عند رؤية هذه الكتب، فالبطاقات كانت لم تزل على الكتب مما كان يعني أنها لم تسجل، وأن هناك من انتزعها من أرففها انتزاعًا .. أو بمعنى آخر سرقها، قالت أمينة المكتبة: "كتاب اللورد رسل مفقود من المكتبة منذ فترة طويلة."

لم يكن آرثر متعوداً على مثل هذا التوبيخ، ولكنه قال بأدب وهدوء: "أنا أعيد هذه الكتب بالنيابة عن شخص آخر، الشاب الذي لقي حتفه، الذي لقي حتفه في حادث المصنع."

فتحت أمينة المكتبة كتاب فرانكلن، كانت تنظر في صورة القارب الذي غرق في الثلج، وأضاف آرثر: "كلفتني زوجته بإعادة هذه الكتب."

تنـاولت كل كتاب علـى حدة، وراحت تـهزه فـقد يقع شـىء، مرت بأصـابعـها بـين الصـفـحات، كان الجزء الأسفل من وجـهها يـتحرك بطريقة بشعة كأنها كانت تمضغ باطن وجنتيها، قال آرثر: "أعتقد أن هذه الكتب أعجبته فأخذها إلى بيته ليقرأها." فردت: "آسفة؟ ماذا قلت؟ آسفة."

قال فى نفسه: إنها الحادثة. فكرة أن الشاب الذى لقى حتفه فى الحادث كان آخر من لمست يداه هذه الكتب، وآخر من فتحها وقلب صفحاتها، التفكير أنه قد يكون ترك بين طيات الصفحات شيئًا يدل عليه، شيئًا أخيراً يدل على وجوده الذى غاب، كقصاصة ورق، أو منشفة ساق الغليون قد يكون وضعها كعلامة، أو حتى مزق قليلة من التبغ. سبب قلقها وعصبيتها.

قال آرثر: "ولا يهمك. جئت لأرد الأمانة إلى أصحابها وقد فعلت."

أدار ظهره مبتعداً عن مكتبها ولكنه لم يخرج من المكتبة على الفور، لم يزرالمكتبة منذ سنين. كانت صورة أبيه قائمة هناك بين النافذتين الأماميتين، وحيث ستوجد فى الغالب فى المستقبل.

"إى. فى. دود. مؤسس مصنع دود أورجان وراعى هذه المكتبة وزبونها الدائم. نصير التقدم والثقافة والتعليم. والصديق الصدوق لمدينة كارستيرز وحبيب الطبقة العاملة."

كان مكتب أمينة المكتبة يقع فى المدخل بين الحجرات الأمامية والحجرات الخلفية، كانت الكتب على الأرفف مرتبة فى صفوف فى الحجرة الخلفية. تتدلى من سقف الممر مصابيح ملونة بلون أخضر

ومربوطة بحبال طويلة، تذكر آرثر ما حدث منذ سنوات فى اجتماع مجلس إدارة المكتبة حين أزمعت الإدارة شراء ستين لمبة كهربائية بدلاً من أربعين. كانت أمينة المكتبة هى التى طلبت هذا العدد، ووافقوا على طلبها.

كانت الحجرة الأمامية تمتلئ بجرائد ومجلات تدلت من حوامل خشبية، وببعض طاولات مستديرة ثقيلة، تؤمها مقاعد يجلس عليها الناس ويقرأون، وكذلك كتب كثيرة سمراء اصطفت وراء ألواح من الزجاج: قواميس وأطالس ودوائر معارف، يتوسطها نافذتان أنيقتان كبيرتان عاليتان تطلان على الشارع الرئيس، هنالك تعلقت بين النافذتين صورة كبيرة لآرثر الأب، وأحاطت بأعلى الجدران صور أخرى، صور تعلوها عتمة ثقيلة ومزدحمة بأشخاص لها علاقة بآرثر. (عرف آرثر فيما بعد، عندما كان يقضى الساعات فى المكتبة، وكان يتحدث عن هذه الصور مع أمينة المكتبة، منها صورة تصور معركة ميدان فلودين، وصورة ملك اسكتلنده مندفعًا بقوة أسفل التل وسط سحابة كثيفة من الدخان، وصورة أخرى لجنازة ملك روما الصبى، وصورة للشجار الكبير الذى حدث بين تيتانيا وزوجها أوبيرون فى مسرحية شكسبير المسماة: "حلم ليلة صيف.)

جلس أمام طاولة من طاولات القراءة، من موقع يستطيع منه أن ينظر من خلال النافذة. تناول نسخة قديمة من كتاب الجغرافيا الوطنية كانت موضوعة على الطاولة. كانت أمينة المكتبة وراء ظهره، فقد كان يُظن أنها الجلسة المناسبة له لأنها كانت مضطربة المزاج

مؤرقة، دخل رواد آخرون وكان يسمعها تبادلهم الحديث، كان صوتها يبدو عادياً الآن تماماً، لبث يفكر فى المغادرة ولكنه لم يفعل.

عشق النافذة المرتفعة العاطلة من الستائر، التى يغمرها ضوء الربيع بعد العصر، وعشق فخامة تلك الحجرات، ونسقها المعمارى، استمرأ تلك الغرابة المحببة فى رؤية رواد المكتبة الذى يجيئون ويروحون يقرأون الكتب بإصرار ومثابرة. مر الأسبوع تلو الأسبوع، وفرغ من كتاب بعد كتاب، واكتشف أن العمر كله مر.

تذكر أنه قرأ، مرة، كتاباً فى وقت قصير. عندما أشار به واحد من معارفه، وقد استمتع فعلاً بقراءته، وكان يقرأ المجلات كلها ليكون على صلة بما يحدث حوله فى هذا العالم الفسيح. لم يكن يفرغ من قراءة كتاب حتى يعن له قراءة آخر. قليلاً ما كانت الظروف تسمح له بالجلوس مع أمينة المكتبة وقد خلت المكتبة تماماً من الرواد.

وفى مرة من تلك المرات القليلة أقدمت إليه ووقفت قريبة منه، تتظاهر بأنها تبدل بعض الجرائد المعروضة على الحوامل الخشبية. وإذ فرغت من ذلك توجهت إليه بالحديث فى شوق متحفظ:

"الرواية التى وردت للحادثة فى الجريدة، أظن أنها رواية دقيقة إلى حد ما؟"

وقال آرثر إنه يعتقد أنها رواية دقيقة تماماً.

"ولماذا؟ لماذا تقول ذلك؟"

وقال: إن الصحفيين يعرفون أن الجمهور يريد أن يقرأ التفاصيل الفظيعة كلها.

فهل كان ينبغي على الصحيفة أن تذعن لما يريده جمهور القراء؟

قالت أمينة المكتبة: "أعتقد أن هذا طبيعي، أعتقد أن رغبة الجمهور في معرفة الأحداث السيئة شيء طبيعي، يريدون قراءتها وتصورها، أنا نفسي أرغب في ذلك، أنا أجهل الآلات وما يحدث في المصانع، لا أستطيع تصور ما حدث، حتى مع ورود التفاصيل في الجريدة، فهل أتت الآلة بشيء مفاجئ؟" وأجاب آرثر: "لا .. لم تكن الآلة هي التي أمسكت به وجذبته، كما يفعل الحيوان. كل ما في الأمر أنه تحرك بطريقة خاطئة، أو تحرك بطريقة لا مبالية، ودفع ثمن هذه اللامبالاة.

لم تقل شيئًا ولكنها لم تذهب، أما آرثر فقال:

"على المرء أن يستخدم كل ذكائه، لا ينبغي أن يغفل ثانية واحدة، الآلة خادم مطيع، وخادم رائع، ولكنها كثيراً ما تتحول إلى سيد غبي."

سأل نفسه: هل قرأ هذا الكلام في جريدة أو مجلة أم أنه كلام ابتدعه هو الآن.

قالت أمينة المكتبة: "أظن لا توجد طريقة يحمي بها الناس أنفسهم؟ وعلى المرء أن يعرف ذلك من نفسه."

وانصرفت عنه لأن زائرًا جديداً قد دخل.

أعقب الحادثة نوبة من الطقس الدافئ. بدا أن طول ساعات المساء وزيادة درجة حرارة الطقس مصدر مفاجأة ودهشة لسكان هذا الجزء من البلاد، وكأنها ليست هذه عادة الطقس كل عام في

أغلب الأحوال. انحسر ماء المطر الذى انهمر إلى حفر المستنقعات الصغيرة أو تحت أوراق الشجر الكثيرة التى سقطت من أغصانها التى تحولت الآن إلى اللون الأحمر. شاعت روائح أفنية المخازن فى البلدة وقد امتزجت برائحة أزهار الليلاك.

وجد آرثر نفسه يقرر التوجه نحو المكتبة بدلاً من التجوال خارج البيت، فى المكان الذى طالما فيه مكث وقرأ، ليجلس فى البقعة نفسها التى فيها جلس عند أول زيارة له للمكتبة، كان يريد الجلوس ساعة أو بعض ساعة، ألقى نظرة على مجلة أخبار لندن المصورة، ومجلة الجغرافيا الوطنية، ومجلة ليلة السبت، ومجلة كولير الأسبوعية، كانت تصله تلك المجلات إلى البيت، وكان يستطيع أن يتصفحها جميعًا وهو جالس فى مختلاه يراقب المروج المحاطة بالأشجار الصغيرة التى حافظ عليها "آغنيو العجوز" فى حالة جيدة. لقد كثرت أزهار الزنبق من كل لون بهيج، وشكل مختلف. كان يبدو أنه يفضل التفرج على الشارع الرئيس حيث يرى سيارات الفورد الجديدة تروح وتجىء فى خفة النسيم، أو يرى سيارة أخرى قديمة تتهادى ببطء وقد غطتها قطعة قماش مثقلة بالتراب. كان يفضل منظر مكتب البريد المزدان ببرج قامت عليه ساعة تنبئ عن الوقت أربع مرات لأربع مواقيت مختلفة، وكلها، كما يقول الناس هنا، ليست صحيحة، كان يحب المشى والتلكؤ على الرصيف. هناك يسعى الناس لإصلاح حنفية المياه العامة دون جدوى، فإن أحداً لم يتطوع لتشغيلها منذ الأول من يوليو الماضى.

لم يكن ذلك لأن نفسه كانت تهفو إلى الامتزاج فى المجتمع. لم يذهب إلى هناك لكى يتسول حواراً مع الناس كان محروماً منه؛ رغم أنه كان يحب إلقاء التحية على المارة حين يعرف أسماءهم، وكان يعرف أسماء أغلب الناس. وكان يتبادل القليل من الكلمات مع أمينة المكتبة، رغم أن تلك الكلمات لم تكن تتجاوز تحية المساء إذا دخل، وتحية الوداع إذا خرج. لم يكن يسبب إحراجًا لأحد، أو يثقل على أحد بطلبات من أى نوع، كان يريد لحضوره أن يكون محببًا، مرغوبًا، مطمئنًا، وفوق هذا وذاك حضوراً طبيعيًا لا يثير قلقًا ولا يتسبب فى ضغينة. ظن أن جلوسه فى المكتبة، وانشغاله بالقراءة والتأمل، هنا فى المكتبة وليس فى البيت، ظن أنه يقدم شيئًا، شيئًا يستنير به الناس ويسترشدون.

شغف بما يسميه الناس "الخادم العام." لم يكن أبوه، الذى يطل عليه الآن بوجنتين تخضبتا بلون وردى خفيف كأنهما لرضيع، وعينين زرقاوين فاترتين، وفم حرون، يحسن الظن فى نفسه إلى ذلك الحد، وإنما كان يحب أن يكون شخصية عامة، أو المتبرع للأعمال الخيرية. كان يدير الأمور بالأهواء والقرارات، فإذا أحس بتلكؤ فى العمل كان يدور حول المصنع، ثم يخاطب الرجل تلو الآخر، ويأمره بالانصراف: "اذهب إلى البيت، اذهب إلى البيت الآن ولا تعد إلىّ حتى أدعوك." وكانوا ينصرفون. عندئذٍ كانوا يعملون فى حدائقهم، أو كانوا يشغلون أنفسهم فى صيد الأرانب، ثم يبيعون ما يريدون بيعه بالأسعار التى يريدون، وينصاعون للأمر الواقع. كانوا حينئذٍ يقلدون

صوته أو نباحه حين يصيح بهم "اذهبوا إلى بيوتكم." كان هو بطلهم وليس آرثر، ليسوا مستعدين لطاعة آرثر الآن كما انصاعوا للأب. كانوا أثناء الحرب يعملون فى المصنع ويقبضون المال الوفير ويمتثلون لأوامره. لم يتخيلوا أن الحرب سوف تضع أوزارها، وأن سوق العمل سوف يضيق بالجنود القادمين من الميدان، وسوف تندر الوظائف. لم يفهموا أن هذه الصناعة كانت تجرى بالحظ والإخلاص وحده، من نجاح إلى نجاح، ومن عام إلى عام، ومن موسم إلى الموسم الذى يليه. لم يتحمسوا للتغييرات - ولم يبتهجوا للتحول الذى حدث نحو آلات البيانو التى تعمل آليًا بالهواء المضغوط، والتى يعتقد آرثر أنها أمل المستقبل. ولكن آرثر كان يفعل ما يحلو له، ولم يكن يذهب فيما كان يفعل مذهب أبيه. مذهبه التفكير فى الشىء أكثر من مرة. يراقب من بعيد إلا إذا كانت الحاجة إليه ملحة، يحافظ على هيبته وكرامته، ويتحرى العدل فى كل شىء.

العمل متوفر، وسيظل متوفراً إلى الأبد. هذا ما كان يظنه الناس فى المدينة، سيظل العمل متوفراً مادامت الشمس تشرق كل صباح. وتزداد الضرائب على المصنع، وتُفرض الرسوم على المياه التى كانت تتدفق مجانًا فى العهد القريب. وأما الطرق المؤدية إليه فقد أصبحت صيانتها مسؤولية المصنع بعد أن كانت مسؤولية مجلس المدينة، طلبت الكنيسة المنهجية مبلغًا كبيراً من المال لبناء مدرسة الأحد الجديدة. وأعرب فريق الهوكى فى المدينة عن حاجته إلى ملابس جديدة. وحتى النصب التذكارى فى الميدان فى حاجة إلى أحجار.

وفى كل عام يتطوع آل دودز بإرسال الطالب الأول على الثانوية العامة إلى الجامعة على حسابهم.

اطلب، وسوف تُجاب.

وفى البيت زادت الطلبات أيضاً، تبدى "بيا" رغبتها فى الالتحاق بمدرسة خاصة، وتحرضها المسز "غروفز" على شراء خلاط جديد للمطبخ، وغسالة جديدة، كما أصبحت الحاجة ملحة لطلاء البيت من الخارج هذا العام. وهذا يحتاج لكمية كبيرة من الدهان. أضف إلى هذا وذاك أن آرثر يريد شراء سيارة جديدة - سيارة كريسلر سيدان جديدة.

كلها حاجات ضرورية ليس منها مهرب، السيارة الجديدة، والذهاب إلى المدرسة الخاصة، والخلاط الجديد والغسالة الجديدة، وطلاء الجدران، ضرورية للحفاظ على احترام الناس لهم، والثقة فى مكانتهم، وإلا فهى إرهاصات الأفول، وعلامات الانحدار، ستسير الأمور على ما يرام.

لبث أربع سنوات بعد رحيل الأب لا يزايله الشعور بأنه مخادع أفاق، أو قل كان يشعر خلالها بين الحين والحين بأنه مخادع أفاق، ولكن هذا الشعور قد ذهب الآن، ذهب إلى الأبد، ها هو يستطيع أن يجلس هنا ويتأكد من أنه قد ذهب.

كان فى مكتبه عندما حدثت الحادثة يتبادل نقاشاً مع بائع خشب الأبلكاش، تناهت إلى مسمعيه أصوات بعيدة عن المألوف، أصوات تزداد وطأتها على الأذن ولا تميل إلى الهدوء، لم يأبه فى البداية -

ربما أثارت غضبه دون اهتمامه، حدثت الحادثة فى منشرة الخشب ولم ينتبه لها أحد فى منافذ البيع أو فى أفران الاحتراق أو فى الفناء، بل واصل العمال أعمالهم لبضع دقائق، والواقع أن آرثر كان مشغولاً فى فحص عينات الأبلاكاش فى مكتبه، ولعله كان آخر من استيقظ للجلبة، ألقى على البائع سؤالاً ولكن البائع لم يجب. تطلع إليه آرثر فوجد فاه فاغراً دون أن ينبس، ووجهه مخضباً بالخوف؛ تملكه الرعب وزالت عنه طمأنينته التى كان يتحلى بها منذ لحظات، وسمع من يصرخ باسمه، باسم آل "دود"، أو "آرثر! آرثر!" كما يحلو للعمال كبار السن الذين شهدوا طفولته وصباه، ثم سمع كلمات مثل "المنشار" و "الرأس" و "يا إلهى! يا إلهى!".

ولعل آرثر كان يرغب فى الصمت، ولعله كان يتمنى أن تهدأ هذه الجلبة المخيفة ليتمكن من التصرف، ولم يحل الصمت، ولم تهدأ الجلبة المخيفة، تفاقم الصراخ، وشاع التساؤل، وانتشر الهرج والمرج، ووجد نفسه فى وسط الفوضى، ووجد نفسه يقف أمام المنشرة، ويلمح رجلاً يسقط مغشياً عليه، سقط مغشياً عليه بعد أن قطعوا التيار عن المنشرة بلحظات قليلة، وإلا نالت منه وقضت عليه، وظن آرثر أنه الضحية التى أثارت الفوضى والصراخ، ولكنه يرى الأيدى تمتد إلى جثة الرجل الذى فقد الوعى وتزيحه عن الطريق، ويرى أن نشارة الخشب كانت قد اتخذت لوناً قرمزياً، تخضبت بالدم المراق، ويرى أن ألواح الخشب وشفرات المنشار قد تبعثرت، ويرى أن هناك ملابس عمل قد نُقِعَت فى الدماء وأُلْقِى بها على نشارة

الخشب، ويدرك آرثر أنها جثة القتيل، يرى الجذع، ويرى الأطراف بعد ذلك، لقد سالت دماء غزيرة فاختفت معالمه.

أول شيء فكر فيه أن عمد إلى الجثة فأسدل عليها سترته، أراد أن يقترب من الجثة ويقوم بسترها فتعثرت بها قدماه. لم يعمد أحد إلى تغطية الجثة بجاكتته لأن أحدًا لم يكن يرتدي جاكتة غير آرثر.

سمع من يصرخ: "هل استدعيتم طبيبًا؟" وسمع آخر يقول بأسى: "هل يستطيع الطبيب إعادة الرأس إلى الجذع؟" هل يستطيع؟

ويعطي آرثر أوامره بإحضار الطبيب - كان يعتقد أن حضور الطبيب لا غنى عنه، لابد من حضور الطبيب في مشهد الموت، وللموت تداعيات أخرى لا بد منها: الطبيب، الحانوتي، الكفن، الزهور، والقس. وتسارعت الخطى، وتفرقت المهام. يأمر بمن يزيل النشارة المخضبة بالدم، ومن ينظف المنشرة، وبمن كان قريبًا من المكان أن ينظفوا ملابسهم من الدم العالق، وأن يحملوا الرجل الذي أغمي عليه إلى حجرة المطعم، ويسأل هل هو بخير؟ ويأمر السكرتيرة أن تعد الشاي.

تلك لحظات يجدي فيها البراندي أو الويسكي وليس الشاي، غير أنه يمنع تناول هذه المشروبات في مصنعه.

بقي شيء. أين هو؟ هناك، قالوا. هناك. وسمع آرثر صوت تقيؤ، ليس ببعيد. حسنًا. فإما أن يحمله من على الأرض أو يأمر غيره بحمله. صوت القيء هدأ من ثورة نفسه، ألهمه بتصميم لا يجر مسؤولية. رفعه من على الأرض. حمله برفق متحريًا الأمن، رفق من

يحمل "فازة" غريبة الشكل ولكنها نفيسة. حال بين الوجه وبين النظرات المستطلعة، كأنه يهدئ من روعه، وضمه إلى صدره. تسرب الدم على قميصه، والتصق بجسمه. الدم الدافىء. انتابه شعور بأنه رجل جريح. أدرك أن العيون تراقبه، واقتحمه إحساس بأنه ممثل على مسرح، أو قس يوزع الرحمات. وتصرف. وضعه على الأرض، أعاده إلى مكانه القديم، سعى إلى ضبط وضع الرأس على الجذع، ولكن القدر لا يعيد آثار ما أنفذ، عدل من وضع الجاكتة على الجسد المسجى.

لم يتشجع للسؤال عن اسم الرجل. فليتحر الاسم فيما بعد، فى مناسبة أخرى. الجهل لا يصح باسم رجل كان مخلصًا فى عمله فى هذا المصنع.

ولكنه تبدى له أنه لا يجهل الاسم، تذكره. تذكره بينما كان يغطى بطرف جاكتته الأذن التى لم تزل فى مكانها لم يمسها سوء كأنها لم تزل تعمل، أسعفته الذاكرة باسم الرجل. هو ابن لرجل كان يأتى المصنع ليصلح من أمر الحديقة، ولم يكن يعول عليه. شاب وافقت إدارة المصنع على استخدامه بعد عودته من الحرب. هل هو متزوج؟ لابد أنه متزوج، لابد أن يخبر زوجته، السرعة مطلوبة. فلينظف ملابسه أولاً.

كانت أمينة المكتبة ترتدى فى الغالب "بلوزة" بلون أحمر غامق. وتضع على شفتيها لونًا ورديًا يضاهى لون "البلوزة،" وقصت شعرها قصيراً. لقد رحل شبابها، لم يبق منه غير نظرات عينيها الآسرتين.

تذكر عندما وافقوا على عملها فى المكتبة أنها كانت ترتدى ملابسها دون إسراف أو بهرجة. ولم يكن شعرها قصيراً تلك الأيام المنطوية - بل كان مطوياً على رأسها كموضة ذلك الزمان. ولكن لونه لم ينصل - لون دافىء محبب، كلون أوراق الشجر - أشجار البلوط بالتحديد - وقت الخريف. كم كانت تتقاضى أجراً؟ لم يتذكر. لم تكن تأخذ الكثير، بالتأكيد. ولكنها لم تبد تبرماً ولا اعتراضاً. أين كانت تسكن؟ أكانت تسكن فى بيت من البيوت التى تقدم الطعام لنزلائها؟ أم كانت تسكن مع المدرسين؟ لم تسكن هناك. كانت تسكن فى اللوكاندة التجارية.

ويتذكر شيئًا آخر. شيئًا ليس هو بالقصة التى يستطيع تذكرها بالكامل. لا يستطيع أن يجزم باطمئنان بأن الفتاة كانت سيئة السمعة. ولكنها لم تكن سمعة تخلو من شوائب أيضاً. قيل إنها كانت تشرب الخمر مع المسافرين. وربما اتخذت من بينهم رفيقًا. رفيقًا أو اثنين.

والحق أنها كانت ناضجة فلم لا تفعل ما تريد؟ لم تعمل مدرسة جاءت لبعض الوقت لتضرب المثل. طالما تتقن عملها - والجميع يشهد بذلك - من حقها أن تعيش حياتها، كأى إنسان آخر. فهل كان الناس يريدون امرأة رثة الثياب سيئة الطبع مثل مارى تامبلين؟ يأتى الغرباء إلى المدينة، وهم يحمكون عليها بما يرون. أنت تريد إذن امرأة رفيعة التهذيب وذات أدب جم.

يكفيك هذا. ومن قال إنك لا تريد؟ على ذلك النحو كانت عقله يضطرب بالأفكار. وعلى ذلك النحو كان يقيم معها حواراً فى الخيال

كأن شخصًا يمثل أمامه يجادله ويعترض على ما يقول. وما ذلك السؤال الذى بادرت به فى ذلك المساء عن الآلة؟ ماذا كانت تعنى به؟ أم كانت طريقتها الخبيثة فى إلقاء اللوم؟

تحدث معها عن الصور والإنارة. حكى لها كيف كان أبوه يرسل عماله الذين كانوا يعملون فى مصنعه إلى هنا، يدفع لهم المال لكى يعملوا فى بناء المكتبة والأرفف، ولكنه لم يتحدث معها عن الرجل الذى استعار الكتب من المكتبة دون علمها. جمع الكتب ووضعها تحت معطفه وتلمس طريقه إلى الخارج. لعله لم يفعلها قبل اليوم ولا بعده. تحت معطفه؟ وأعادها بالطريقة نفسها. أعادها بالتأكيد. فهل أعادها بوازع من ضميره أم كانت له زوجة لم تصبر على ذلك. هل ثمة علاقة ما؟ أقصد علاقة بين فعلة كهذه وطبيعة الشخصية نفسها؟ أتوجد علاقة بين شخص كهذا يستعير الكتب دون علم المكتبة ويعيدها بالطريقة نفسها وبين التحرك عند المنشار حركات غير محسوبة فتمسك الآلة بكم قميصه ولا تلبث أن تضع عنقه تحت حد المنشار؟

قد توجد علاقة.

ذات مساء قال لأمينة المكتبة: "أتذكرين الشاب – صاحب الحادثة، والطريقة التى استعار بها الكتب. فى رأيك لماذا فعل ذلك؟" وقالت أمينة المكتبة: "الناس أحيانًا يفعلون أشياءً غريبة. أحيانًا يمزقون بعض الصفحات على أساس أنها تتضمن أشياءً لم تعجبهم، أو العكس: يمزقونها لأنها تتضمن أشياء أعجبتهم. لست متأكدة."

"وهل قام هذا الشاب بتمزيق صفحات؟ وهل قمت أنت بإسداء النصح له؟ بمعنى أنه أصبح يخاف من مواجهتك؟"

كان يقصد إلى مداعبتها قليلاً، وهو فى الواقع يعنى أنها لم تكن بالتى تخيف الناس، ولكنها لم تفهم ما كان يرمى إليه. فقالت له باستياء: "وكيف أفعل ذلك وأنا حتى لم أبادله أى حديث؟ أنا لم أره أبدًا. لم أره أبدًا لأعرف من هو.

وابتعدت بعد أن وضعت حدًا للحوار، فهى إذًا لا تحب الدعابة. فهل كانت من هؤلاء الذى احترقوا بنار تجربة عشق أخفقت، وتراهم الآن قد أغلقوا قلوبهم بأقفال ثقال؟ أيشقى قلبها بسر لا نعرفه؟ أم فقدت فى الحرب حبيبًا؟

وفى أمسية من أماسى الصيف، أثارت الموضوع معه وهو الذى قرر ألا يتحدث فيه أبدًا: "هل تذكر حديثنا عن الشاب الذى قضى فى الحادثة؟" وأجاب آرثر بنعم. فقالت له بتحفز: "لدى ما أريد أن أضيفه مما قد تراه غريبًا."

وأومأ لها استعدادًا لسماعها:

"كل ما أطلبه منك أن يكون هذا سرًا بينى وبينك."

"طبعًا ... طبعًا."

"أتذكر شكله؟"

شكله؟ استغرب آرثر من سؤالها. استغرب من سؤالها والسر الذى تريد أن تخفيه – من الطبيعى أن تهتم بشكل الرجل الذى دخل المكتبة وتسلل منها حاملاً الكتب التى أخذها دون إذنها – ولكن آرثر

لم يكن يعرف شكله، فهز رأسه علامة على العجز. لم يستطع استحضار صورة جاك أغنيو إلى ذهنه القلق. قال: "هل هو طويل العود، ربما كان للطول أقرب، هذا كل ما أعرفه، عموماً لست من يسأل عن ذلك، أستطيع التعرف على أى رجل حين أقابله مرة ثانية ولو طال الزمن، ولكن الأوصاف الشكلية لا طاقة لى على حفظها، حتى لو قابلت المرء كل يوم."

وردت: "أعتقد أنك أنت وليس غيرك من يسأل عن هذا – سمعت أنك أنت من يسأل – أنت الذى حملته من فوق الأرض. وحملت رأسه على صدرك." فقال آرثر ضجراً: "لا أظن أن من كان يراه فى تلك الحال يتركه ويمضى ببساطة."

لكنه أحس بأن ظنه خاب فى تلك المرأة التى تحدثه الآن، توجس منها وأحس بالخجل. ولكنه قرر أن يحرر صوته من نبرة اللوم مؤثراً الواقعية. "الواقع أنى نسيت حتى لون شعره – لقد ضاعت معالمه تماماً فى تلك اللحظة."

ولزم الصمت هنيهة، وحول وجهه بعيداً عنها. قالت: "قد يبدو لك إننى واحدة من أولئك الذين يحبون هذه الأمور أو يتحرونها."

همهم آرثر محتجًا، ولكن ما استقر فى نفسه أنها من أولئك الناس الذين تزعم أنها ليست منهم. ولكنها أردفت: "لم يكن لى أن أسألك، لم يكن من حقى أن أتحدث معك فى الموضوع من أصله. لن أستطيع أبداً أن أفسر لك ما سألت. كنت أريد أن أسألك وكفى، وأرجو ألا تظن أبداً أننى من ذلك النوع من الناس."

سمع أرثر كلمة "أبدًا" تتردد على لسانها. لن تستطيع أبدًا أن تفسر. وهو لن يظن أبدًا. وفى خضم خيبة الأمل وزيف التوقع لاح له أن الحوار بينهما لن يصل إلى نهايته، وربما على النحو المقصود هذه المرة. اصطبغ صوتها بمسحة تذلل، ولكن يبدو أنه تذلل من يطمئن إلى وضوح الطريق. اطمئنان له علاقة بالجنس.

أم هل كان يراوده التفكير لأن الوقت تصادف أن كان مساء السبت؟ مساء السبت في الشهر الذى فيه كان يذهب إلى "والاى." كان فى طريقه إلى هناك تلك الليلة، وعَنّ له التوقف فى طريقه فى هذا المكان دون أن يقصد إلى المكث مدة كتلك التى مكثها الآن. تلك كانت الليلة التى قصد فيها إلى زيارة سيدة تدعى جين ماكفرلن. كانت جين ماكفرلن قد انفصلت عن زوجها، ولكنها لم تفكر فى الطلاق. لم يكن لها أبناء. وكانت تكسب لقمتها من عملها كخياطة. قابلها آرثر أول مرة عندما أتت إلى بيته لتخيط ثيابًا لزوجته. لم يحدث شيء بينهما فى ذلك الوقت، ولم يفكر أى منهما فى شيء، كانت جين ماكفرلن تشبه أمينة المكتبة فى كثير من وجوه الشبه - حسنة المظهر، رغم تقدمها فى السن، جريئة، أنيقة الهندام، وتتقن عملها، وفى وجوه أخرى لا تشبهها، لم تكن جين تشبه أمينة المكتبة التى تسأل عن رجل يبدو لآرثر لغزًا، وتتحرى معلومات لا تفضى إلى شيء. كانت جين من ذلك النوع من النساء اللائى يلقين الطمأنينة فى قلب الرجل، حديثه معها يشبه حديثه مع زوجته.

تقدمت أمينة المكتبة إلى مفتاح النور الرئيس القريب من الباب

وأطفأت الأنوار كلها. أغلقت الباب وتوارت هنيهة خلف الأرفف لتكمل إطفاء الأنوار هناك على مهل. كانت ساعة المدينة تعلن عن التاسعة. وهى واثقة أنها التاسعة رغم الثلاث دقائق التأخير فى ساعة يده.

حان وقت الذهاب، حان وقت الذهاب إلى "والاى".

وإذ فرغت من إطفاء الأنوار أقدمت إليه وجلست أمامه على المائدة، قال: "لم أكن أصدق أبدًا أنك تعانين من أية تعاسة فى حياتك."

لم يكن إطفاء الأنوار يعنى الظلام الدامس، كانا فى منتصف الصيف. ولكن يبدو أن سحبًا كثيفة راحت تتكون منذرة بمطر غزير، عند آخر نظرة ألقاها آرثر على الشارع كانت بقية من أنوار النهار لم تزل تضىء الوجود؛ وكان سكان المدينة الصناعية لا يزالون يتبضعون، والصبية يتحلقون حول حنفية المياه العمومية؛ والفتيات اليافعات يرحن ويجئن، يرفلن فى ملابس الصيف الوردية الناعمة الرخيصة، أمام الصبية الذين راحوا يتطلعون إليهن من حيث يجلسون – على سلم مكتب البريد، أو عند دكان البقالة، وهو ينظر الآن إلى الشارع فيراه يهتز بفعل الرياح الهادرة المحملة بقطرات من المطر، راحت الفتيات يصرخن ويتضاحكن، ويرفعن حقائبهن فوق رؤوسهن وهن يهرعن إلى المخبأ؛ فيما كان موظفو المحل يسدلون الستائر، ويسحبون سلال الفاكهة، وحوامل الأحذية الصيفية، وآلات العناية بالحدائق المعروضة على أرصفة الشارع. صكت الآذان أصوات أبواب مطعم المدينة الصناعية وهى تُفْتَح وتُغْلَق

أمام العاملات فى المزرعة، يمسكن بصناديق وصرر وأطفال، ويلقين بأنفسهن فى حجرة مقاعد السيدات، وحاول بعضهم فتح باب المكتبة، وألقت أمينة المكتبة نظرة على باب المكتبة ولكنها لم تحاول فتحه، وسرعان ما رأينا القطار ينساب كما تنساب الستائر على المسرح، والريح تضرب سقف مطعم المدينة، وتزمجر عند ذؤابات الشجر. استمر الصخب والخطر دقائق قليلة فيما كانت قوة الرياح تضمحل رويداً رويداً. لم يبق إلا صوت القطار الذى راح هديره ينخفض ثم يعلو كأن شلالاً من الماء قد داهم المخلوقات.

هل يحدث ما يحدث الآن فى "ولاى" أيضًا؟ وهل تكف جين عن انتظاره؟ كان هذا آخر ما حدث به نفسه فيما يخص العلاقة بينه وبينها.

وقال أيضًا فى نفسه إن المسز "غروفز" رفضت أن تغسل ملابسه واستغرب لسلكها. وكانت خائفة من أن تلمسها.

وقالت أمينة المكتبة بصوت مرتجف خجول ولكنه واثق: "أعتقد أن ما فعلته كان رائعًا."

واشتد صوت المطر فجأة ليعفيه من الإجابة وحانت له الفرصة لإنعام النظر فى وجهها. غمرتها مياه المطر فظهرت صورتها الجانبية مشرقة فى النور الجزئى تحت النوافذ. كانت تعبيرات وجهها هادئة مستهينة بالخطر. أو هكذا بدا له. أيقن أنه لا يعرف عنها الكثير - فمن أى نوع من البشر تكون؟ وأى أسرار ينطوى عليها ذلك القلب الصغير؟ كيف تراه؟ وهل يعرف قدره عندها؟ يعرف أنها تقدره ولكن إلى أى مدى؟

لا يستطيع أن يصف ما تشعر به نحوه إلا كما يصف الرائحة أو صفعة الكهرباء أو حبات القمح وقد أصابها اللهب. كلا .. إنما هى مثل برتقالة مرة المذاق. استسلمت.

لم يكن يتخيل أن يواجه موقفًا كهذا الموقف، مدفوعًا هكذا بإلحاح لا يقاوم. ولكنه لم يكن غير مستعد. ودون أن يفكر مرتين أو حتى مرة واحدة فيما يريد أن يقوله: "أريد أن —— " كان صوته منخفضًا فلم تسمعه.

رفع صوته. قال: "أريد أن أتزوجك."

حدجته بنظرة. ضحكت ولكنها تراجعت عن التمادى وهى تقول: "آسفة، آسفة. أضحك لأن التفكير نفسه كان يجول بخاطرى قبل أن تتفوه به."

قال: "أى تفكير؟"

"قلت فى نفسى إن ذلك آخر عهدى به."

قال آرثر: "أنت على خطأ."

شهداء تولبدل ؟

توقفت حركة قطارات الركاب فى كارستيرز أثناء الحرب العالمية الثانية، وقيل إن السكة الحديدية نفسها قد صودرت، كما يقول الناس، من أجل المجهود الحربى. عندما ذهبت لويزا إلى المدينة العاصمة لرؤية طبيب القلب، فى منتصف الخمسينيات، كانت مضطرة إلى ركوب الأوتوبيس. لقد نصحها الطبيب بأن تتوقف عن القيادة. قال طبيب القلب إن قلب لويزا معتل بعض الشىء، وأن دقاته

تتميز بتغيرات مفاجئة. وعلقت هي قائلة إن هذا يجعل قلبها أشبه بجرو صغير شد إلى حبل. وقالت إنها لم تسر مسافة سبعة وخمسين وسبعين ميلاً لكى تُعامل فى النهاية بهذه الخفة، ولكنها لم تحفل آخر الأمر بذلك، فقد تسلت بما قرأته فى حجرة الانتظار فى عيادة الطبيب. وربما ما قرأته هناك هو الذى جعل دقات قلبها سريعة التقلب. قرأت فى جريدة محلية فى صفحة داخلية عنوانًا لمقال: "تكريم شهيد محلى،" واستمرت فى القراءة تزجية للوقت. قرأت أن هناك احتفالاً سيقام مساء ذلك اليوم فى ميدان فكتوريا، كان الغرض منه تكريم شهداء تولبدل. وورد فى الجريدة أن قليلاً من الناس سمعوا عن شهداء تولبدل، وبالتأكيد لم تكن منهم لويزا. كانوا ستة رجال تمت محاكمتهم وإدانتهم لأنهم حلفوا يمينًا يجرمه القانون. هذه الجنحة الغريبة التى ارتكبها الستة منذ ما يزيد على مائة عام فى قرية "تولبدل" فى "دورسيه" فى انجلترا، قضت بترحيل مرتكبيها إلى أستراليا، وفيما بعد انتهى ببعضهم المطاف إلى أونتيريو، كندا، حيث عاشوا ما تبقى لهم من الحياة، وماتوا ودفنوا دون إشارة إلى ضريح أو سعى لإحياء ذكرى. يحتفل بهم الناس اليوم بوصفهم من المؤسسين الأوائل للحركة النقابية التجارية. وتضيف الجريدة أن مجلس الاتحادات التجارية، وممثلى نقابة العمل الكندية، وبعض رجال الدين فى الكنائس، قاموا بتنظيم الاحتفال ليقام اليوم بمناسبة مرور مائة وعشرين عامًا على القبض عليهم ونفيهم.

تساءلت لويزا في سرها: "شهداء؟" هم في نهاية المطاف لم يعدموا.

كان من المقرر أن يتم الاحتفال في الثالثة، وتقرر أن يكون من بين المتحدثين الرئيسيين أحد القساوسة المحليين والسيد جون (جاك) أغنيو، وهو متحدث باسم نقابة العمال في تورونتو.

كانت الساعة الثانية والربع عندما خرجت لويزا من عيادة طبيب القلب. ظلت الحافلة التي كانت متجهة إلى كارستيرز واقفة حتى السادسة، انتظرت لويزا في المحطة وتناولت شايًا وطعامًا من محلات سمبسون ثم اتجهت إلى محلات بيرك لهدايا المناسبات، وعندما سمح الوقت قررت مشاهدة فيلم العصر. يقع ميدان فكتوريا بين عيادة الطبيب ومحلات سمبسون، وقررت لويزا عبور هذه المسافة القصيرة. كانت حرارة الجو قاسية مما ألجأها إلى ظل الأشجار. سارت بين مقاعد مرصوصة لم تستطع تجنبها، ومنصة صغيرة للخطابة مكسوة بقماش أصفر، على جانب منها قام علم كندا، وعلى جانب آخر علم آخر خمنت أن يكون علم اتحاد العمال المحتفى به. احتشد جمع من الناس ووجدت نفسها ترتد لتستطلع الأمر. من بين الجلوس رجال متقدمون في السن، يرتدون ملابس بسيطة ولكنها أنيقة، ونساء يعصبن رؤوسهن بمناديل اتقاءً للحر. قالت في نفسها: "أوربيون." وآخرون عمال مصانع، رجال يرتدون قمصانًا قصيرة الأكمام، ونساءً يرتدين "بلوزات" جديدة وبنطلونات فضفاضة، سُمِح لهن بالخروج قبل نهاية الدوام. ويبدو أن بعض السيدات قدمن من

البيت مباشرة لأنهن كن يرتدين ملابس الصيف وصنادل ويصطحبن أطفالهن. ظنت لويزا أن أحداً لن يهتم بملابسها – الأنيقة، دائماً، من صوف الشانتونغ تحت قلنسوة من الحرير القرمزى – ولكنها رأت، فى تلك اللحظة، سيدة ترفل فى ثياب أكثر أناقة من الحرير الأخضر وقد انساب شعرها الداكن على عاتقيها فى خصلة واحدة شدت بوشاح مزيج بين الأخضر والذهبى. يبدو أنها فى الأربعين يبدو على وجهها التعب ولكن ملاحة تقطر من جوانبه. تقدمت من لويزا فجأة ووجهها مشرق بابتسامة، وقربت لها مقعداً وأعطتها ورقة منسوخة. لم تستطع لويزا قراءة الكتابة الوردية على الورقة. ألقت نظرة على بعض الرجال الذين كانوا يتحدثون إلى جانب المنصة. هل كان من بينهم الخطباء؟

لم تنجذب لويزا للتشابه فى الاسم. لم يقع الاسم الأول ولا الأخير على مسمعيها موقع الغرابة. لم تكن تعرف لماذا جلست؟ أو لماذا ذهبت من الأصل؟ اجتاحها إعياء شديد ونفور يعاودها بين الحين والحين إلى أن عرفت أنها ارتكبت بالمجىء حماقة. عليها الآن أن تنهض من مقعدها وتغادر المكان قبل أن يزحم المكان ويعوق حركتها.

ولكن المرأة التى ترتدى الحرير الأخضر اعترضت الطريق، وسألتها عن حالها، وردت لويزا بصوت أجش: "مضطرة إلى أن ألحق بالأتوبيس،" ثم بعد أن تنحنحت وخفضت من عصبيتها: "مشوارى طويل." وغادرت المكان عكس اتجاه محلات سمبسون.

خطر فى بالها ألا تذهب إلى هناك، ولن تذهب إلى محلات "بيركز" لشراء هدية حفل زواج، ولا إلى السينما. قررت الذهاب إلى محطة الأتوبيس وتجلس هناك حتى يحين السفر.

وقبل أن تصل بقليل تذكرت أن محطة الأتوبيس لم تكن هى التى نزلت فيها عند القدوم ذلك الصباح. كانت المحطة تخضع لتجديدات كثيرة، يبدو أنها كانت تبنى من جديد - تذكرت المحطة الاحتياطية التى تقع على بعد عمارات قليلة من المحطة المحطمة. نسيت الشارع - لعله شارع يورك، شرق المحطة الأصلية، أو شارع "كنغ؟" على أية حال اضطرت للدوران حول نفسها كثيراً؛ لأن الشارعين كليهما قد خرجت أحشاؤهما، وكادت تتحقق من أنها تاهت عن الطريق لولا أنها أدركت أن الحظ كان يحالفها عندما عادت إلى المحطة الاحتياطية من الطريق العكسى. كان بيتاً قديماً - بيتاً قديماً عالياً مبنياً من الطوب الأصفر المائل إلى الرمادى يعود إلى أيام كان المكان حياً سكنياً. استخدمته البلدية محطة أتوبيس قبل أن يتقرر هدمه. ولعل البيوت المحيطة به كلها قد تعرضت للهدم لتوفير المكان للحافلات. ولكن بعض الأشجار لم تزل قائمة تحيط بالجوانب الأربعة، يصطف تحتها عدداً قليلاً من المقاعد لم تنتبه لها عندما نزلت من الأوتوبيس فى الصباح. كان اثنان يجلسان فى شرفة المحطة على مقاعد الأتوبيس القديمة. كانا يرتديان القمصان التى عُلقت عليها شارات شركة الأتوبيس، ولكن حماسهما للعمل بدا أنه فتر؛ فلم ينهضا عندما سألتهما: هل سيغادر أتوبيس كارستيرز فى

تمام السادسة كما هو مبين فى الجدول؟ ومن أين تحصل على زجاجة كولا؟

قالا لها إن الأتوبيس سيغادر فى السادسة تماماً.

وقالا لها إن السوبر ماركت فى نصف الشارع.

وقالا لها إن المحل لا يوجد به غير الكوك والبرتقال فى وعاء التبريد.

استخرجت لنفسها الكوكاكولا من ماكينة تبريد قائمة فى حجرة تقع فى حجرة الانتظار تغشاها رائحة حمام متهرئ. إن نقل المحطة إلى ذلك البيت المتداعى قد ساعد على شيوع اللامبالاة والكسل فى نفوس الناس. كان المكتب يزدان بمروحة فى وسطه، وفى سعيها للخروج رأت أوراقًا تحت المائدة. صاحت موظفة المكتبة: "ياه ... مصيبة." ووضعت كاحليها على الأوراق.

لدى خروجها أدركت لويزا أن المقاعد التى استقرت تحت ظلال الأشجار تعلوها طبقة كثيفة من تراب المدينة، مقاعد خشبية قديمة تخضبها ألوان مختلفة بدت كأنها قدمت من مطابخ شتى. انتشرت أمام تلك المقاعد قطع بالية من السجاد وأجزاء من المطاط استقرت عند مدخل الحمام لتنظيف الأقدام من الرمل العالق. وعلى الأرض على مقربة من المقاعد تهافت ما بدا لها عجلاً أبيض جفلت منه لويزا ورمته بنظرة شزراء يبدو أنه استجاب لها فنهض ليتمخض هيكله عن كلب علته القذارة اضطرب وحدق فيها هنيهة بشىء من الجدية شبه الرسمية، ثم طفق يتحسس حذاءها بأنفه وأسرع بالهرب.

تذكرت أنها كانت تريد الأنبوبة التى بها تحتسى الكولا، ولكن همتها فترت فى العودة والبحث. أفرغت محتويات القارورة فى جوفها وهى ترجع برأسها للخلف وتغمض عينيها. وعندما فتحتهما لاح لها أن رجلاً يجلس على مقعد على مقربة منها ويتوجه إليها بالحديث:

"كنت أجىء إلى هنا كلما كان ذلك فى استطاعتى. أخبرتنى نانسى أنك تريدين اللحاق بالأتوبيس. جئت هنا بمجرد أن فرغت من كلمتى. ولكنى اكتشفت أن المحطة قد تهدمت كلها."

"مؤقتًا .." قالت.

قال: "عرفتك بمجرد أن رأيتك رغم السنين الكثيرة التى انطوت. عندما رأيتك، كنت مشغولاً بالحديث مع أحدهم. وإذ فرغت من الحديث رحت أنظر خلفى لأجد أنك اختفيت." عندئذٍ قالت لويزا:

"لم أعرفك."

"لا .. أظن أنك لا تعرفيننى. طبعًا. ولن تعرفينى."

كان يرتدى بنطلونًا أسمر، وقميصًا ذا لون أصفر فاتح وكمين قصيرين، ورباط عنق ذا لون أصفر شاحب مقلطح عند الطرفين. لاحظت أنه شديد التأنق على غير المألوف من رجل ينتمى للنقابات. كان شعره أبيض، ولكنه كثيف متموج، نوع من الشعر الرشيق يترقرق على جبينه رفعًا وخفضًا. كانت بشرته مخضبة بحمرة وردية، والتجاعيد تعلو وجهه ربما من إعياء الخطابة أو بسبب الأحاديث التى أدلى بها للناس ردًا على أسئلة مدفوعًا بما شاع فى جسده من

حماس بسبب تشجيع الحضور. كان يرتدى نظارتين بلون فاتح، خلعهما الآن كأن الأمل كان يحدوه فى أن تراه بشكل أوضح. فى عينيه زرقة خفيفة وبعض الدم الذى خضب البياض ربما من شدة القلق وترقب الشر. رجل حسن المظهر حقًا، أنيق حقًا، ربما فيما عدا انتفاخ خفيف يعلو الحزام. ولكن لويزا لم تنجذب إلى تلك الملامح الأنيقة والملابس الأنيقة والشعر الرقيق المتموج وتعبيرات الوجه المليحة. لم تنجذب. كانت تفضل الملامح التى كان آرثر يتمتع بها، ورزانته الجليلة ووقاره المهيب وإن كان الناس يسمونه بالأبهة والغرور وبدا لها سمتًا محببًا بريئًا. قال لها الرجل:

"كنت أريد إذابة الثلج. كنت أريد أن أتحدث إليك. كان يجب أن أدخل وأرحب بك على الأقل. ولكنى اضطررت إلى المغادرة فجأة."

ولم تجد لويزا الكلمات التى بها ترد.

تنهد وهو يقول: "لابد أنك منى غاضبة؟ ألا زلت غاضبة منى؟"

قالت وهى ترجع برأسها إلى الخلف فى حركة عفوية تجتاحها فى مثل هذه المجاملات الخفيفة: "لا، ولكن كيف حال غريس؟ وكيف حال ابنتك ليليان؟ ليليان؟"

"غريس ليست على ما يرام. تعانى من ألم المفاصل، وبدانتها المتزايدة لا تعينها عليه. ليليان على ما يرام. متزوجة ولا تزال تدرس فى المدرسة الثانوية، تدرس الرياضيات على غير المألوف للنساء."

هل همت لويزا بتصحيح ما يقول؟ هل قالت له: لا، إن زوجتك "غريس" تزوجت مرة أخرى أثناء الحرب، تزوجت من فلاح فقد

زوجته؟ وقبل أن تتزوج كانت تأتى إلينا وتنظف منزلنا مرة كل أسبوع. لقد تقدمت المسز "غروفز" جداً فى السن. وأن ليليان لم تتخرج من التوجيهية، فكيف تصبح مدرسة فى مدرسة ثانوية؟ تزوجت صغيرة وأنجبت عدداً من الأطفال، وعملت فى سوبر ماركت. فى طولك تقريباً ولها نفس الشعر المتموج الذى صبغته ليصبح أشقر. كنت أتأملها وكنت أقول فى نفسى لابد أنها مثلك، وعندما كبرت كنت أعطيها ملابس ابنة زوجى القديمة.

بدلاً من ذلك قالت: "إن المرأة التى ترتدى اللون الأحمر - هذه ليست ليليان؟"

"نانسى؟ أوه لا! نانسى هى ملاكى الحارس. إنها تتبعنى أينما أذهب، وحينما أذهب، وأثناء خطابى، وما أشرب، وما آكل، الحبوب التى أتناولها، فأنا على ما يبدو أعانى من ضغط الدم المرتفع. الأمر ليس خطيراً، ولكن أسلوب حياتى لا يساعدنى. فأنا دائماً على سفر. الليلة مثلاً سوف أسافر إلى أوتاوا، وغداً عندى اجتماع ممل، وغداً مساءً "معزوم" على عشاء سخيف."

ووجدت لويزا نفسها مضطرة إلى أن تقول: "هل عرفت أنى تزوجت؟ تزوجت من آرثر دود."

واعتقدت أنه سيبدى بعض الدهشة "ولكنه قال: "أجل، سمعت عن ذلك. نعم."

واستمرت لويزا تقول بجدية: "آرثر مات من ستة أشهر مضت. حاولنا الحفاظ على استمرار المصنع فى العمل خلال سنى الثلاثينيات

كلها، حتى عندما مرت أوقات انخفض فيها عدد العاملين فى المصنع إلى ثلاثة رجال، لم يكن لدينا أية أموال لعمل صيانات، وأتذكر كيف قطع آرثر مظليات النوافذ وحملها إلى السقف لسد فجوات حدثت فيه، حاولنا صنع كل ما طالته أذهاننا. حتى حارات البولنغ الخشبية صنعناها وبعناها لهذه المحلات، ثم اندلعت الحرب ولم نستطع مواصلة العمل. بعنا كل أجهزة البيانو التى أنتجناها، وبعنا أيضاً صناديق رادارات للأسطول. كنت أمكث فى المكتب أربعاً وعشرين ساعة."

ثم قال بصوت يشى بتصنع اللباقة:

"لابد أنه كان تغييراً بالنسبة لك، أقصد أنه يختلف عن عملك فى المكتبة." قالت:

"العمل عمل، لم أتوقف عن العمل. ابنة زوجى "بيا"، طُلِقت من زوجها وهى الآن تعيننى على شؤون البيت. ابنى تخرج من الجامعة أخيراً. يُفترض أنه يتدرب على العمل الآن ولكن مشكلته أنه ينام بعد الظهر، وعندما أعود إلى البيت فى الليل، وقد نال منى التعب، أسمع قعقعة الثلج فى الأكواب وأصوات الضحك خلف سياج الشجيرات. وعندما يروننى يهتفون: "جاء الطين .. اجلسى هنا. اعطوها كأساً!" كانوا ينادوننى "الطين" لأنه الاسم الذى كان ينادينى به ابنى عندما كان طفلاً صغيراً. ولكنهم الآن كبروا. أتذكر البيت؟ كان بيتًا جميلاً، ثلاثة طوابق متدرجة على هيئة كعكة الزفاف. ينفتح على بهو مرصع بالطوب الملون بشكل الفسيفساء. ولكن المصنع لا يفارق ذاكرتى. كندا ليس فيها غير ثلاثة مصانع لصناعة آلات البيانو، ثلاثة مصانع

منها فى "كيبك"، تعمل بعمالة رخيصة. لا شك أنك تعرف ذلك كله.
أحيانًا أناجى آرثر بهذا كله!! لا زلت أشعر بأنى منه قريبة وهو منى قريب على طريقة الصوفيين. أنت عندما تكبر مثلى سوف تجد أنك تنجذب للروحانيات. لكن عقلى لا زال يفكر فى العمل. فى الاستقرار المادى. فى النهاية ما الفائدة فى مناجاة رجل ميت؟

توقفت عن الكلام لأنها استشعرت حرجًا رغم أنها لم تكن واثقة من أنه كان يسمع كل ما قالت، ولم تكن واثقة من أنها قالت كل ذلك بالفعل. قال:

- إنى أدين لك بالكثير.

ووضع يديه على ركبتيه واتجه بعينيه إلى الأرض وقال: "هراء".

ثم وهو يغالب أنينًا انتهى به إلى ضحك: "أبى، ألا تذكرين أبى؟"

قالت لويزا: "أتذكره طبعًا."

"أحيانًا أجزم أنه كان على صواب."

ثم رفع رأسه وأدارها كأنه يتأهب للإدلاء برأى. قال:

- الحب لا يموت أبدًا.

تململت فى البداية كأنها أرادت الرد على هجوم مباغت. قالت فى نفسها: ذلك ما انتهى إليه شخص مثله يصدق كل ما يقال. الحب يموت كل يوم - أو على الأقل يتم تجاهله، أو يختنق فى المهد - ومن الممكن جداً أن يموت.

"كان آرثر من رواد المكتبة. فى البداية كان يثير سخطى. كنت كثيرًا ما أنظر فى عنقه وأقول له: "ماذا لو صفعك أحد على هذا

القفا؟ هل تشعر بأن شيئًا حدث؟ أنا نفسى لن أهتم." ولم يكن ذلك اهتمامى الحقيقى؛ اكتشفت أن رغبتى الحقيقية هى فى الزواج منه لعله يوفر لى الحياة الهادئة." وكررت: "حياة هادئة." واجتاحتها رعشة سرت فى الجسد كله انتهى بها إلى وقار رزين وهدوء يشى بتواصل بينها وبينه. سألته: "ماذا تظن أنى أعنى بذلك؟"

عندئذ مر أمامهم جمع من نساء ورجال يرتدون ملابس غريبة. كانت النساء تغطين رؤوسهن بشيلان أو قلنسوات سوداء. وكان الرجال يرتدون قبعات عريضة وحمالات سوداء تحمل بنطلوناتهم. كان الأطفال يرتدون ما يرتديه الكبار، بما فى ذلك القلنسوات والقبعات. كانت وجوههم تشى بما يعانونه من شدة الحر تحت هذه الملابس الثقيلة - بدت على وجوههم الأتربة والتعب والفتور.

أجابها بصوت دافئ خافت يشوبه المزاح : "شهداء تولبدل،" ثم أدرف: "من الأفضل أن أذهب إليهم، من الأفضل أن أذهب إليهم وأتحدث إليهم."

كان صوته يضطرب بين الجد والهزل، بين الدفء والاحتدام، مما جعلها تفكر أنه شخص آخر. ترى من يكون؟ وطالعت عاتقيه وعجيزته الكبيرة، وعرفته:

جيم فرارى.

يا إله العالمين، أى قدر يعبث بها وأى عبث؟ بل أى عبث هذا الذى مارسته هى بنفسها! أى قدر؟ نهضت واقفة محرجة، وطالعت على الملابس السوداء بقعًا داكنة. أحست بدوار وانكسار. لن تخضع لما

تسوقه الأقدار.

عند اقترابهم رأت أن ملابسهم لم تكن كلها سوداء. رأت ملابس غامقة الزرقة - وتلك كانت ملابس الرجال - وملابس داكنة الزرقة مشوبة بحمرة - وتلك كانت ملابس النساء. رأت الوجوه - وجوه الرجال التى تؤنسها اللحى الكثيفة، ووجوه النساء تحت القلنسوات العريضة. عرفتهم الآن. عرفت أنهم المانونايت.(١)

كان المانونايت يعيشون فى هذا الجزء من البلاد، طارئين عليه لا راسخى القدم. كان بعضهم يعيش قريباً من "بوندى" وهى قرية تقع شمال كارستيرز. كانوا يستعدون للسفر بالحافلة نفسها التى كانت تستعد للسفر بها. لم يكن معهم، ولم تره.

خائن، عاجز. مسافر.

الآن عرفت أنهم المانونايت لا غرباء ضلوا الطريق، وعرفت أنهم لا هم بالخجلين ولا هم بالبائسين. بالعكس كانوا مبتهجين يمرون على الجلوس بعلب مليئة بقطع الحلوى، يأكل منها الكبار إلى جانب الصغار، وينتشرون حولها على المقاعد الوثيرة.

لا عجب أن تحس بالانتشاء. تخلصت من اضطراب داخلى لازمها ولم يلحظه أحد. يمكن للناظر أن يصف ما حدث، ولكنه لن يستطيع سبر أغوار نفسها، وما حدث لها مما يصعب على الناظر الخارجى معرفته. هى التى جربته وهى التى أحست به، وهى التى خرجت منه ببريق علا جلدها، وضرب على أذنيها، وخفقان فى صدرها، وثورة فى بطنها: الفوضى وهى لا تحب الفوضى -

اضطراب يبتلع الأشياء ويبتلعها. فجوات مفاجئة وحيل مرتجلة وتعازٍ مخضبة بالود سرعان ما تختفى.

ولكن المانونايت منحوها شيئًا من الهدوء ودعة النفس. صوت المقاعد وهى تصطدم بظهورهم، قرقعة الحلوى داخل الكيس، والأصوات الصادرة من التهام الحلوى، وهمسات الأحاديث الناعمة. مدت لها فتاة صغيرة كيس الحلوى دون أن تنظر فى عينيها، وتناولت لويزا قطعة من حلوى السكر بالزبد المخلوط بالنعناع. استغربت من قدرتها على تناولها بيديها، وقد مطت شفتيها استعداداً للعمل. شكرتها وبعد أن ألقتها فى فمها فأنست لطعمها. راحت تلوكها كما كانوا يفعلون، ولكن ببطء لتفسح الطريق أمام الطعم ليستمر. انتشرت الأنوار رغم أضواء النهار التى لم تزل تخضب الوجود. رأت فجأة أن عدداً من اللمبات الكهربية انتظمت فى سلسلة طويلة انتشرت على ذؤابات بعض الأشجار هى التى نشرت الضياء فى المكان. ذكرتها الأنوار بالمهرجانات والكارنفالات. وذكرتها بالقوارب التى تسعى على سطح البحيرة.

سألت المرأة التى كانت تجلس إلى جوارها:

- ما اسم هذا المكان؟

كانت لويزا تقيم فى فندق كومرشال عندما قضت الآنسة تامبلن نحبها. كانت مسافرة فى ذلك الوقت لعمل لصالح شركة كانت تبيع القبعات، وأشرطة الزينة، والمناديل والمزركشات، الملابس الداخلية النسائية - كانت تبيعها لتجار التجزئة. سمعت الحديث فى الفندق،

وعرفت منه أن المدينة بها مكتبة والمكتبة فى حاجة إلى أمينة مكتبة. كانت قد تعبت من حمل حقائبها الصغيرة والتجوال بها فى الحافلات والقطارات، وفى الفنادق وعلى الطرقات، تفتح وتغلق وتعرض بضاعتها على من يريد ومن لا يريد. حزمت أمرها وذهبت إلى المسؤلين عن المكتبة. رجل يدعى السيد "دود" وآخر يدعى السيد "ماكلويد". بدوا فى عينيها كممثلين فى مسرحية هزلية. رضيت بالعائد القليل على أن يزيد. أخبرتهما أنها تحمل شهادة المدرسة الثانوية من تورنتو وأنها كانت تعمل فى مكتبة إتون قبل أن تعمل فى الشركة التى كانت تعمل بها. لم تجد داعيًا لذكر أنها عملت لصالح هذه الشركة لخمسة أشهر فقط عندما اكتشف الأطباء أنها مريضة بالسل، وأنها قضت أربع سنوات فى مصحة. لقد شفيت الآن من السل - وجفت البقع التى كانت تعلو جسدها.

نقلتها إدارة الفندق إلى حجرة فى جناح المقيمين إقامة دائمة، فى الطابق الثالث. كان فى وسعها رؤية الثلوج تغطى قمم التلال. كانت مدينة "كارستيرز" تقع فى وادٍ نهرى. وكان بها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف نسمة وشارع رئيس كان ينحدر ناحية النهر تارة ثم يعرج محاذيًا للتل من جديد. وكان بالمدينة مصنع متخصص فى صناعة آلات البيانو والأرغن.

كانت البيوت جميلة التكوين، قوية البناء، وكانت الأفنية واسعة والشوارع محاطة بأشجار الدردار والقنب الناضجة. لم تكن هناك بعد أن غطت الأوراق الأشجار. المشهد مختلف الآن اختلافًا بديعًا.

كان المكان مفتوحًا والخلاء مطلاً على الكائنات، الآن لم يعد الخلاء منظورًا، وأصبح المخفى وراء أوراق الشجر أكثر مما تستطيع العيون الوصول إليه.

نعمت بالبداية الطازجة، امتلأت روحها بالهدوء، وعواطفها بالهدوء، ونفسها بالامتنان. جربت بدايات أخرى فى الماضى ولكن النهايات لم تسفر عما كانت نفسها تصبو إليه، ولكنها كانت تؤمن بالقرارات السريعة، ومكنون المصادفات، وقدرها المتفرد.

كانت المدينة تمتلئ برائحة الخيول. وبينما المساء يجثم على صدر الفضاء، رأت خيولاً ضخمة مغماة حوافرها مكسوة بالريش تجر مركبات الجليد عابرة الجسر، أمام الفندق، وراء أعمدة النور، على مبعدة من الممرات الجانبية. وفى مكان ما فى الريف البعيد، سوف تفقد الخيول القدرة على سماع الأجراس المعلقة فى رقابها.

هوامش

(١) المانونيات جماعة مسيحية متفرعة من جماعة الانابابتست (تجديد العماد)، سميت باسم مينو سيمونز (١٤٩٦-١٥٦١) يبلغ عددهم حول العالم حوالي ١,٥ مليون نسمة اغلبهم في الولايات المتحدة وكندا والكونغو. يؤمنون بقدسية الزواج وعدم التعدد (المترجم).

الإوز البرى

نصحتها "فلو" بأن تأخذ حذرها من تجار الرقيق الأبيض، وحكت لها ما يفعله هؤلاء الناس: "سيدة متقدمة فى السن، فى هيئة الأم أو الجدة، تسعى لتوطيد صداقتها معكِ وأنت جالسة بجوارها فى أوتوبيس أو قطار. تقدم لكِ حلوى محشوة بالمخدر. وفى الحال تتهافت رأسكِ على صدركِ، وتتمتمين بكلام لا يفهمه أحد، عندئذٍ تفقدين القدرة على الإخبار عن اسمك ومكان سكنك. ويسمع الناس صرخات استغاثة من تلك السيدة: "أوه .. ساعدونى .. ابنتى (أو حفيدتى) تعبت فجأة، ساعدونى على النزول بها من هنا لعلها تستعيد عافيتها فى الهواء المنعش." عندئذٍ يتقدم شاب شهم - جنتلمان - يتظاهر بأنه غريب، يقول إنه يريد المساعدة. وعند أول محطة تالية تجدين نفسك خارج القطار أو الأوتوبيس، ويكون ذلك

آخر عهدك بالعالم المألوف لديك. يحبسونك فى مكان تجارة الرقيق الأبيض (المكان الذى تم نقلك إليه مخدرة مكممة الفم، معصوبة العينين حتى لا تعرفى إلى أين ذهبت ومن أى طريق،) بعدها تذوقين على أيديهم ألوانًا من السب والإهانات، وينتهك عرضك رجال سكارى حتى تصابى بأكثر الأمراض فتكًا، وتفقدى عقلك من كثرة تعاطى المخدرات، وتسقط أسنانك وشعرك فى خلال ثلاث سنوات. عندئذٍ تفقدين القدرة على العودة إلى منزلك، وربما تفقدين القدرة على تذكر مكان بيتك، أو حتى الوصول إليه. عندئذٍ يتخلصون منك بإلقائك فى الشارع.

تناولت "فلو" عشرة دولارات ووضعتها فى حقيبة صغيرة من القماش، كانت قد خاطتها فى قميص "روز" التحتى. الشىء الآخر محتمل الحدوث أن تُسرق محفظة "روز". قالت لها "فلو" أيضًا: "احترسى من الناس الذين تجدينهم يرتدون ملابس الرهبان. هؤلاء أسوأ خلق الله. لقد استخدم تجار الرقيق الأبيض مثل هذه الملابس مرات كثيرة، كما استخدمها اللصوص الذين يسعون لسرقة نقودك."

وقالت "روز" إنها لا تنتبه لملابس الناس، ولا تستطيع أن تميز الذين يتخفون فى تلك الملابس من العاديين.

عملت "فلو" فى تورنتو، فى الماضى. عملت نادلة فى مقهى فى محطة قطار. كان هذا العمل مصدرًا غنيًا بالخبرات التى اكتسبتها والأشياء التى تعرفها الآن. فى تلك الأيام لم تكن ترى ضياء

الشمس، فيما عدا أيام إجازاتها. ولكنها رأت الكثير. رأت رجلاً يفتح بطن رجل آخر بسكين، رأته يرفع قميص الرجل الآخر بكل بساطة ويشق بطنه كأنه يشق بطيخة وليست بطن رجل. ورأت الرجل المنكوب يتهافت على مقعد ويمعن النظر فى بطنه غير مصدق، بوغت، لم يجد حتى الوقت للصراخ. كانت 'فلو' تريد أن تقول: إن ذلك كان شيئًا عاديًا فى تورنتو. رأت امرأتين شريرتين (هكذا كانت تصف العاهرات، وهى تنطق كلمتى – bad women بطريقتها الخاصة فكأنك تسمع كلمة "بدمنتن (badminton دخلتا فى عراك شديد، مما أضحك عليهما رجلاً من الوقوف، فتوقف آخرون وراحوا يضحكون ويشجعونهما على المضى فى الشجار. وفى النهاية امتلأت يدا كل واحدة منهما بشعر الأخرى. فى نهاية المطاف وصل رجال الشرطة، واقتاداهما وهما لا تكفان عن العويل والصراخ.

رأت أيضاً طفلاً يقضى نحبه بعد نوبة إغماء، ويتحول لون وجهه إلى لون الحبر.

قالت "روز" عندئذٍ بشىء من الغيظ: "على فكرة أنا لست خائفة، والبلد على كل حال فيها بوليس." فقالت "فلو":

– البوليس!! هؤلاء أول من يخدعونك!

لم تصدق روز ما قالته 'فلو' مما يتصل بموضوع الجنس. احترسى من حفار القبور.

أحيانًا يأتى إلى المحل الذى تعمل فيه 'فلو' رجل قصير ضامر الجسم، أصلع، يتحدث مع 'فلو' بنبرة ناعمة فيها استرضاء. يقول: –

كل ما أريد كيس من الحلوى وبعض علب "العلكة،" وقطعة أو قطعتان من الشوكولاته. هل تغلفينهم لو سمحتِ؟

كانت 'فلو' تؤكد له بطريقتها الساخرة أنها سوف تغلفهم. وغلفتهم فعلاً في ورق مقوى حتى بدا الصندوق مثل الهدية. استغرق وقتًا في اختيار هذه الأشياء. راح يهمهم ويثرثر ويتوانى. في أثناء ذلك كان يسأل 'فلو' عن حالها، وحال روز. كان يقول لـ "فلو":

– تعرفين أن شكلك شاحب. الشابات مثلك يحتجن للهواء الطلق. أنت تتعبين نفسك في العمل أكثر من اللازم.

وكانت "فلو" تجيب في شيء من الخبث:

– الأشرار مثلي لا يرتاحون.

وعندما كان يخرج كانت تسرع إلى النافذة. هناك ... ترى النعش القديم بستائره الأرجوانية.

– اليوم سيكون في أثرهم.

كانت "فلو" تقول ذلك بينما كان النعش يتهادى في رزانة، سرعة الجنازة في الغالب. كان الرجل القصير النحيف يعمل حفاراً للقبور ... حانوتي. ولكنه الآن تقاعد. حتى النعش أحيل للتقاعد أيضاً. تولى أبناؤه المهمة، اشتروا نعشًا جديداً. كان يقود النعش القديم عبر البلاد شرقها وغربها بحثًا عن النساء بصفة خاصة. هكذا كانت تقول "فلو". لم تكن روز تصدق. كانت "فلو" تقول إنه يشترى الحلوى والعلكة لهن. وكانت روز تقول إنه هو الذى كان يأكلها. وكانت "فلو" تقول إن الناس رأوه وسمعوه. كان يقود النعش – في الطقس

المعتدل - والستائر مسدلة، وهو يردد لنفسه أغنيات. وربما يغنى لشخص ما لامرئى. يرقد فى الخلف:

جبينها كان بلون جبال الثلج

وحلقها كالإوز البرى

كانت "فلو" تقلده وهو يغنى. فى رفق شديد يباغت امرأة تتمشى فى طريق جانبى، أو تجلس عند مفترق طريق ريفى. السلامات والتحيات، والأدب الجم، واللطف الناعم، وقطع الشكولاته، وعرض كريم بتوصيلها إلى حيث تريد. هناك سيدات قلن إنه قابلهن ولكنهن لم يستجبن له. ولكنه لم يزعج أيًا منهن، ولم يكن فظًا معهن. يقود سيارته بأدب، وعند البيوت يخفض صوته عند النداء. وإذا كان الزوج فى البيت يبدى رغبة فى الجلوس والثرثرة. هذه شهادة الزوجات ولكن 'فلو' لا تصدق من ذلك شيئًا. قالت مرة:

- بعض النساء سهلة الانقياد.

"فلو" تحب أن تتخيل منظر النعش من الداخل. تتخيل جوانبه وسقفه وأرضيته مغطاة بالقطيفة. قطيفة لونها أرجوانى فاتح، لون الستائر، أو قل لون أزهار الليلك.

"كله كلام فارغ،" قالت روز فى نفسها. "من يصدقه؟ من يصدق رجلاً فى سنه؟"

استقلت "روز" القطار المتجه إلى تورنتو وحدها لأول مرة فى حياتها. ذهبت مرة قبل ذلك ولكنها كانت مع "فلو"، وقبل وفاة أبيها بوقت طويل. أخذتا معهما ساندويتشات، واشترتا لبنًا من بائع لبن

فى القطار. اتضح أن اللبن مر، لبن بالشكولاته، ولكنه مر، تغير طعمه. رشفت روز رشفات قليلة بحرص شديد. كانت تحب اللبن بالشكولاته ولكن طعمه خذلها. أما "فلو" فقد شمت رائحته ولم يعجبها، فقلبت القطار رأسًا على عقب حتى عثرت على الرجل العجوز ذى الجاكت الأحمر، وفمه الخالى من الأسنان، والصينية المعلقة فى رقبته. دعته لتذوق اللبن الذى باعه لهما ويشمه. ودعت كل من حولها من الناس ليشموه. أعطاها الرجل جعة بالزنجبيل دون مقابل ترضية لها. كانت الجعة دافئة قليلاً. قالت "فلو" وهى تنظر حولها بعد أن غادر الرجل: "جعلته يعترف بخطئه. يجب على الجميع أن يفضحوا مثل هؤلاء." تعاطفت معها سيدة، ولكن الباقين تحولوا إلى نوافذهم يتطلعون. شربت "روز" جعتها الدافئة. مشهدها مع البائع، والحوار الذى اشتبكت فيه مع المرأة التى تعاطفت معها، والتى وصل الآن إلى: أين تقيمين؟ ولماذا أنتما ذاهبتان إلى تورنتو؟ والإمساك الذى أصاب "روز" فى الصباح مما أشحب لونها، والكمية الصغيرة من لبن الشكولاته التى شربتها وسببت لها الاضطراب المعوى، وجعلها تتقيأ فى حمام القطار، وظلت طوال اليوم خائفة من أن يشم الناس فى القطار رائحة القيء على معطفها.

قالت "فلو" للكمسارى وهى تودع "روز": "خلِ بالك منها، هذه أول مرة تخرج من بيتها وحدها!" قالت ذلك وهى تنظر حولها وتضحك لتوحى للجميع أنها كانت تقول ذلك على سبيل الهزل وليس الجد. واضطرت إلى النزول. لم يكن يبدو على الكمسارى أنه فى حاجة إلى

نكاتها ومزاحها. ولم يكن لديه نية فى أن يهتم بروز ولا بغيرها،، لم يتحدث مع روز إلا عندما سألها عن التذكرة. كانت تجلس إلى جوار النافذة. فجأة غمرتها سعادة طارئة: شعرت أن "فلو" تنسحب من عالمها، وأن وست هانراتى تبتعد عنها، وأن نفسها التى عاشرت الحزن والفقر تزايلها شيئًا فشيئًا فى يسر وكرم. أحبت المدن المغمورة. من نافذة القطار رأت سيدة ترتدى قميص النوم ولا تأبه أن يراها ركاب القطار - ركاب القطار كلهم - وهى على هذه الحال. كان القطار ينطلق ناحية الجنوب، خارج حزام الثلج، إلى ربيع باكر وطبيعة أكثر كرمًا ولطفًا. هناك يستطيع الناس زراعة أشجار الخوخ فى أفنيتهم الخلفية.

عددت روز الأشياء التى تنوى البحث عنها فى تورنتو. بدأت بالأشياء التى سوف تشتريها لـ "فلو": شراب ضاغط لقدميها ليخفف عنها ألم الدوالى، نوع خاص من الأسمنت لتثبيت مقابض الأوانى، وطقم كامل من حجر الدومينو. ثم إنها تنوى شراء أشياء لنفسها: مزيل شعر لإزالة شعر ساعديها وساقيها، ولو أمكن طقم من الوسائد القابلة للنفخ، يقال إنها تنقص من حجم فخذيها وردفيها. قالت فى نفسها إن مزيل الشعر موجود فى صيدلية فى هانراتى، ولكن المشكلة أن البائعة هناك تعرف "فلو" وتحكى لها عن كل شىء. أخبرت "فلو" مرة عمن اشترى صبغة شعر وعلاج نحافة وخزانات فرنسية. وقالت فى نفسها أيضًا: بالنسبة للوسائد تستطيع أن ترسلها بالبريد، ولكن البريد سوف يسأل عن مصدرها، و"فلو" تعرف

الناس هناك. خططت أيضًا لشراء بعض الأساور، وسويتر مصنوع من وبر الأرنب. كان قلبها يخفق لرؤية أساور الفضة، والسويتر المصنوع من وبر الأرنب ذى اللون الأزرق. قالت فى نفسها أيضًا إن هذه الأشياء يمكن أن تغيرها تغييرًا جذريًا. تجعلها أهدأ بالاً وأخف وزنًا. تستطيع أن تزيد من استرسال شعرها، وتجفف تحت إبطيها، وتحول بشرتها إلى لون اللؤلؤ.

حصلت روز على النقود التى ستدفعها لهذه الأشياء والتى ستدفعها للرحلة من جائزة كسبتها من مقال كتبته بعنوان "الفن والعلم فى عالم الغد." فوجئت أن فلو تريد أن تقرأه، وعلقت فلو بأنهم فى الغالب منحوا روز الجائزة لحفظها القاموس عن ظهر قلب، ثم قالت فى شىء من التردد: "مقال عجيب." قضت ليلة عند شيلا ماكنى. كانت شيلا ماكنى ابنة عم أبيها. تزوجت من مدير فندق وظنت أنها نالت ما تريد من هذا العالم. ولكن مدير الفندق قدم إلى المنزل فى يوم من الأيام وجلس على أرضية حجرة السفرة بين مقعدين وقال: "قررت ألا أغادر هذا المنزل مرة أخرى." لم يحدث شىءٌ خارج المألوف يجعله يتخذه قراره. كل ما فى الأمر أنه قرر ألا يغادر البيت لحظة واحدة، وقد حدث. لم يغادر البيت حتى وافته المنية. هذا ما كان سببًا فى عصبية شيلا ماكنى وغرابتها. تغلق أبوابها فى الثامنة، وتعلمت البخل الشديد، يتكون عشاءها عادة من عجين الشوفان مع الزبيب. أصبح بيتها مظلمًا وضيقًا ويفيض برائحة غريبة كأنها تنبعث من صندوق صغير.

كان الزحام يزداد فى القطار. فى برانتفورد سألها رجل ما إذا كان عندها مانع من الجلوس بجوارها. قال لها: "الجو فى الخارج أبرد مما تظنين." قدم لها جزءًا من جريدته، وقالت له: "لا شكرًا."

ثم خشيت أن يظن بها الغرور فقالت له إن الجو فعلاً بارد. ثم استأنفت النظر خلال النافذة تراقب بدايات الربيع. لم يتبق من الثلج شيء هناك .. هناك خارج القطار. ظنت أن الأشجار والشجيرات الصغيرة أكثر شحوبًا من أشجار الوطن. حتى ضوء الشمس بدا مختلفًا عن ضوء الشمس فى بلدها. بدا مختلفًا هنا كاختلاف ساحل المتوسط أو وديان كاليفورنيا.

قال الرجل: "النوافذ متسخة لا يعتنى به أحد. هل تسافرين كثيرًا بالقطار؟"

قالت: "لا."

رأت الماء راكدًا فى الحقول. أومأ لها وقال: "الماء وفير هذا العام." ثم أردف:

- "والثلوج كثيفة."

لاحظت أنه نطق كلمة "ثلوج" بصوت فيه شاعرية ونعومة. فى البلد ينطقونها "ثلج."

"أول أمس كان لى تجربة غير عادية. كنت أقود سيارة فى شوارع الريف فى طريقى لرؤية أحد أبناء أبرشيتى، سيدة تعانى من مرض فى القلب ——

حانت منها التفاتة سريعة نحو ياقته. كان يرتدى قميصًا عاديًا

ورباط عنق وبذلة ذات لون أزرق غامق. واستمر يقول: "نعم .. أنا قسيس فى الكنيسة المتحدة. ولكنى لا أرتدى الزى طوال الوقت. لا أرتديه إلا حين أريد إلقاء موعظة. أنا اليوم لا ألقى موعظة."

ثم راح يكمل ما بدأه: "حسنًا ... كنت أقود سيارتى فى الريف ورأيت بعض الإوز الكندى الجميل فى بركة هناك .. وعاودت النظر فرأيت معهم بعض الإوز العراقى. سرب كامل من الإوز العراقى. منظر جميل. كانوا يتأهبون لهجرة الربيع. يريدون السفر إلى الشمال. منظر جميل. لم أر أجمل منه فى حياتى.

تحيرت روز كيف تشاركه الحديث. خشيت أن ينتقل الحديث معه من الإوز إلى جمال الطبيعة بصفة عامة، ثم إلى قدرة الخالق كشأن الحديث مع القساوسة فى العادة. ولكنه لم يفعل. قطع حديث الإوز بجملة مقتضبة: "مشهد جميل جداً، لو رأيته لاستمتعت به."

قالت روز فى نفسها: "لعله بين الخمسين والستين." كان قصيراً تتحرك عيناه بسرعة فى وجهه المدور المائل لحمرة الورد. كان شعره رماديًا فاتحًا ممشطًا بطريقة مستقيمة فوق جبهته. وعندما تأكدت من أنه لن يذكر لها قدرة الخالق أرادت أن تبدى شيئًا من المشاركة فى الحديث فقالت له: "إن الإوز جميل جداً فعلاً." ولكنه أردف:

"لم تكن حتى بركة من البرك الدائمة، لم تكن أكثر من بعض المياه الراكدة التى تجمعت فى حقل، ولعل الإوزات قدمن بالمصادفة، و لعلى كنت أقود سيارتى بالمصادفة أيضًا على الجانب الأيمن من الطريق. إنه الحظ ولا شىء غيره. كانوا يحطون على الطرف الشرقى

من بحيرة "إيرى" ولم يحالفنى الحظ قبل ذلك لرؤيتهم."

شرعت تحول عينيها إلى النافذة، وشرع هو يقرأ فى جريدته. أبقت على ابتسامتها لبعض الوقت حتى لا تتهم بالجفاف، أو أنها ترفض الحوار. كان الصباح باردًا حقًا، ولذا سحبت معطفها الذى علقته على الخطاف عندما ركبت القطار؛ أرسلته على جسدها كالروب فغطى حتى حجرها. وضعت حقيبتها على الأرض حتى تفسح مكانًا للقس يجلس فيه. أخذ أقسام الجريدة وفصلها بعضها عن بعض، وراح يرتبها أو يدفعها دون هدف واضح. تخلص من أجزاء ولكنه أبقى على جزء آخر أرسله على وجهه ولكنها أحست بأن شيئًا مس ساقها ظنت فى البداية أنه طرف الجريدة واستكانت للتفسير.

ثم قالت فى نفسها: "ماذا لو أنها يد بشرية؟" الخيال نفسه الذى كان يجول بخاطرها بين الحين والحين. كانت أحيانًا تمعن النظر فى أيدى الناس، ترقب الزغب على سواعدهم، وصورهم من الجنوب. كانت مشغولة بما يفعلون. حتى الحماقات. تذكرت السائق الذى كان يجلب الخبز إلى محل "فلو" وكيف كان واثقًا من نفسه وعمله، يتعامل مع عربة الخبز بمزيج غريب من ألسر والثقة فى النفس. طية البطن الظاهرة فوق الحزام لم تثر سخطها. فى وقت من الأوقات وضعت عينيها على مدرس لغة فرنسية. لم يكن فرنسيًا، كان اسمه ماكلارن، ولكن روز كانت تظن تعليم الفرنسية قد أثر فيه؛ جعله يبدو فرنسيًا. كان سريع الحركات وشاحب اللون وله منكبان نحيفان

وأنف معقوف وعينان حزينتان. هاهو يريد أن يشق طريقه نحو مصادر السعادة البسيطة. فى نفسها توق لأن تصبح مادة طيعة لرجل ما. منسحقة أمامه، سعيدة، متضائلة، مستنفدة.

ولكن ما الخطب لو كانت يد؟ ماذ سيحدث لو كانت المتسللة فى الواقع؟ تململت برشاقة قدر استطاعتها ناحية النافذة. لعله الوهم هو الذى أنبأها بذلك. ولكنه وهم مزعج. ركزت انتباهها على تلك الساق، ذلك الجزء الذى كان مكسواً بالجورب. لم تأتها الجرأة على معاودة النظر. تشعر بشىء يلامسها ويضغط على ساقها. تململت قليلاً للمرة الثانية. هى ساقها، وكانت اليد تضغط فعلاً.

من فضلك. من فضلك لا تفعل.

هذا ما كانت تريد أن تقوله. لم تبرح كلماتها عقلها، همت بالنطق ولكن الكلمات لم تتجاوز الشفتين. لم ذاك؟ لم ذلك العى والحصر، ولم ذلك الخوف من أن يسمع الناس؟ كان الناس حولها فى كل مكان، يملأون المقاعد المصطفة.

لم يكن ذلك فقط.

تمكنت من النظر إليه هذه المرة، دون أن تحرك رأسها، راحت تديرها بحرص. لقد أمال مقعده للخلف وأغلق عينيه. هنالك كان كم بذلته الأزرق يتوارى تحت الجريدة. رتب الجريدة حتى تغطى معطف روز. كانت يده هناك تحط على الجسد الريان وكأنها تغط فى نوم عميق.

تمكنت روز الآن من إزاحة الجريدة وإزالة معطفها. لو لم يكن

نائمًا لاضطر إلى أن يسحب يده. كان يمكن أن تهمس به: "لو سمحت،" وتضع يده بقوة على ركبته. هذا هو الحل، الحل سهل وواضح، ولكنه لم يدر بخلدها. وسألت نفسها: "لم لا؟" لم تكن يد القس مرحبًا بها، أو على الأقل حتى الآن. نغصت عليها لحظات الراحة. جعلتها تشعر بالاستياء، بالتقزز .. بعض الشيء، يقظة ولكنها في سجن.

ولكنها لم تنهض بالعبء، لم ترفض اليد. لم تصر على أن يده كانت هناك حين كان يصر على أن يده لم تكن هناك. كيف تفضحه وهو النائم المسكين أو النائم البرىء؟ وذلك الوجه المبتهج يريح نفسه قبل استقبال يومه المليء بالمسؤوليات؟ كان يبدو رجلاً أكبر سنًا من أبيها ... يراعي مشاعر الآخرين، ويتذوق جمال الطبيعة، وتبتهج نفسه لرؤية الإوزات العراقية. هل كان سيتجاهلها لو قالت له من فضلك أبعد يدك عني؟ هل كان سيتجاهلها كمن يتجاهل غباءً وسذاجة أو قلة ذوق من جانبها؟ كانت تظن أنها لو قالت له ذلك لتظاهر بعدم سماع شيء.

ولكن الأمر ينطوي على ما هو أجل. حب الاستطلاع ... غريزة متمكنة من البشر. أكثر إلحاحًا وتسلطًا من أية شهوة أخرى. هي شهوة الشهوات. شهوة تجعلها تنسحب وتنتظر طويلاً، تنتظر وتضحي بأي شيء من أجل أن ترى ما سوف يحدث. نعم .. من أجل أن ترى ما سيحدث.

بدأت اليد، على مدى الأميال العديدة التالية في التسلل، في

القيام بأرق اللمسات والاستكشافات وأكثرها ترددًا. لم ينم إذن! أو هو نائم ولكن اليد لا تزال مستيقظة!! أحست بالاشمئزاز، بثقل الرأس فوق الكتف، بالغثيان يطوف فى الأمعاء. طار خيالها إلى الجسد البشرى، إلى النتوءات، إلى الخراطيم الوردية، إلى الألسنة الضخمة، والأصابع الكليلة، كلها فى الطريق تهرول، تزحف، تتدلى، تواصل السير بمشقة، تبحث عن الراحة. تذكرت القطط التى تحك جسدها بسبب الحر على بسطات الأسوار، تعوى بسبب شكاواها البائسة. كان شيئًا بغيضًا، شيئًا صبيانيًا، هذا الحك والدفع والضغطة والأنسجة الأسفنجية والأغشية المتأججة والنهايات العصبية المهتاجة والروائح المخجلة والخزى.

إنه يعرف ماذا يريد. بدأ العمل. شرعت اليد تتلمس الطريق. تلك اليد التى لن ترغب فى لمسها لمسة بلمسة. تلك اليد العنيدة الصابرة. تلك اليد التى استطاعت أن تجعل نبات السرخس يستيقظ من سباته، وجداول الماء تفيض بالماء، وتوقظ الثراء الدفين.

تأهبت للصد رغم كل شىء. استعدت للتعبير عن الرفض. من فضلك ابعد عنى. ارفع عنى يدك ... تاهت الصرخة فى الفضاء الكائن خلف النوافذ المفتوحة. أوقف هذا الذى تفعله من فضلك. كأنها كانت تخاطب أعمدة النور الخشبية ... ومخازن الحبوب. بدأت اليد رحلتها من أعلى الجوربين، حيث البشرة العارية. مرت ببطن الساق تنشد الخيال. صدها السروال التحتى فاستأنفت حتى مست بدايات البطن. كان ساقاها لا يزالان متصالبان، متشابكان. لا زالت

نفسها تلوذ بالبراءة، وتأمل فى الزمن. قالت فى نفسها: أستطيع أن أوقفه عند حده فى دقيقة واحدة. لن يحدث أكثر مما حدث على أية حال. لن تتفرج ساقاها.

ولكن ساقيها انفرجتا. انفرجتا بينما كان القطار يمرق من نفق نياجرا فوق دندس، والعيون مشغولة بالنظر نحو الوادى الموغل فى القدم، الوادى المتكون قبل عصر الجليد، وركام الحجارة الفضية التى تكسو التلال الصغيرة، والقطار ينزلق فى نزوله نحو شواطئ بحيرة أونتيريو، قد تصدر منها الصرخة المؤجلة، الصرخة البطيئة الصامتة، ربما خيبت آمال صاحب اليد وربما لا. لم يرفع حواجبه، لم تتغير قسمات وجهه، لم تتردد أصابعه، بل هى ماضية فى نشاطها، بقوة ودون انقطاع. غزو ... ترحيب!! وضوء الشمس يلمع فى الأفق البعيد، والمدى يتسع على صفحة مياه البحيرة، على بعد أميال من أشجار الكرز العارية التى تتراقص فى دائرة تحيط ببيرلنغتون.

ذلك هو العار بعينه، التسول بعينه .. ولكن ما الضرر؟ .. ما الضرر فى الأسوأ أيضاً؟ ... نقول ذلك لأنفسنا ونحن نمتطى موجة الطمع القادم ... يد غريب .. أو جذنبات. ... أو أداة بسيطة من أدوات المطبخ لا يزال الناس يتندرون بها .. العالم اليوم ملىء بأشياء كثيرة ... تحاكى الواقع ... أشياء لطيفة وسريعة الانفعال. حاولت تنظيم أنفاسها. لم تصدق ذلك. ضحية ومتواطئة... رأت محلات "غلاسكو جامز" ولمحت أنابيب تكرير النفط الضخمة المنتفخة. مرقوا

من خلال الضواحى التى انتشرت فيها ملاءات الأسرة والفوط التى كانت تمسح البقع الحميمة، أو ترقص بمكر على حبال الغسيل، وحيث الأطفال أيضًا يمزحون بمكر فى أفنية المدارس، وقائدو المركبات يقفون عند مفترقات الطرق والمزلقانات، يدفعون بأصابعهم المرحة فى الأيدى المتشابكة ... مشاهد مألوفة اليوم. لاحت أبواب وأبراج معرض غروند للعيون، وطفت القباب والأعمدة المطلية بجمال خلاب على جفونها الوردية ثم طارت مبتعدة فى احتفال. كنت تستطيع أن ترى هذه الأسراب من الطيور، والإوز العراقى، متيقظة تحت قبة كبيرة، محتشدة، تقلع منها كأنها انفجرت منطلقة نحو السماء.

عضت طرف لسانها. مر الكمسارى سريعا بين العربات، يوقظ المسافرين، ويردهم إلى الحياة من جديد.

وفى الظلام عند المحطة فتح قس الكنيسة المتحدة عينيه منتعشا، طوى جريدته ثم سألها إن كانت تريده أن يساعدها على ارتداء معطفها. شهامة ممتزجة بالغرور. قالت له روز: "لا " بلسان مقروح. غادر القطار بسرعة. ذاب شبحه فى زحام المحطة. لم تره. ولن تراه فى حياتها أبداً مرة أخرى. ولكن ظل يداعب الذاكرة سنوات وسنوات؛ شبحاً جاهزاً للاستدعاء فى اللحظة المطلوبة. دون تفكير فى أى شىء. دون تفكير فى زوج أو حبيب. من الذى فوضه؟ شىء استعصى على الفهم. بساطته، غروره، تلك الدرجة البسيطة من الأناقة المحببة لديه... رجولته العادية؟ عندما وقف عرفت أنه أقصر

مما كانت تعتقد، وأن وجهه كان مشرقًا يميل إلى الحمرة.

هل كان قسًا حقًا؟ أم كان ذلك ما قاله فحسب؟ ذكرت "فلو" أن هناك من الناس من ليس قسًا ولكنهم يرتدون ملابس القساوسة. ومنهم قساوسة لا يرتدون ملابس القساوسة. الأغرب من ذلك أن منهم من ليسوا قسسًا حقيقيين ويزعمون أنهم قسس حقيقيون ولكنهم لا يرتدون ملابس القساوسة. وهذا هو النوع الذى عرفته تمام المعرفة.

مشت روز عبر محطة يونيون تتحسس حقيبتها والدولارات العشرة التى بداخلها. التصقت الحقيبة على جنبها وهى تشعر بها وتذكرها بما كان من أمر النهار المصرم.

لم تكف عن تذكر رسائل "فلو." تذكرت حين وصلت محطة يونيون فتاة اسمها مافيز كانت تعمل هنا فى محل الهدايا، وكانت فلو تعمل فى المقهى. كانت مافيز تشكو من ثآليل على جفنيها توشك أن تتحول إلى قروح، ولكنها لم تتحول، تلاشت. أو ربما أزالتها. لم تسألها "فلو." كان وجهها جميلاً بدونها. كانت تحب نجمة سينما فى تلك الأيام اسمها فرانسيز فارمر. لم تسمع روز عن فرانسيز فارمر قط.

تقمصت فلو شخصية مافيز. وسافرت مافيز واشترت قبعة كبيرة تتدلى على عينيها، وفستانًا كله من الأشرطة. سافرت تقضى إجازة نهاية الأسبوع فى خليج جورج، للاستجمام. حجزت التذكرة باسم فلورنس فارمر. تريد أن تعطى الانطباع للجميع أنها هى المرأة الأخرى، فرانسيز فارمر ولكنها اختارت اسم فلورنس فارمر للتمويه،

وهى فى إجازة ولا تريد أن يعرفها أحد. اشترت "بايب" صغيراً أسود مصنوعاً من عرق اللؤلؤ تشبهًا بالنجوم. كان يمكن أن يقبض عليها بتهمة الجرأة.

ذهبت روز إلى محل الهدايا تريد التأكد: هل مازالت مافيز هناك؟ وهل تستطيع التعرف عليها الآن؟ فكرت فى تحول كهذا. شىء للتغيير. فهل تجرؤ؟ هل تتمكن من الإفلات؟ تريد أن تجرب المغامرات الصاخبة مع جسدها ولكن باسم جديد.

الكاتبة

*** ألِس مونرو**

- كاتبة كندية ولدت فى العاشر من يوليو من عام ١٩٣١ ، تخصصت فى كتابة القصة القصيرة وبرعت فى هذا المجال، ونالت الكثير من أرفع الجوائز المحلية والدولية، منها جائزة الحاكم العام فى كندا مرتين، جائزة أو هنرى أكثر من مرة، يضعها الكثير من النقاد نداً لأنتون تشيخوف وسينثيا أوثيك وغيرهما من عمالقة القصة القصيرة فى العالم، وتعد من أقوى المرشحين لجائزة نوبل كل عام. تعيش ألِس مونرو فى فكتوريا، كندا.

المترجم

• د. أحمد عبد اللاه الشيمي أحمد

- من مواليد باجا - سوهاج عام ١٩٥٧.
- حصل على الليسانس والماجستير من جامعة أسيوط وحصل على الدكتوراه من جامعتي رايس والقاهرة عام ١٩٩٦ بمرتبة الشرف الأولى.
- عمل في جامعة القاهرة فرع بني سويف مدرسًا للأدب الإنجليزي ثم أعير عام ١٩٩٩ إلى جامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية وحتى ٢٠٠٩.
- يعمل حاليًا أستاذًا مساعدًا للأدب الإنجليزي ورئيس قسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب جامعة بني سويف.

• له أعمال مترجمة منشورة منها:

- نساء مفقودات مختارات من القصة الأمريكية القصيرة تصدير الدكتور ماهر شفيق فريد صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- يقظة أمرأة ترجمة رواية كيت شوبان "The Awakening" صادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ترجمة كتاب ستانلى فش "هل يوجد نص في هذا الفصل:

سلطة الجماعات المفسرة" صادر عن المشروع القومى للترجمة.

- كتاب : ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى : مختارات من القصة الأمريكية في القرن العشرين مراجعة الأستاذ طلعت الشايب . صادر عن المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥ ، وطبعة ثانية ضمن سلسلة الأدب ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ ، وطبعة ثالثة عن المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٩.
- ترجمة لرواية جون أبدايك الإرهابى صادرة عن المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩.
- ترجمة كتاب كلير كرامش "اللغة والثقافة" صادرة عن مركز الترجمة التابع للمجلس الوطنى للفنون والتراث - الدوحة - قطر وتصدير بشير مرزوق بشير.
- له بحوث منشورة باللغة الإنجليزية فى مجلات محكمة.

* تحت الطبع :

- الإسلام فى أوربا : التنوع والهوية والتأثير مراجعة وتصدير الدكتور محمد عنانى.
- موجز تاريخ الأدب الإنجليزى (مراجعة) ترجمة د / حمدى الجابرى.

المحتوى

للنشر في السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

85- من العيون فى العيون
تأليف : يوسف هروبى
ترجمة : يوسف ليمود
86- القميـــص
تأليف : لاورو أولمو
ترجمة وتقديم : د.طلعت شاهين
87- أبناء الشمس الخامسة
ترجمة وتقديم : فاطمة ناعوت
تصدير : د.ماهر شفيق فريد
88- حكايات الجن الدنماركية
تأليف : هانز كريستيان أندرسن
ترجمة وتقديم : د. توفيق على منصور
89- افتـــح الأبواب كلهـــا وقصائد أخرى
ترجمة : محمد أبو العطا
90- مختارات من كُتَّاب نوبل
ترجمة : حسين عيد
91- علـــى و نينـــو
تأليف : قربان سعيد
ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراهيتلى سابقاً)

سلسلة
آفاق عالمية

الكاتبة الكندية أليس مونرو لا تحدثك بالكثير عن فنها أو نفسها، لا تفيدك إن حاولت أن تعرف منها سر صنعتها ومصادر إلهامها. قد تبدو لك فلاحة ساذجة تخشى الغرباء وشر حاسد إذا حسد! نشأت في بيئة فقيرة محافظة لا يتحدث فيها الناس عن أنفسهم ولا إنجازاتهم، ولا سيما حين تكون امرأة تعمل في مهنة تجعلها مختلفة عن سائر النساء في قريتها أو مدينتها الصغيرة.

أليس مونرو تكتب فقط، فتقنعك في كل قصة من قصصها أن الخيال أجمل من الحقيقة وأن الأساطير خير وأبقى من حقائق التاريخ وأن الحلم أجمل من الواقع وأن الإبداع قد يأتي من قلب الخراب وأن الحاضر والمستقبل ينبثقان من رح
كما الأضواء من جوف الظلمات.



تصميم الغلاف: أحمد اللباد





السعر: جنيهان